جامع الأصول في الأولياء

2



احمد النقشبندي الخالدي









جامع الأصول
الطرق الصوفية

2

للسيد أحمد النقشبندي الخالدي

تحقيق اديب نصر الله

الغلاف: محمد شمس الدين



ص. ب ١١٣/٥٧٥٢
بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى ١٩٩٧

المحتويات

تقديم

الشاه نقشبند محمد بهاء الدين:

كان الشاه نقشبند محمد بهاء الدين صدر مسند الإرشاد والهداية، جامع النعوت وخصائص الولاية، ملاذ الزمان وقطب أهل الحقيقة.

وعرفانه مظهر لصفات ربّانية.

ومورد أخلاق.

تفنّن واصفوه بحسنه وقالوا ما لم يوصف:

بيت أردت له مدحاً فما من فضيلة

تأملت الأجلى والأوضح منها وقلت:

إنه حضرة قدوة العارفين، وأفضل المحققين.

وارث الأنبياء والمرسلين شيخنا وسيدنا وسندنا الشيخ بهاء الحق والدين محمد ابن محمد البخاري المعروف بشاه نقشبند قدّس الله روحه وطيب مشهده ونوّر ضريحه ونفعنا بمحبته والإقتداء بسيرته.

طريقه ونسبته:

أخذ الطريق وآدابها بحسب الصورة من قطب العارفين سيدنا أمير كلال: وبحسب الحقيقة فإنه أويسي. لأن تربيته كانت من روحانية سلطان الأولياء عبد الخالق الفجرواني.

أما بحسب النظر والقبول فمن محمد بابا سماسي وهو شيخ أمير كلال. وكان هذا الشيخ كلما مرّ بقصر عارفان[1] يقول لأصحابه: يجيء منها ريح «الشخص من الرجال» وهذا قبل ولادة بهاء الدين.

ويوماً مرّ حضرة محمد بابا سماسي وقال: تلك الرائحة ازدادت فقد وُلد هذا الشخص قريباً. وولادته تشرّف هذه القرية، وكان قد مضى ثلاثة أيام على ولادة بهاء الدين.

وقال محمد بابا سواسي: سوف لا يمضي زمان كثيراً إلاّ ويكون هذا الولد قدوة أهل زمانه ثم خاطب أمير كلان وقال:

يا أمير كلال لا تبخل ولا تقصّر في ولدي بهاء الدين: في تربيته وشفقته وإن تقصّر لا أحلّ حقي لك. فلما سمع أمير كلال قام ووضع يديه على صدره وتضرّع وقال: إن قصّرت في حقه وتربيته وشفقته فإني لست بإنسان.

ولادته:

أما ولادته ففي قصر عارفان ويقال هندوان في قرية قرب بخارى وهي قرية مفرحة: كثيرة الروض.

ولد سنة ثماني عشرة وسبعمائة. وعمره شرّف العالم ثلاثاً وسبعين ومات سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. وقد ظهرت عجائب وعلامات وأنوار خارقة للعادات عند ولادته ووفاته.[2]

ذكر نسب عبد القادر الجيلاني[3]

أما ذكر نسبة عبد القادر وأوصافه: فهو القطب الأعظم وغوث الأكرم، وقدوة العارفين، وسردار الواصلين، ورهتماء[4] العاشقين، وهو

---

(١) قرية قريبة من بخارى كما جاء في المخطوط ويبدو أن كلاّل قرية في بخارى كذلك.

(٢) أسقطنا عبارة: فأرجع إلى المطولات

(٣) جاء في المخطوط «نسبة عبد القادر»

(٤) هكذا في الأصل.

العالم الفاضل، الأكمل والمحقق المجتهد المدقق، والحياة الساري والمدد الجاري في المشارق والمغارب، وملجأ الأولياء والسالكين عون الله به وبأسناده.

وقال المخبر: أخبرنا الفقيه العالم أبو المعالي أحمد الشيخ المحقق أبي الحسن علي بن أحمد بن عبد الرزّاق بن عيسى الهلال، قال أخبرنا والدي عبد الرزّاق قال: سألت والدي الشيخ محي الدين عبد القادر أبا محمد ابن أبي صالح موسى حسكي دوست بن أبي عبد الله بن يحي الزاهدي ابن محمد بن داوود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجوز بن عبد الله المحصن، وينعت أيضاً بالمجد، بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم.

سبط أبي عبد الله الصومعي الزاهد وبه كان يعرف حيث كان بجيلان.

مولده:

عن مولده قال: لا أعلم حقيقته لكنّي قدمت بغداد في السنة التي مات فيها التميمي وعمري إذ ذاك ثماني عشرة سنة. قلت: والتميمي هذا هو أبو محمد رزق الله.

وقال: ذكر أبو الفضل أحمد بن صالح بن شافعي الجيلي الحنبلي رضي الله عنه أن مولد الشيخ محي الدين عبد القادر الجيلاني سنة إحدى وسبعين وأربعمائة(٥) بجيلان، وأنه دخل بغداد سنة ثماني وثمانين وأربعمائة وله ثماني عشرة سنة.

قيل وهو منسوب إلى جِيْل بكسر الجيم وسكون الياء وهي بلاد متفرقة وراء طبرستان، وبها وُلد في نيف قصبة منها، ويقال فيها أيضاً جيلان وكيلان، وكيل أيضاً قرية على شاطىء دجلة. [وأمه أم الخير، أمة الجبار، فاطمة بنت أبي عبد الله الصومعي، وكان لها حظ وافر من الخير والصلاح.

(٥) في الأصل: «سنة أحد وسبعين وأربع مائة وعشر سنة»

قال: كان شيخنا شيخ الإسلام محي الدين أبو محمد عبد القادر الجيلاني رحمة الله عليه نحيف البدن، رابع[٦] القامة، عريض الصدر، عريض اللحية طويلها، أسمر مقرون الحاجبين، حفيا، ذا صوت جهروي وسمت مجفى، وقدر عليّ وعلم وفيّ رضي الله عنه.

قال: أخبرنا شيخنا أبو بكر بن هواز البطايحي رضي الله عنه في مجلسه يوماً يعين أصحابه وذكر أحوال الأولياء ثم قال:

ظهر بالعراق رجل من العلماء عالي المنزلة عند الله وعند الناس إسمه عبد القادر ومسكنه بغداد يقول: قدمي هذه على رقبة كل وليّ الله، وتدين له الأولياء في عصره، ذلك الفريد في وقته.

قال: فإني كنت سُئلت أن أجمع ما وقع لي في قول شيخنا شيخ الإسلام مقتدى الأولياء علم الهدى محي الدين أبي محمد عبد القادر أبي صالح الجيلي الحنبلي قدّس الله روحه، ونور ضريحه: قدمي هذه على رقبة كل وليّ الله. إذ هي يتيمة عقد الزمان وفريدة سلك البيان وحلّة مجد حلى فيها قائلها، ومنزلة عزٍ انفرد بها نازلها، فاستخرت الله وأجبت السائل ابتغاء النفع العاجل والأمر الآجل.

أنواع الأولياء والمتصرفين

أما أنواع الأولياء والمتصرفين

ـ منها[٧]:

قطب الأقطاب وقطب الإرشاد وقطب البلاد وقطب المتصرفين

وهي الكلمات الجامعة الإلهية وقدرتهم قدرة الذاتية السابقون[٨].

ـ ومنها الأوتاد الأربعة:

عبد الحي وعبد العليم وعبد المريد وعبد القادر

---

(٦) أي مربوع.

(٧) هكذا في الأصل والصحيح منهم.

(٨) السابقون هم المقربون. التعريف للمؤلف.

وأصلها: أدريس وألياس وخضر وعيسى

وهم قطب العالم، وهذه الأوتاد نائبهم لا موت ولا عارض ولا صعق ولا تغيّر لهم

ـ ومنها الإمامان:

أحدهما يمين القطب والآخر يساره، وهما بمنزلة الوزير، والوزارة توارث من الأنبياء. كما قال تعالى في حكاية موسى «واجعل لي وزيراً من أهلي هارون». وفي حق الرسول عليه السلام: هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين.

ـ ومنها الأبدال:

السبعة وهم في أقاليم سبعة على قدم خليل وموسى وهارون وأدريس ويوسف وعيسى وآدم.

فالأول للأول والثاني للثاني.

وأسماءهم أسماء الأوتاد الأربعة وعبد السميع، وعبد البصير وعبد الشكور وهؤلاء الثلاثة يكملون الأوتاد الأربعة(٩) ليصبحوا سبعة.

ـ ومنها النقباء:

وهم اثنى عشر كما ورد في القرآن الكريم في بني إسرائيل: ﴿وبعثنا منه اثنى عشر نقيباً﴾(١٠) مطّلعون تأثيرات الكواكب التي تنزل على البروج.

ـ ومنها النجباء:

وهم ثمانية بعدد السموات مع الكرسي وهم واقفون على أحوال النجوم وسيرها على ثمانية أفلاك. بالكشف لا بعلم النجوم والنقباء فوق النجباء لأنهم مطلعون على أحوالهم وأسرار النجوم والكرسي والعرش.

(٩) الأوتاد الأربعة سبق ذكرهم وهم: عبد الحي وعبد العليم وعبد المريد وعبد القادر.
(١٠) سورة المائدة، الآية ١٢ ـ ١٢/٥

ـ ومنها الحواريون:

وهم الصافون والخالصون من التردد والتلون وهم سيوف الله وحجبه على المنكرين والمضلّين والمخالفين، وحواري هذه الأمة: [الزبير كما ورد: والزبير ابن عمي وحواريتي، ومَن على مشرب الزبير في كل عصر.

والمعتمد الأنصار والخلفاء الأربعة وعثمان بن قطعون وحمزه وجعفر. وهم من الحوارين لأنهم جمعوا خطتين: الشجاعة والبرهان. فأفهم.

ـ ومنها خُتم الأولياء:

وهم ثلاثة: عيسى بن مريم خُتم به الخلافة العامة والدلاية الشاملة من آدم حتى آخرهم، ففي حقه حشر مع الأنبياء ومع أمة محمد في القيامة

ـ ومحمد مهدي ختم خاصة خلافة محمدية

ـ والشيخ الأكبر ختم به الولاية الخصوصية.

ـ ومنها ثلاثمائة: رجل من الأولياء

على قلب آدم ومشربه وعلمه ويدعون بدعائه:

ربنا ظلمنا أنفسنا (الآية). وسر عددهم أن آدم عليه السلام جامع الفردانية الإلهية الأولى وهو الذات والصفات والأفعال الفردانية الثانية وهو الجسم والروح والحقيقة باعتبار الظاهرية والمظهرية على حسب الأسماء الحسنى ثلاثمائة.

ـ ومنها الأربعين:

على قلب نوح عليه السلام وعلمه ومشربه كما في الحديث:

إن في أمّتي أربعين شخصاً على قلب نوح وغلب عليهم الجلال كما في صفة نوح (عم):

ربِ لا تذر على الأرض حف الكافرين دياراً.

ـ ومنها السبعة:

غير الأبدال السبعة، على قلب ابراهيم (عم) وعلمه ومشربه

ودعاؤهم: رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين.

ومقامهم: كمال التمكين والإطمئنان في الجنة الروحانية.

وقد ورد في حقهم: ونزعنا ما في صدورهم من غل.

ـ ومنها الخمسة:

على قلب جبريل وهم: ملوك تحت الأطمار ينفخون الفيوض والعلوم إلى القلوب بعدد قوى جبريل.

ـ ومنها الثلاثة:

على قلب ميكائيل:

علومهم بعدد قواه وقد غلب عليهم الصفات الفاضلة والبسط والتبسم ولين الجانب ومفرط الشفقة بجميع الناس.

ـ ومنها الواحد:

على قلب إسرافيل وعلمه علم إسرافيل. جامع البسط والقبض وعلى هذا المشرب: بايزيد البسطامي. وفضل هؤلاء الأولياء على ترتيب فضل أولي العزم.

ـ ومنها رجال الغيب:

وهم عشرة:

هم على خشوع وصوت خفي وتجلّي الرحماني دائم عليهم ومشربهم هذه الأية:

وخشعت الأصوات للرحمٰن فلا تسمع إلاّ همساً[11].

وهذه الآية: ويمشون في الأرض هوناً

ـ ومنها ثمانية عشر:

وهم قائمون بحقوق الله وظاهرون بأمر الله ومأمورون من عند الله ويحكمون ما أراد الله.

ظهرت في أيديهم الخوارق والكرامات

---

(١١) سورة طه، الآية ١٠٨ ـ ١٠٨/٢٠

ـ ومنها الثمانية:

وهم رجال القوة ورجال القهرية.

مشربهم: أشداء على الكفار

وأسماءهم: ذوو القوة المتين

وصفاتهم: لا تأخذ في الله لومة لائم

ـ ومنها خمسة رجال:

وهم مثل الثمانية في الكل.

زادوا على الناس رفقاً وليناً بموجب رحمة من الله لانت لهم.

ـ ومنها خمسة عشر رجلاً:

وهم المسمى رجال الحنان والعطف الإلهي. كما ورد في يحي (ع):

[وحناناً من لدنا ولهم شدة شفقة علىالناس مؤمناً أو كافراً وهم يقبلون من يعرفهم

ـ ومنها الأربعة:

يسمون رجال الهيبة والجلال وهم يمرون بأوتاد الأربعة.

وغالب أحوالهم روحاني وقلبهم سماوي معروفون في أسماء مجهولون في الأرض وعلمهم ما لا يتناهى.

ـ ومنها أربعة وعشرون:

رجلاً يسمون رجال الفتح:

على أيديهم فتح الله قلوب أوليائه وأسراره ومعارفه وتعين كل واحد بساعة وما فتح الله فيه.

ـ ومنها رجال المعارج العلى:

وهم سبعة:

وهم على المعراج بكل نفس، وساعة يحصلون علماً خاصاً. وهم غير الأبدال والرجبيّون.

ـ ومنها رجال التحية الأسفل:

ومنهم من النساء، ويدخل فيهم في كل نفس، فيض رباني ونفس رحماني من قلم أعلى وهو العرش، وقلم ولوح وكرسي وسموات على عددهم.

ـ ومنها الثلاثة وهم:

صاحب إمداد ورحمة ولين ومقامات واستمدادات. ويتمثلون على كل صورة لغلبة روحانيتهم.

ـ ومنها الآلهيّون والرحمانيون:

وهم ثلاثة أيضاً:

وهم عند الوحي والحوادث يجلسون عراة[١٢] على حجر مليح ويسمعون الوحي ويفهمون المراد. وهم على مشرب صفوان.

ـ ومنها الواحد:

ويسمى رجل الإستطاعة، ويعطي الله له القدرة الكاملة على كل شيء، فهو زكي الفؤاد، شجاع ومقدام وكبير الدعوى بالخلق لا بالنفس، ولذا يحكم بالعدل وله كرامات، وليس خاص بالرجال. وعلى هذا المقام عبد القادر الجيلاني.

ـ ومنها الواحد الذي يشبه عيسى عليه السلام:

نعني تولده من روح وبشر (جنين) كما تولدت بلقيس من جن وأنس، لأن إباها جنّ ولو كان العكس (المقصود أمها) لما ولدت على صورة إنسان.

---

(١٢) جاء في كتاب المناقب ـ الفصل الثالث لصاحبه شيخ زاوية القشاش بقفصة، إذ يروي بأن بعض المريدين خرجوا ذات يوم من الزاوية بإذن من الشيخ أبي الغيث القشاش إلى الأسواق وعوراتهم مكشوفة، مما جعل الناس يهبون مستنكرين ويذهبون للباشا العثماني يقولون له: «إن أبا الغيث القشاش عامل فقراء زنادقة يخرجون عراة إلى السوق». فأمر الباشا أعوانه فاقتادوهم إلى المحكمة حيث جرى تأديبهم. وكان الشيخ يقول: «ما أمرتهم إلاّ ليكونوا عراة من الذنوب».

والحاصل أن هذا الرجل بشريته مركبة وليست معلومة: مركبة من جنسين مختلفين ويحفظ الله البرزخ بهذا الرجل.

ـ ومنها الواحد الذي له رقائق ممتدة واتصال معنوي إلى جميع العوالم:

ومرأة لها هواجس وهو ليس خاص بالرجال، وهو الشخص الغريب .
لا يقف أحد على حاله ويظن أنه قطب، وهو مظهر قول النبي عليه السلام، فالطوبى للغرباء.

ـ ومنها الواحد الذي يحسب المقام:

يقال سقيط الرفرف بن ساقط العرش كبير الشأن عظيم الحال.

إذا نظر إلى أحد ونظر إليه أحد يتأثر ويزيد حاله، حتى لو نظر إليه حيوان لنطق.

وهو شديد الحياء والإنكسار
له قوة في المعارف الإلهية
ولسانه فصيح

ـ ومنها الرجلان:

يسميان برجال الغنى ويحفظ الله بهما مقام الغنى وكل غنى في العالم.

فغناهما بيدهما
وغناهما كامل
وبدايتهما داخلة في نهايتهما
أحدهما مضاف إلى الله وهو أكمل
ويمد الملأ الأعلى
والآخرمضاف إلى نفسه وهو أدنى ويمد عالم الملك
وهما مستفيض من روح علوي غناه غنى الله.

ـ ومنها الواحد

الذي ليس في قلبه فتور أصلاً:

ويتجدد في كل نفس علماً

ويظهر في مكانين بلا فرق

وليس أعجب وأكبر معرفة منه أحد

يتزلزل وجوده من خشية الله

ـ ومنها العشرة:

يقال لهم رجال التحكيم والزوائد

مقامهم الدعاء بالرجاء والبسط

يظهرون غاية الذلّ والتضرع

وحالهم قوة الإيمان بالغيب

ـ ومنها البدلاء:

الذين غير ما ذُكر وهم اثنا عشر. ولا يُظن أن البدلاء عين الأبدال بل غيرهم.

قال الخطيب: النقباء ثلاثمائة

والنجباء سبعون

والبدلاء أربعون

والأخيار سبعة

والعُمُد أربعة

والغوث واحد

ووجه تسميتهم أن من غاب منهم يقوم الآخر مقامه، بل يقوم كل واحد منهم مقام الكل.

قيل: ليس من الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد.

ـ ومنها رجال الإشتياق:

وهم خمسة

هم في عين الشهود والإشتياق

يضطربهم ويحرق أكبادهم

والإشتياق أبلغ من الشوق

لذا كانوا ملوك أهل الطرق

ويقال لهم رجال الصلوات،

لأن كل واحد مختص بصلاة من الخمس

ويتعلقون بها كما تعلق كل الأولياء بشيء من الأفلاك والحقائق

ـ ومنها رجال الأيام الست:

والمراد بها ما خلق الله فيها العالم وهي الأسبوع إلاّ الجمعة، لأن الله خلق فيها نشأة الإنسانية، وهي علّة غائية للعالم ولذا كان الجمعة أفضل. وهذه الأيام توافق صفات سبع.

فالأحد موجود من السمع

والإثنين من الحياة

والثلاثاء من البصر

والأربعاء من الإرادة

والخميس من القدرة

والجمعة من العلم

والسبت من الكلام

وكل نال مظهريته.

ـ ومنها الملامية:

وهم لا يظهرون أحوالاً وأسراراً بل يحفظون أسرارهم لكمال ذوقهم وغيرتهم، وهم سادات الأئمة وسيد العالم (صلعم) جار على معاملة هذه

الطائفة ولذا لم يظهر معجزة إلاّ بالضرورة ويكتفي بالرموز في الأكثر ورد: أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري.

ـ ومنها رجال الماء

وهم بغير حصر عداً ومكاناً لا ينحبس أنفاسهم في الماء وهم سالمون من الثقل والكدورات والسطو والقهر والبلاء، فالفرار مما لا يطاق من سنن المرسلين.

ـ ومنها الأفراد:

وهم غير منحصرين أيضاً، ولهم كشف خاص وعلوم غريبة وإلهية وترك تصرف واكتفاء بالفناء ويتكلمون الأحكام والأسماء قبل التعلم، ويكتمون الأسرار، ولا يظهرون السر والكمال أصلاً، ولهم معراج روحاني في كل منام ومعراج، وليس لهم قدم غير رسول الله عليه السلام.

وغيرهم إن كان من الأئمة، لهم قدم قطب

وإن كان من الأوتاد لهم ثلاثة أقدام

وإن كان من الأبدال لهم أربعة أقدام

وهكذا كلما تنزلت تُدبر.

ـ ومنها الرجال المحدثون:

ومنه الفارون الأعظم، كما ورد الحديث إنه كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون، فإنه إن كان في أمتي هذه فإنه عمر بن الخطاب، وهم صنفان:

الأول:

محدثون ومتكلمون من وراء الحجاب كما كان موسى عليه السلام كليماً من وراء شجرة كما في القرآن: ﴿وما كان بشر أن يكلمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً﴾[١٣].

والثاني: يلقون وتحدِّث الملائكة في قلوبهم، وبعضاً في آذانهم ولذا

(١٣) سورة الشورى، الآية ٥١ ـ ٥١/٤٢

كلما جاء على لسانهم شيء فهو صادق وهم غير منحصرين وكلما ذكر الحصر والعدد ههنا في الأولياء من هذه الأمة لا يزيد ولا ينقص. وخذ ما أتيتك وكن من الشاكرين.

الفصل الأول

طريق النقشبندية

إنّ الطريق النقشبندية أقرب الطرق وأسهلها على المريد للوصول إلى درجات التوحيد.

١ ـ بين الجذب والسلوك:

لأن مبناها على التصرّف

وإلقاء الجذبة المقدمة على السلوك من المرشد الداخل تحت وراثته (صلعم) في قوله: ما صبّ الله في صدري شيئاً إلاّ وصببته في صدر أبي بكر (رضي). وهو واسطة هذا العقد ومؤسس هذا المجد على أتباع السنّة واجتناب البدعة والأخذ بالعزائم، والتخلي عن الرذائل، والتحلي بمحاسن الأخلاق والفضائل.

والخلاصة من هذا كله:

إن الجذب في هذه الطريقة مقدم على السلوك. ومن تلبس هذه الحال فلا شك أن يكون أقرب وصلاً من المتلبس بالعكس. كما شتان وظاهر ما بين المجذوب السالك والسالك المجذوب.

أما بقية الطرق فمبنية على تقديم السلوك على الجذب في

الأغلب ولذا قالوا بداية الطريقة النقشبندية نهاية سائر الطرق. إلاّ من كان له قدم المحبوبية والمرادية كبعض الأولياء الذين تقدم فتحهم على السلوك. ونريد القول والتنبيه أن لا يظن من هذا البحث تفضيل الأولياء النقشبندية عموماً على أولياء بقية الطرق عموماً.

إذ أن البحث في بيان أقربية الطريق للوصول من حيث هي هي ولا يلزم من ذلك تفضيل سالكها على سالكي غيرها مطلقاً. بل العموم والخصوص كما في القول: «الرجل خير من المرأة» والمراد هنا إن هذا تدبير حقيقة.

فأول قدم يضعونه في الذكر عند النقشبندية هو القلب. ويأتي عند سائر الطرق في المرتبة الثانية.

[وليس في هذه المرتبة كثرة الجوع وكثرة السهر بل الاعتدال يصحبها

[وخلوتهم في جلوتهم وكل المجامع
لهم زاوية يحضرون المجالس فيها
قلوبهم حاضرة مع مولاهم ومن السوء خالية
يعتز لهم بقلبه ويجالسهم بجسمه
رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

٢ ـ أوصافها:

إعلم أن الطريقة النقشبندية هي طريقة الصحابة على أصلها، لا تزيد ولا تنقص.

ـ وهي عبارة عن دوام العبودية ظاهراً وباطناً بكمال الإلتزام بالسنة والعزيمة وتمام الاجتناب عن البدعة، والرخصة في جميع الحركات والسكنات في العادات والعبادات والمعاملات مع دوام

الحضور بالله تعالى. على طريق الذهول والإستهلاك [فهي طريق الإنصياع والإنعكاس بكمال ارتباطهم حباً مع هذه المجاهدة الزكية المستوردة.

- يستوي في استفاضتها الشيوخ والصبيان وفي إفاضتها الأحياء والأموات.
- مندرج انتهائها في الإبتداء وابتدائها انتهاء غيرها لما فيه من انجذاب بالمحبة الذاتية مما فضّل بها واسطتها الصديق الأكبر (رضي)
- إنها أم الطرق ومعدن الأسرار الصديقية والحقائق
- لا جرم أمرها كبير ولا شأنها خطير
- ترى الأولياء، مذعنين لها لإستقامتها واعتدالها فضلاً عن الموقنين المعتقدين لتحررها من الشطح والرخص وسفاسق السماع وسلامتها من كدورات جهلة المتصوفة وزخارف الرقاع، والإبتداء، وتحليها من السنة السنيّة بالأتباع وغلبة العلم والإستماع له في الإتباع.
- وهي مما جرى على قبولكم الوفاق
- وأقرّ بفضلها علماء الآفاق

٣ ـ خصائصها:

وبالجملة فهي الطريق الأقرب، الأفضل، الأقوى، الأتم، الأكمل، الأحكم، الأوضح، والمشرب الأعذب المصون عن كل قادح.

- بيت لا يدرك الواصفون خصائصه وإن يكن في كل ما وصفا.

- سقانا الله من رحيقها المختوم بطبائع أنوار وأسرار العلوم.
- بعض السالكين فيها من وصل في لحظة ومنهم في ساعة، ومنهم من وصل في يوم ومنهم من وصل في أسبوع ومنهم من وصل في شهر ومنهم من وصل في سنة ومنهم من وصل في سنين كما في منهاج العابدين.

٤ ـ شرعيتها:

وأما شرعيتها وتطبيقها بالمذهب فجميع أركانها وشروطها وآدابها عين الشرع ولب القرآن وحقيقة العرفان وفي حقها أدلّة كاملة وتفصيلاً كاملاً كما سيأتي البيان.

قال الإمام أبو منصور الماتريدي رحمه الله:

إن هذا الطريق ليس في طوله أو قصره مثل المساحات التي يسلكها الإنسان فيقطعها بأقدامه على حسب قوته وضعفه. بل هو طريق روحاني تسلكه القلوب فتقطعه بالأفكار على حسب العقائد والبصائر.

أصله نور سماوي ونظر إلهي يقع في قلب العبد فينظر به نظرة فيرى بها أمر الدارين بالحقيقة، ثم إن هذا النور ربما بطلبه مائة سنة ويصرخ فيها ويبكي فلا يجده ولا أثراً منه ومنهم ومن وفق ستين سنة، ومنهم من وفق في عشرين ومنهم من وفق في سنة ومنهم من وفق في شهر، ومنهم في جمعة، ومنهم في ساعة ومنهم من في لحظة.

وقال الخادمي:

هو علم المكاشفة التي يظهر في القلب نوره ويشاهد به الغيب وهو المعنى من قوله عليه السلام على ما في جامع الصغير:

علم الباطن سر من أسرار الله تعالى وحكم من أحكام الله يقذفه في قلوب من يشاء من عباده.

[وقوله (عم) على ما في عين العلم إذا دخل النور في القلب انشرح أي عاين الغيب.

وقال: علم المكاشفة لا يحصل بالتعليم والتعلم وإنما يحصل بالمجاهدة التي جعلها الله تعالى مقدمة للهداية حيث قال:

والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبُلنا[1]

وقال التفتازاني في حقه في شرح المقاصد:

إذا انتهى السلوك إلى الله وفي الله يستغرق في بحر التوحيد والعرفان بحيث يضمر ذاته في ذاته، وصفاته في صفاته ويغيب عن كل ما سوى الله، ولا يرى في الوجود إلاّ الله، وهذا الذي يسمونه الفناء في التوحيد.

وبالجملة إنه طريق وعلم وعرفان وشأن وكمال.

لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا عوج في بدايته ونهايته وجميع غير المؤمنين بأوضاعه لا يعرفون عن أسراره شيئاً ولا يجدون إلى تلك المعرفة سبيلاً.

مبنى الطريق

وأما مبنى الطريق فإذا سئلت عن أي شيء في بناء الطريق يكون الجواب: على ستة أشياء:

التوبة والعزلة والزهد والتقوى والقناعة والتسليم

(١) سورة الروم، الآية ٦٩ - ٦٩/٣٠

أركان الطريق

وإذا سئلت عن أركان الطريق فالجواب ستة:

العلم والحلم والصبر والرضى والإخلاص والأخلاق الحسنة في الصبر على أمر المقضي.

أحكام الطريق

وإذا سئلت عن أحكام الطريق فالجواب ستة:

المعرفة واليقين والسخاء والصدق والشكر والتفكر في مصنوعاته تعالى.

وإذا سئلت عن واجب الطريق فالجواب ستة:

ذكر رب العالمين، وترك الهوى، والدنيا، واتباع الدين، والإحسان إلى المخلوقات وفعل الخيرات.

النبوة

وإذا قيل لك ابن من أنت فالجواب:

ابن الطريق

فإن قيل الطريق ابن من؟ فقل: ابن محمد المصطفى والصديق الأعظم وعلي الرضى.

وإذا قيل لك ما الربط والإلزام بمقابلة النكاح فالجواب:

المبايعة، وتكون البيعة بمنزلة النكاح ليصير والداً صحيحاً لا عاهراً. وعند ذلك تقرأ البسملة والفاتحة والإخلاص والصلاة على النبي (صلعم) ثلاثاً ثلاثاً بلا انتقاص ليكون مهراً.

التوكل

والتوكل لغة تفويض الأمر إلى الغير واصطلاحاً:

طرح البدن في العبودية

وتعلق القلب بالربوبية في البداية والنهاية

وقيل: التوكل تفويض الأمر إلى الله تعالى بالإعتماد عليه مع رعاية الأسباب.

لكن غلبه عليه، بل يقال على عصمة الله كما قال عليه السلام:

قيّدها وتوكل على الله وأمر الله بالمشاورة.

خلاصة الطريق

وأما خلاصة طريق النقشبندية، فلا بد للسالك أن يجعل عزيمة ويحوط كل عمل كالواجب، فلا يتركه بلا ضرورة ملجئة.

والحرام لا يرتكبه ولا يقربه بلا داعية ضرورية، ويأخذ بالأحوط.

ولو عمل بالمذاهب الأربعة لكان أحسن وأفضل وأعظم في الأمور كلها، من العبادات والعادات والمعاملات والإجتناب عن المهلكات، والصفات الذميمة، والتخلق بالأخلاق الحميدة.

وتفصيل ذلك في جامع المتون بلغ ألفاً.

ماهية الطريق

وأما ماهيته فدوام العبودية بأشرف الطاعات. أعني ذكر الله على الإطلاق باتفاق أهل الطريق والحقيقة وأرباب السلوك وأهل التصوف.

فشرفه على قدر شرف مذكوره: [فيستعين بالله عز وجل، [يعرض عمن تولى عن ذكر الله، [يفر من دواعي النفس وما تريده من الشهوات والحظوظات وأهل الدنيا وأفعالهم، منيباً إلى الله تعالى فإنه المنتهى.

ويقصر الرغبة إليه ويذكره ويقول الله ثم يذر الخلق ويترك سواه مستقيماً مستديماً عليه، على وجه لا يلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

وإذا عرض نسيان أو ذهول عن الله: واذكر ربك إذا نسيت فدم واستغرق فيه إلى أن تنسى ما سوى المذكور «وتبتل إليه تبتيلاً»[٢].

هذه الماهية سنّة الله وطريقته المنزلة على رسوله، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً أي لا تجد فيها زيادة ولا نقصان.

في التبتل:

وأما التبتل فقطع العلائق الظاهرة والباطنة:

فأما الظاهر:

فهو الإنقطاع إلى الله تعالى عن الخلق والدنيا وأمورها بالتوجه إليه تعالى والإنس معه واختيار الخلوات لعبادة الله في جميع الأوقات كما كان حاله عليه السلام في أوائل أمره عندما كان ينقطع عن الخلق في غار حراء ليتحبب إلى الله، ولم يجتمع مع الخلق حتى جاء الوحي.

وأما الباطن:

فهو الإنقطاع عما سوى الله تعالى والتوجه إليه والمراقبة،

---

(٢) سورة المزمل، الآية ٨ ـ ٨/٧٣

والحضور معه في كل حال، وقطع كل قاطع، ومنع كل مانع، حتى تصل إليه، وأشار إليه عليه السلام بقوله:

لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل.

الفصل الثاني:

طريقة الشيخ الأكبر والصوفي ودفع القبض[1]

وأما كيفية طريقة الشيخ الأكبر أن يأمر المريد بالتوبة من جميع الصغائر والكبائر ثم يقابله شيخه ويضع يده بيده ويأمره أن يغض عينيه ويقول:

لا إله إلاّ الله ثلاث مرات والمريد يسمع، ثم يقول المريد لا إله إلا الله ثلاث مرات والشيخ يسمع، ثم يقرأوا للتبرك قوله (تع): إن الذين يبايعونك، إلى قوله أجراً عظيماً. ثم يكون في كل يوم الإستغفار مائة مرة، ولا إله إلاّ الله مائة مرة مع استحضار معناها وهو: لا معبود بحق إلا الله، ويقول الله مائة مرة بالقلب واللسان، ويقصد بالذكر الذات العلية لا الإسم فقط، ثم يصلي على النبي (صلعم) مائة مرة بهذه الصلاة وهي:

---

(١) جاء في كتاب المنن لمؤلفه الإمام ابن عطاء الله السكندري المتوفي سنة ٧٠٩ هـ: هو الشيخ الإمام حجة الصوفية علم المهتدين، زين العارفين، أستاذ الأكابر، والمنفرد في زمانه بالمعارف السنية والمفاخر، العالم بالله، والدال على الله، زمزم الأسرار، ومعدن الأنوار، والقطب الغوث الجامع: تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد عبد الله بن الجبار بن تميم بن مزهر بن حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن أحمد بن بحمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه المعروف بالشاذلي. ومبدأ ظهوره بشاذلة. بلدة على مقربة من تونس.

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد الأميّ إمام الهدى وعلى آله وصحبه وسلّم عدد كل ذرة ألفَ ألفِ كرة.

وإذا استمر بذكرٍ حتى يقوى الجنان يذكر بالقلب في جميع حركاته وسكناته دون حركة اللسان مع ملازمته على الورد المذكور.

واعلم أن الشيخ قدّس سره صاحب طريقة بالإستقلال لدى أهل الحقائق كبقية الطرائق، وسبب عدم اشتهارها لعدم إظهار كتبها، فقد تلقاها الأفراد من الرجال وأهل الخصوصية من الأبدال ولم يظهروا كتبها إلاّ للخواص.

١ ـ مبنى الطريقة

ومبنى طريقة الشاذلي على أربعة خصال وهي: الصمت والعزلة والجوع والسهر والتفصيل في كتاب الحلية للشيخ الأكبر.

واعلم أن هذه الطريقة العلية: سلوكها وقطع عقباتها، إنما هو بالذل والإنكسار والخوف الشديد سواء بسلوك أو غيره وبمحبة الشيخ للمريد. فمتى مال إليه بقلبه نال مطلوبه ووصل إلى مشاهدة ربه.

وميل الشيخ له غالباً لا يكون إلا بعد تزكية النفس وتصفيتها بكثرة الأوراد والإذكار والإتباع بسنن المصطفى.

ثلاثة مروية عن علي رضي الله عنه. قال:

من لم يكن عنده سنّة الله وسنّة رسوله وسنّة أوليائه فليس في يده شيء.

قيل له: ما سنّة الله؟

قال: كتمان السر.

قيل: وما سنّة رسوله

قال: المداراة للناس

قيل: وما سنّة أوليائه

قال: احتمال الأذى.

ولها ثلاثة أعمال:

من عمل للآخرة كفاه الله تعالى أمر دنياه

ومن أحسن سريرته أحسن الله علانيته

ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح ما بينه وبين الناس.

ولها ثلاث صفات:

الصبر على البلاء، والشكر على الرخاء، والرضاء بالقضاء.

ولها طهارة باطنة وطهارة ظاهرة:

فالباطنة: الطهارة من الحرص والحسد والحقد والكبر ونحوها.

والظاهرة: طهارة البدن والثوب والمكان.

ولها حضور وهو الحضور مع الله في سائر أعمالها ويقصد الذاكر بها التعبد فقط لا لطلب مقام آخر، وذلك ليكون حال ذكره غير خالٍ عن العبادة، فإن الخلوة والرياضة إنما شرع للتفرغ عن الأكوان، فالصادق من جعل أعماله كلها مقاصد لا وسائل، ولها شرط وهو أن يهرب كل مريد بها بنفسه من مواضع التهمة أكثر مما يخاف من وجود الألم، فإن مواضع التهمة توجب السقم على القلب كما توجب الأغذية الفاسدة السقم على البدن سيما والأطباء قليلة.

وفي رسالة الخادمي جاء أن للسادات النقشبندية طريقان: إسم الذات والنفي والإثبات.

أما الأول: هو الأقرب والأسهل في حصول المقصود فبأن يلتصق اللسان بسقف الحلق، والفم والأسنان على الأسنان، والشفة على الشفة. وينطلق النفس على حاله، ويتخيل في القلب تحت الثدي اليسار لفظة الجلالة بمعناها أي أن الذات الإلهية هي مسمى ذلك الإسم الشريف على ما آمن به أهل السنّة بلا كيف ولا مثال. وتفصيلها في جامع المتوك.

لكنه لاحظ بغير واسطة عبارة عربية أو عبرانية أو فارسية.

حافظاً إياه في خياله وقلبه متوجهاً بجميع قواه ومداركه إليه، مستديماً ومستغرباً، قابلاً للفتور لديه في تطهير قلبه عن أخطار ما سواه ولو كان من جنس سائر الذكر الصفاتي، فضلاً عن سائر الأمور ولو ذهل استغفر الله على فوره وتضرّع إليه تعالى على الخلاص عما سواه، وداوم على هذه الحال وتكلف في هذا التخيل حتى ذهبت الكلفة من البين.

ويصير هذا الأمر ملكة راسخة على وجه لو تكلف بإحضار الغير فيه لم يقدر ولم يحضر.

ولو تكلف ظاهره مع الخلق يكون باطنه مع الحق (تع).

وقالوا: الخلوة في الجلوة وهي كناية عن اختلاط الباطن مع الحق من حيث المؤانسة مع كون الظاهر بين الخلق من حيث المعاملة.

والعزلة في الخلطة، وهي كناية عن اعتزال الباطن، عن الخلق إلى الحق مع اختلاط الظاهر بالخلق والصوفي كائن باين أي كائن مع الخلق من حيث الظاهر، وباين عنهم من حيث الباطن.

• [والصوفي غريب قريب، أي غريب بين أهله وأصحابه من

حيث توحش باطنه عنهم، وقريب منهم من حيث تآلف ظاهره معهم.

والصوفي عرشيّ فرشيّ أي: [عرشيّ من حيث الباطن، الآن المؤمن عرش،

قال الله:

ما وسعني أرضي ولا سمائي بل وسعني قلب عبدي المؤمن وفرشيّ من حيث الظاهر والقالب.

قال تعالى:

«ثم رددناه أسفل سافلين».

فلن يبقى في مطالعته ومشاهدته غير ذاته تعالى، فيضمحلّ الغير في جنبه عند الحضور، ويفنى الغير ويبقى إسمه تعالى.

اكابر النقشبندية

وفي رسالة تاج الدين عن أكابر النقشبندية أنه عسر على الذاكر تحصيل المعنى المقصود. أي تخيل لفظة الجلالة بمعناها بلا كيف ولا مثال في الإبتداء.

فليتخيل نوراً بسيطاً وحدانياً أصلاً وغير ملوّن من الألوان قطعاً محيطاً بجميع الموجودات من الروحانية والجسمانية.

وليجعل ذلك في مقابلة البصيرة ومع ذلك يتوجه إلى القلب بجميع القوى إلى أن تتقوى البصيرة وتذهب الصورة، ويترتب على ذلك المعنى المقصود وفيها:

إذا تعرّض في أثناء تفرقة أو وسوسة أو قبض فليغتسل بالماء

البارد والحارّ أو يتوضأ ويصلي في خلوته صلاة الحاجة ويقرأ التحية ثلاثاً ثم يسلم ويخطو قدامه سبع خطوات. ثم يقول:

يا حي يا قيّوم سبعين مرة.

ثم يسجد ويلاحظ روحانية شيخه، ويستغفر ويدعو دعاء المفرج وغيره. ويتوجه إلى ذكره.

وإن لم يندفع فليتخيّل صورة النبي عليه السلام أو صورة شيخه.

وإن لم يندفع فليقل بأفعال وإن كان ذلك لتعلق الطبيعة لشيء من نحو البيوع.

وإن لم يكن إخراجه عن القلب فليفعله ويترك بعد ولا تظن أن ذلك يحصل بسهولة، بل ذلك محتاج إلى ترك النفس ودواعيها والقهر عليها في الأمور كلها. وذلك لا يحصل إلاّ بصرف جميع الأوقات إلى ذلك التخيّل، وبذل كافة الجهد والجدّ لديه، ولا يضيع دقيقة من وقته. فإن الوقت سيف قاطع لا يمكن تداركه عند فواته.

الفصل الثالث

كيفية طريقة الشاذلي وجميع أوصافه ومكانه

أما كلام الأولياء في بعض المحل بلا إنكار الظاهر ولا معارض له فتوجه جائز مثل ما كان أبو العباس المرسي. كأن يقول صلينا الصبح ذات يوم مع سيدي أبي الحسن الشاذلي فقرأ سورة شورى فلما بلغ قوله تعالى:

﴿يهب لمن يشاء أناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وأناثاً ويجعل من يشاء عقيماً﴾[1].

فوقع في نفسي شيء من ذلك المعنى. فلمّا سلّم الشيخ من الصلاة التفت إليّ وقال: يا أبا العباس:

يهب لمن يشاء أُناثاً العبادات والمعاملات

ويهب لمن يشاء الذكور والأحوال والعلوم والمقام

أو يزوجهم ذكراناً وأناثاً يجمع ذلك فيمن يشاء من عباده

ويجعل من يشاء عقيماً بلا علم ولا عمل فتعجب من ذلك.

---

(١) سورة الشورى، الآيات ٤٩ و٥٠ و ٥١. ٤٢/٤٩ و٥٠ و ٥١.

١ ـ نسب الشاذلي

وأما نسب الشاذلي فهو الأستاذ العارف الشريف الحبيب، الحسيب، إلى الحبيب المقصد لمن له قصد المملي بالعلوم الربانية والأسرار المدنية، الذي هو منها ممتليء:

سيدي أبو الحسن علي الشاذلي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن خاتم بن قصي بن يوسف بن ورد بن أبي بطال علي بن أحمد بن محمد بن عيسى بن إدريس بن عمر بن أدريس، المبايع له ببلاد المغرب، بن عبد الله بن الحسن المثنى بن سيدي سيد شباب أهل الجنة وسبط خير البرية أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله (صلعم). وهذا هو النسب الصحيح(٢).

٢ ـ حليته

وأما حليته فقال ابن الصبّاغ صاحب درّة الأسرار. سمعت من الشيخ أبي العزايم يقول:

كانت صفته أدم اللون نحيف الجسم طويل القامة خفيف العارضين طويل أصابع اليدين كأنه حجازي.

وكان فصيح اللسان عذب الكلام: كان يقول إذا استغرق في الكلام الاّ رجل من الأخيار، يعقل عنا هذه الأسرار، فهلمّوا إلى رجل صيّره إلى بحر الأنوار.

---

(٢) ذكر كتاب المنن نسب الشاذلي: تقي الدين... حتى بن محمد عيسى بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب. ولم يذكر الفقرة القائلة: بن محمد بن عيسى - (بن إدريس بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى) ـ ذكره الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور الرضي في كتابه، وذكره الشيخ قطب الدين القسطلاني، والشيخ أبو عبد الله بن النعمان، وذكره الشيخ عبد الغفار بن نوح.

وكان يقول:

أخذت ميراثي من رسول الله فمكنت من خزائن الأسماء:

فلو أن الجن والأنس يكتبون عني يوم القيامة لكلّوا أو ملّوا.

٣ - مولده

وأما موضع مولده فإنه وُلد بقرية غُمان وهي قرية أفريقية قريبة من سَبْتة(٣)، وهي من المغرب الأقصى، وُلد في نحو ثلاثة وتسعين وخمسمائة من الهجرة.

٤ - سلسلته

وأما سلسلته فإنه لبس الخرقة من الشيخين الإمامين أبي عبد الله محمد بن الشيخ أبي الحسن المعروف بابن طرزم، ومن الشيخ أبي عبد الله عبد السلام بن بشيش.

الأول منسوب إلى الصديق الأعظم

والثاني إلى علي بن أبي طالب من جهة الطريق.

والتفصيل في مفاخرة العلية في طريق الشاذلية وغيره.

٥ - رحلته

وأما رحلته واجتماعه بالمشايخ فإنه انتقل إلى مدينة تونس وهو صبي صغير وتوجه إلى بلاد المشرق وحج حجات كثيرة ودخل العراق.

قال:

لمّا دخلت العراق اجتمعت بأبي الفتح الواسطي فمارأيت في

(٣) سبتة ويقول كتاب المنن إنه ولد بشاذلة، بلدة على القرب من تونس.

العراق مثله. وكان بالعراق شيوخ كثيرة. وكنت أطلب القطب فقيل لي هو في بلادك فرجعت إلى بلاد المغرب إلى أن اجتمعت بأستاذي أبي محمد عبد السلام وهو ساكن مغارة بالرباط في رأس جبل، واغتسلت في عين أسفل الجبل، وخرجت على علمي وعملي وطلعت إليه فقيراً فإذا به قد هبط إليّ. فقال:

مرحباً يا علي وذكر نسبي إلى رسول الله.

٦ ـ طريقه:

وأما طريقه فجاء في طريق الله بالأسلوب العجيب والمنهج الغريب والمسلك العزيز القريب وجمع في ذلك بين العلم والعمل والحال والمقام والهمة والمقال.

واشتملت طريقته على: الجذب والمجاهدة والعناية

واحتوت على الأدب والقرب والتسليم والرعاية

وشيدت على بالعملين الظاهر والباطن وسائر الهداية والأسرار والكرامة والقرب

وكانت طريقته مبنية على طلب العلم وكثرة الذكر والحضور.

وكانت بهذا الإستحضار الذي هو الجميع أسهل الطرق وأقربها بعد النقشبندية.

وليس فيها كثرة المجاهدة لأن ما في النفس من النور الأصلي يتعاضد ويقوى بنور العلم وببلوغ سداد طريقهم وقوة يقينهم وكثرة عرفانهم وفتحهم وكثرة أنوارهم وذكاء قلوبهم مع غرق كثيرهم في الأسباب وتلبسهم ظاهراً بأحوال العوام فتراهم أبداً محظوظين في أحوالهم، محافظين على أعمالهم، وقد انفتق في قلوبهم أسرار العلوم، ولاح لهم حقائق الحكم والمفهوم. فترى أحدهم في صورة

العاصي وهو يلهمهم بالحقائق وينطق بالحكم والدقائق مما يعز وجودها لأرباب الإنقطاع والخلوات وأهل التجلّي والمشاهدات.

ومدحهم رباعي:

تمسّك بحب الشاذلي وتلتقي

تروم فحقق ذلك منكم وحصلّي

فلا تحتجب منهم بلبس لباسهم

فأنوارهم في السر تعلو وتنجلي.

وقال الشيخ قدّس سره:

قلت: يارب لِمَ سميتني شاذلي ولست شاذلي.

فقيل لي: يا علي ما سمّيتك بالشاذلي إنما أنت الشاذّلي بتشديد الذّال المعجمة يعني المفرط لخدمتي.

٧ ـ أوصافه

وأما وصفه فقال محمد المغربي: أعطى الشاذلية بثلاث لم تحصل قبلهم ولا بعدهم.

الأول: أنهم مختارون في اللوح المحفوظ

الثاني: إن المجذوب منهم يرجع إلى الصحو

الثالث: إن القلب منهم إلى يوم القيامة.

وقال: أعطيت سجلاً مدى البصر فيه أصحابي وأصحاب أصحابي إلى يوم القيامة عتقاءها من النار.

وقال: لقد جئت في هذه الطريق بما لم يأت به أحد لأنه عين طريق النقشبندية، وهو سلطان الطرق، وقد اشتهر أنه قال: لولا لجام الشريعة على لساني لأخبرتكم بما يكون في غد وبعد غد إلى

يوم القيامة. وقد أخبر من بعده سيدي شمس الدين الحنفي فقال: يظهر بمصر، رجل يعرّف بمحمد، يكون فاتحاً لهذا البيت ويشتهر في زمانه ويكون له شأن

وقال: يظهر بمصر شاب يعرف بالشاب التأديب: حنفي المذهب إسمه محمد إبن الحسن وعلى خده الأيمن خال وهو أبيض اللون مشرب بحمرة، وبعينه حور وينزمي تيماً ويكون خامس خليفة بعدي ويشتهر في زمانه ويكون له شأن عظيم. وقد كان ذلك.

الفصل الرابع:

كرامات الشاذلي والسماع لغيره

١ ـ كرامته

وأما كرامته فقال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال:

يا علي. قلت لبيك يارسول الله. قال: انتقل إلى الديار المصرية وتربى بها أربعين صديقاً. وكان ذلك في زمن الصيف وشدة الحر.

فقال لي: الغمام يظللكم. فقلت أخاف العطش. فقال: إن السماء تمطركم في كل يوم أمامكم.

قال ووعدني في طريقي بسبعين كرامة

وقال: حتى إذا طلعت على أستاذي فقيراً قال: يا علي طلعت إلينا فقيراً من علمك وعملك، أخذت مشايخ الدنيا والآخرة، فأخذتني منه الدهشة فأقمت أياماً إلى أن فتح الله عليّ بصيرتي ورأيت خرق العادات والكرامات وغيرها.

وقال: كنت يوماً جالساً بين يديه وفي حجره ولد صغير فخطر لي أن أسأله عن إسم الأعظم فقال الولد إليّ وقال: أيا أبا الحسن

أردت أن تسأل الشيخ عن إسم الأعظم إنما الشأن أن تكون أنت هو إسم الأعظم. يعني مودعك في قلبك. فتبسم الشيخ فقال: أجابك فلان عنا، وكان إذ ذاك قطب الزمان، ثم قال لي: يا علي ارتحل إلى أفريقية واسكن فيها بلداً تسمى شاذلية فإن الله يسمى شاذليه، وبعد ذلك تنتقل إلى مدينة تونس وبعد ذلك تنتقل إلى بلاد المشرق وترث فيها القطبانية.

فقلت: يا سيدي، أوصني، فقال: الله الله والناس، تنزه لسانك عن الذكر وقلبك عن التماثل من قبلهم، وعليك بحفظ الجوارح وأداء الفرائض، وقد تمت ولاية الله عليك، ولا تذكرهم إلاّ بواجب حق الله عليك، فقد تم ورعك.[وكان إذا ركب تمشي أكابر الفقراء وأكابر الأغنياء حوله، تنشر الأعلام على رأسه وتُضرب الكاسات بين يديه ويأمر النقيب أن ينادي أمامه: من أراد القطب فعليه بالشاذلي.

٢ ـ فصاحته وكمالاته

كان كلام الشاذلي في العقل الأكبر والروح الأنور والمقام الأعلى والقدس الأبهى والإسم الأعظم والياقوت الأزهر والأسماء والحروف والدوائر، وهو المتكلم بنور البصيرة على السرائر.

وكان عالماً عارفاً بالعلوم الظاهرة والباطنة جامعاً لدقائق فنونها ومقتضى أبكار المعاني وعيونها من حديث وتفسير وفقه وأصوله ونحو وصرف ولغة ومعقول وحكمة وآداب. بل محيط بالكل. فظهر بالخلافة الكبرى والولاية الكبرى، والقطبية العظمى والغوثية الفرداء، واخصّه الله بعلوم الأسماء، ومنّ عليه بأعلى مقامات الأولياء، وخصوصيات الأصفياء، وانفرد في زمانه بالمقام الأكبر، والمدد الأكثر، والاعطاء الأنفع، والنوال الأوسع، وتصرف في

أحكام الأولياء ومددها بالأذن والتمكين، وانفرد بسؤددها حق اليقين، وأمد الأولياء أجمعين، وأمر الصديقين، ونال مقام الفردانية الذي لا يجوز المشاركة بين اثنين.

وأجمع على ذلك كل من عاصره من العلماء العارفين، والأولياء المقربين، وخواص الصديقين. [وشهد بقطبانيته وفردانيته من الجم الكثير.

وأمر أن يقول بحضرة أكابرهم قدمي على جبهته كل ولي الله. فقال ذلك ممثلاً للأمر معظماً للقدر مقراً بالعبودية لا فخر الفاخرين.

٣ ـ أساتذته

أ ـ وأما أستاذه فهو عبد الله عبد السلام بن بشيش وهو أجلّ مشايخ الشيخ أبي الحسن الشاذلي. وعلى يديه كان فتحه، وإليه كان ينتسب إذا سئل في شيخه وهو السيد عبد السلام بن بشيش واشتهر في الغرب بشيش(١)، بن منصور ابن ابراهيم الحسني.

ب ـثم الأدريسي المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين ومقامه في الغرب كالشافعي في مصر.

وهو «أخذ عن القطب الشريف السيد عبد الرحمان الحسني المدني العطار الزيات(٢)، ولم يقتدِ بغيره وهو صحب واقتدى بشيخه القطب الرباني الشيخ تقي الدين

(١) وهو من أبدال الحرق بأخيه وقال الشيخ محي الدين بن عبد القادر بن الحسين بن علي الشاذلي في كتابه: الكواكب الزاهرة في اجتماع الأولياء بسيد الدنيا والآخرة: بن بشيش بالباء الموحدة.

(٢) المدني نسبته بمدينة النبي (صلعم) والزيات نسبته حارة الزياتين واشتهر بالزيات.

الفقير الصوفي[٣] وهو بأرض العراق، وهو صحب واقتدى بسيدي الشيخ فخر الدين.

وهو صحب واقتدى بسيدي القطب نور الدين بن الحسن،

وهو صحب واقتدى بسيدي القطب تاج الدين محمد بأرض الترك.

وهو بالقطب الشيخ زين الدين الغزويني، وهو بالقطب ابي اسحق ابراهيم البصري وهو بالقطب أبي القاسم أحمد المرواني وهو بالشيخ سعيد وهو بالقطب أبي محمد فتح السعودي، وهو بالقطب سعد الغزواني وهو بالقطب أبي محمد جانو عن أول الأقطاب السيد الشريف الحسيب النسيب الصحابي الشهيد المسموم السبط أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو عن أبيه وهو عن رسول الله عليه السلام وعلى آله الصلاة.

٤ ـ السماع

قال الشاذلي سألت أستاذي عن السماع فأجابني بقوله تعالى: إنهم ألغوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون.

وقال: رأيت في المنام أنه كان بين يدي الفقيه بن عبد السلام أوراق شعر، وأنا بأستاذي واقف، فتناول كتاب الفقيه بيمينه والأوراق بشماله وقال لي كالمستهزيء: تعدلون عن العلوم الزكية وأشار إلى كتاب الفقيه، ثم أشار إلى أوراق الشعر ورماها في الأرض وقال: من أكثر من هذه فهو عبد مرقوق لهواه وأسير لشهواته ومناه، ويسترقون بها قلوب الغفلة والنسوان، ولا إرادة لهم

(٣) لقب لنفسه بتقي الدين التصغير تواضعاً.

في عمل الخير واكتساب العرفان، يتمايلون عند سماعها[٤] تمايل اليهود، ولم يحظ أحد منهم بما حظي أهل الشهود.

ولئن لم ينته الظالم ليقلبن الله أرضه سماء وسماءه أرضاً

وقال: فأخذني حالاً بوجد وبكاء وأنا أقول إلاّ أن النفس أرضية والروح سماوية.

فقال: بلى إذا كانت الروح بأمطار العلوم داره، والنفس بالأعمال الصالحات نياته فقد ثبت الخير كله. وإذ كانت النفس غالية والروح مغلوبة فقد حصل القحط والجدب، وانقلب الأمر، وجاء الشر كله فعليك بكلام الله الهادي وبكلام رسوله الشافي، فلن تزال بخير ما أثرتهما، وقد أصاب الشر من عدل عنهما، وأهل الحق إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وإذا سمعوا الحق أقبلوا عليه. ومن يقترف حسنة تدلى فيها حسنة.

٥ ـ الغيرة

وأما حقيقة الغيرة ففي اللغة، كراهة مشاركة الغير، وكذلك هي اصطلاح أهل الحقيقة. وقال بعضهم: الغيرة وصف أهل البدائه، فأما المنتهي فإنه لا يرى الغير ولا يعترض في ما يجري في المملكة لفقد اختياره، والحق أن الغيرة لله تعالى حق، وهي أن لا يجعل العبد شيئاً من أحواله وأنفاسه لغير الله، وهي توجب تعظيم حقوقه وتصفية الأعمال له. والغيرة من لوازم المحبة ولهذا قال أبو علي الدقاق في قوله عليه السلام: حبك الشيء يعمي ويصم. أي يعمى عن الغير غيرة وعن المحبوب هيبة. وأما الغيرة على الله تعالى جهل وربما افضت إلى الكفر.

---

(٤) القصد سماع الشعر.

وغيرة الحق على العبد أن لا يجعله للخلق بل يظن ويحفظ عليه.

وقال الشباب: الغيرة غيرتان:

غيرة البشرية على النفوس

وغيرة الإلهية على القلوب وهي لا تشغل بغير ذكره.

وقال أيضاً: الغيرة الإلهية على الأنفاس أن لا نضيع في ما سوى الله تعالى.

وقال القشيري: مثاله آدم عليه السلام: لما وصف نفسه على الخلود في الجنة وطيباتها، أخرجه الله منها غيرة عليه.

وعن ابراهيم (عم) قال: وابراهيم لما أعجبه اسماعيل عليهما السلام أمره بذبحه حتى أخرجه من قلبه. فلما أسلما وتلا للحبيبين، وصفا سر أمره بالفداء عنه. وقيل: مرضت رابعة العدوية فقيل لها: ما سبب علّتك. فقالت: نظرت إلى الجنة بقلبي، فغار عليّ قلبي، فأدّبني، وقد آليت وحلفت ألا أعود.

وقيل لبعضهم: تريد أن تراه، فقال لا لمَ؟ قال: أنزّه ذلك الجمال عن نظير مثلي. وسأل الشبلي: متى تستريح فقال له: ذاكراً.

وسمع النوري رجلاً يؤذن فقال له: طعنة وسم الموت، غيرة الله، كيف ذكره المؤذن بلسانه غفلة مع قلبه عنه.

وأذّن الشبلي مرة فلما انتهى إلى شهادة النبي عليه السلام. قال: إلهي، لولا أنك أمرتني ما ذكرت معك غيرك.

وكان أبو الحسن الخزقاني: يقول لا إله إلاّ الله من داخل القلب ومحمد رسول الله من القرط.

قال القشيري: ولا يتوهم منهما استخفاف بالنبي عليه السلام، بل مع عظمته فهو أن كل مخلوق لا خطر له بالإضافة إلى الله تعالى.

الفصل الخامس:

وصية المريدين وإرادة السلوك وقطع العلائق

١ ـ الصدق

وأما وصية المريدين: إعلم أن أول قدم المريد في هذا الطريق ينبغي أن يكون على صدق ليصح البناء على أصل صحيح، فإن المشايخ قالوا: إنما حرّموا الوصول بتضييع الأصول. قال القشيري: ويقبح بالمريد الانتساب إلى مذهب من ليس من أهل هذه الطريقة لأن الناس:

- إما أرباب النقل والأثر
- وإما أصحاب العقول والفكر.

وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة:

- فالذي للناس غيوبهم فلهم ظهور ـ والذي لغير الله مع المعارف مقصود فلهم من الله موجود فهم أهل الوصال والناس أهل الإستدلال.

كما قيل:

ليلي بوجهك مشرق وظلامه في الناس سار

فالناس في سدف الظلام ونحن في ضوء النهار.

[ولم يكن في عصر من العصور شيخ من الشيوخ في هذه الطائفة إلاّ وأئمة ذلك العصر من العلماء يتواضعون له ويتبركون به ويقدمون على النفس، ولولا مزيته واختصاصه لكان الأمر بالعكس.

وروي أن أحمد بن خليل كان جالساً عند الشافعي فجاء شيبان الراعي فقال أحمد:

إن إبنه هذا على نقصان علمه يشتغل بتحصيل البعض.

فقال له الشافعي: لا تفعل فلم تقبل، وقال لشيبان: ما تقول في من نسي صلاة من الخمس في يوم وليلة ولا يدري أي صلاة هي فقال شيبان: يا أحمد قلبي غفل عن الله تعالى فينبغي أن يؤدب حتى لا يعود إلى غفلة.

فغشي على أحمد، فلما أفاق قال له الشافعي: ألم أقل لك لا تتعرض له. وشيبان الراعي كان أمياً. فإذا كان حال الأمي منهم فما ظنك بأئمتهم.

٢ ـ التعلم

ويجب على المريد بعد صدق عزمه ونيته أن يحصل من علم الشرع بالتعلم والحفظ والسؤال عما يؤدي به فرضه.

فإذا اختلف قول أخذ بالأحوط، فإنها للضعفاء وأهل الحوائج والإشتغال. وأهل هذه الطائفة لا شغل لهم سوى القيام بحقه سبحانه أبداً.

٣ ـ التأدب

ويجب عليه أن يتأدّب بشيخ. فإن لم يكن له أستاذ لا يفتح له أبداً.

قال أبو يزيد: من لم يكن له أستاذ فأمامه الشيطان.

وقالوا: من لم يكن له شيخ فشيخه الشيطان

وقال أبو علي الشجر: إذا نبت بنفسه ولم ينبته أحد يورق ولا يُثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يتحرّج ولا يجيء منه شيء.

وقال: أخذت هذه الطريقة عن النصر أبادي وهو عن الشيلي، وهو عن الجندي، عن البري، وهو معروف الكرخي وهو عن داود الطائي.

٤ ـ السلوك

ثم إذا أراد السلوك بعد تحصيل هذه الشروط فليتب عن كل ذلة سراً وجهراً ويجتهد إرضاء خصومه أولاً، ومن لم يُرضِ خصومه لا يفتح له من هذه الطريقة شيء.

٥ ـ قطع العلائق

هذا طريق القدم ثم بعد ذلك يسعى إلى قطع العلائق والشواغل، فإن فراغ القلب أصل في الطريق وأولها الخروج عن المال فإنه هو الصادّ عن الحق، فلا يوجد مريد دخل في الطريقة ومعه علاقة من الدنيا إلاّ عاد عن قريب. وسبب ذلك إلى ما كان فيه. وإذا خرج عن المال، خرج بعده عن الجاه أيضاً.

والقطع يجب أن يكون عظيماً فإذا لم يستو عند المريد إقبال الخلق وأعراضهم لا يفلح أبداً.

ومتى توقع إقبالهم عليه أو بتركهم به بالزهد لا يصح له إرادة، ثم يلتزم العهد مع الله تعالى أن لا يخالف شيخه في كل ما يشير عليه به؛ ولا يعترض عليه بقلبه في شيء، ومتى خطر ببال المريد أنّ

له قدراً وقيمة أو في الأرض أحد هو أرفع منه لا تصح له إرادة بل يكون اجتهاده أبداً ليعرف ربه لا ليزيد قدره. وفرق بين من يريد الله وبين من يريد جاهاً في الدنيا أو في الآخرة.

٦ ـ حفظ السر

ثم يجب عليه حفظ سره عن غيره لا عن شيخه، فشيخه نفس من أنفاسه وإلاّ فقد خانه في صحبته.

وإن وقع في خاطره مخالفة شيخه فيما أشار به فينبغي أن يقرّ له بذلك في وقته ثم يتمثل بأمره من سفر أو حضر أو أمر شاق.

كل ذلك عقوبة له على خطور الخيانة والمخالفة بباله، ولا يجوز للمشايخ التجاوز عن المريدين لأن ذلك تضييع لحقوق الله عز وجلّ.

ولا يجوز أن يلقن المريد شيئاً من الأسرار ما لم يتجرد عن كل علاقة.

ويشهد قلب الشيخ له بذلك:

فإذا شهد قلبه له بتضحية العزم وقطع العلائق، ورأى دلائل ذلك منه شرط عليه الرضاء بما يجري عليه في هذا الطريق من تصاريف القضاء كالذل والضرر والفقر والإستقامة والآلام وترك الرخص عند الفاقة.

٧ ـ الفترة والوقفة

أما الضرورة ومجانية الراحة والكسل فإنهما سبب للوقفة والفترة.

والفرق بين الفترة والوقفة:

الفترة خروجه عن الإرادة بالكلية.

والوقفة سكونه عن السير باستكابة الراحة والكسل.

وكل مريد وقف في ابتداء إرادته لا يجيء منه شيء، فإذا جرّبه الشيخ وبدأ في تلقينه الذكر يختار له من الإذكار ويأمره بذكر الإسم بلسانه أو بقلبه أو بلسانه مع قلبه ويقول له: إن أمنك أن لا يجري على لسانك أو قلبك وغير هذا فافعل.

٨ ـ أوامر الإنقطاع

[ويأمره بأن يكون أبداً على طهارة ولا يكون نومه إلاّ غلبة، ويقلل غذاءه بالتدريج شيئاً بعد شيء حتى يقوى على الجوع، ثم يأمره بإيثار الخلوة والعزلة، ويأمره بالإجتهاد في صرف خواطر السوء عنه في خلوته وجلوته.

فإنه إذ يخلو المريد في ابتدائه في حال خلوته من ذلك لا سيما إذا كان ذكياً يتوسوس في الإعتقاد كثيراً.

فإن توسم فيه قوة وثباتاً في الطريق يأمره بالصبر ودوام الذكر حتى تستطلع في قلبه أنوار القبول وتشرق شموس الوصول.

الفصل السادس:

أحوال المريد وحرمة المشايخ والحيل والسفر

١ ـ أحوال المريد

وأما أحوال المريد فمن فرائضه الإقامة في موضع إرادته وترك السفر حتى يقوى في الطريق، فإن السفر له قبل ذلك سم قاتل، وهذا حق المريد الذي يرجى له الوصول، فأما من لا يرجى له الوصول فالسفر أليق له، بل هو واجب لمن كان صاحب الوسوسة والغرور والعجب. لأن الإقامة ربما تريحهم فتعينهم على الشهوات والمعاصي وهؤلاء غايتهم حج يحصلونه أو زيارة مكان شريف، أو شيخ يتبركون منه أو يخدمونه خدمة ظاهرة، وحصول هذه الغاية لهم في الأسفار أقرب.

وينبغي للمريد في ابتداء أحواله أن لا يكون في قيد لإيصال الراحة.

وأن يكون هضماً للفقراء على نفسه لا هضماً عليهم، ويرى لكل واحد عليهم حقاً واجباً.

ويجب أن لا يخالف أحداً وأن الحق معه سكت، ويطلب الموافقة من كل واحد.

وكل مريد يكون فيه محك ومماراة فإنه لا يجيء منه شيء، وإذا كان مع جمع في سفر أو حضر فينبغي أن يوافقهم في الأكل والصوم والسكون والحركة بظاهره وباطنه فيكون مع الله محفوظاً على ما يجب وإذا كان صائماً وأشار عليه بالأكل يأكل لقمة أو لقمتين ولا يطيع الشهوة في الأكل.

وليس من آداب المريد كثرة الأوراد بالظاهر فإنه مشغول بتبديل الأخلاق وهي نفي عن القلب، بل يقتصر على الفرائض والسنن الراتبة، فإذا فرغ من ذلك وأراد التنقل واستدامة الذكر بالقلب أتم له من كل ذلك.

ورأس مال المريد الاحتمال من كل أحد بطيب نفس وتلقي ما يجري بالرضاء والصبر على الفقر والضرر وترك السؤال والاعتراض في القليل والكثير بما هو حظ له. ومن لم يصبر على ذلك فليدخل السوق، فإذا أدام المريد الذكر ولازم الخلوة فوجد فيها ناقصاً للعادة من خطاب يُسمع أو معنى يُشاهد فينبغي أن لا يشتغل بذلك البتة ولا يسكن إليه، ولا ينبغي أن ينظر حصول المثال، فإن ذلك كله شاغل عن الحق تعالى. ولا بد له إذا رأى ذلك أن يصفه لشيخه ليفرغ قلبه منه. ويجب على شيخه أن يكتم سره ويصون غيره أمره ويصغر ذلك في عينه، فإن ذلك كله اختبار وامتحان، والسكون إليه مكر فليحذره المريد فليجعل همّه فوق ذلك.

وآخر الأشياء بالمريد أن يقع في خاطره أن ذلك من تقريب الحق له واصطفائه وتخصيصه إياه بذلك. وتحقيق ذلك بأكثر مما ذكرناه يتعذر إيداعه في الكتب.

وفي حكم المريد إذا لم يكن في موضعه من يؤدبه أن يهاجر إلى من نصب في وقته لإرشاد المريدين ثم يقيم عنده إلى وقت الإذن.

ومن حكم المريد إذا زار شيخاً فليدخل عليه بالحرمة والحشمة، فإن أهّله الشيخ لشيء من الخدمة عُدّ ذلك من جزيل النعمة، ولا ينبغي له أن يعتقد في المشايخ بالعصمة يذرهم وأحوالهم فيحسن بهم الظن، ويرعى مع الله حدوده فيما يتوجه عليه.

وكل مريد بقي لشيء من عروض الدنيا في قلبه أثر فإسم الإرادة له مجاز، وإذا بقي له اختيار فيما يريد أن يخرجه من ملكه فإراد أن يخصّ به نوعاً من أنواع البر أو شخصاً دون شخص فهو متكلف في حاله وربما عاد إلى الدنيا عن قريب.

وينبغي أن يكون قصد المريد في حديث العلائق الخروج منها لا السعي في أعمال البر، وقبول قلوب المشايخ للمريد أول شيء على سعادته. وأصدق شاهد، ومن رد قلب شيخ من المشايخ فإنه يرى غبّ ضرره لا محالة ولو بعد حين، ومن ترك حرمة الشيوخ فقد أظهر رقم شقاوته وذلك لا يخطىء.

ومن أصعب الآفات في هذه صحبة الأحداث، ومن ابتلاه الله تعالى بشيء من ذلك فبأجماع الشيوخ يعتبر ذلك عبداً أهانه الله تعالى وخذله وعن نفسه شغله، فهو يعتقد أن ذلك هيّن ويسير. قال الله تعالى:

﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾(١)

وقال الواطيء: إذا أراد الله تعالى هوان عبد ألقاه إلى الأقذار والجيف.

وقال فتح المعلى: صحبت ثلاثين شيخاً كانوا يعدّون من الأبدال وكلهم أوصوني عند فراقي لهم فقالوا:

---

(١) سورة النور، الآية ١٥ ـ ١٥/٢٤

إتقي معاشرة الأحداث، ومن ارتقى في هذا الباب عن حال الفسق فإنه لا يضرّه مما قاله من وساوس القائلين بالشاهد، وما يرونه في ذلك من الحكايات عن الشيوخ مما كان الأولى بهم ستره وإخفاؤه فهو نظير الشرك وقرين الكفر، فليحذر المريد مجالسة الأحداث ومخالطتهم فان اليسير مدخل باب الخذلان وبدء حال الهجران ونعوذ بالله قضاء السوء.

وأما حفظ قلوب المشايخ والتعظيم وترك المخالفة. فقال الله تعالى في قصة موسى مع الخضر هل أتبعك لماأراد الصحبة حفظ شروط الآداب فاستأذن فيها وإلاّ فشرط عليه (أي الخضر) أن لا يعارضه في شيء بقوله، فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء، ولما خالفه تجاوز عنه في المرة الأولى والثانية، فلما انتهى إلى الثالثة وهو أول مراتب الكثرة حدثت الفرقة بقوله: هذا فراق بيني وبينك.

قال النبي عليه السلام:

ما أكرم شاب شيخاً لسنّه إلاّ قيّض الله من يُكرمه في سنّه.

وقال المشايخ: عقوق الأستاذين لا توبة له.

وقال أبو سهل الصلوكي: من قال لأستاذه لِمَ لا يفلح.

وقيل: إن شقيق البلخي وأبا تراب النجشبي قدما على أبي يزيد وعنده شاب يخدمه فحضر الطعام فقالا للشاب: كُل معنا فقال: أنا صائم. فقال أبو تراب: كل ولك أجر صوم شهر فأبى. فقال لهما أبو يزيد: دعوا من سقط من عين الله، فأخذ ذلك الشاب بالسرقة بعد سنة وقُطعت يده.

وقيل: ما استصغر أحد إلاّ حرم فائدته.

وقال القشيري[٢]: لم أدخل على الأستاذ أبي علي في ابتداء حالي إلاّ صائماً مغتسلاً، وكنت أحضر باب مدرسة غيره مرة وأرجع من الباب احتشاماً له وإذا تجاسرت مرة ودخلت كنت إذا توسطت المدرسة يصيبني بشبه خدر حتى لو غرزت فيّ إبرة كنت لا أحسّ بها فإذا قعدت لأسأله عن واقعة وقعت لي لا أحتاج الأسئلة، بل كان هو يبتدىء شرح واقعتي كما أقصد. وغير مرة جرى منه هذا عياناً، ولم يحضر ببالي مدة ترددي إليه اعتراض عليه في شيء إلى أنه خرج من الدنيا.

٢ ـ الحيل والأثيلاء بالمال والجاه

وأما الحيل والأثيلاء بالمال والجاه. فمن ابتلي مريد بجاه معلوم أو صحبة حدث أو ميل إلى امرأة أو اعتماد على معلوم وليس عنده شيخ يدل على حيلة يتخصل بها جاز له السفر تشوشاً لتلك ولا شيء أضرّ بالمريدين من حصول الجاه لهم قبل جمود بشريتهم.

ومن آداب المريد أن لا يسبق علمه منازلته ومعاملته، ولهذا قال المشايخ: إذا حدّث العارف فجهلوه.

ومن غلب علمه على منازلته فهو صاحب علم لا صاحب سلوك، ومن شأنه، إن كانت طريقه خدمة الفقراء، الصبر على جفاهم وإن يعتقد بذل روحه في خدمتهم، ثم لا يحمدون له فعلاً فيتعذر أبداً من تقصيره ويقرّ على نفسه بالخباية وإن كان بريئاً، تطيباً لقلوبهم.

قال القشيري: سمعت الإمام أبا بكر بن خورك يقول: إذا لم

(٢) مؤسس الطريقة القشيرية وأشهر كتبه الرسالة القشيرية الذي يعتبر دستور في الصوفية.

تصبر على الطريقة، وبناء هذه الطريقة ملأك حفظ آداب الشريفة، وصون النفس عن الحرام، والشبهات، وحفظ الحواس عنها، وعد الأنفاس مع الله تعالى عن غفلات، وإن لا يستحل سمسمة فيها شبهة عند الضرورة فكيف عند الاختيار، ومن شأنه دوام المجاهدة في ترك الشهوات، واقبح الخصال رجوع المريد إلى شهوة تركها الله تعالى. ومن شأنه حفظ ما عاهد الله تعالى عليه فإن الرجوع عن ذلك كالردة عند القوم.

ولا ينبغي له أن يعاهد الله تعالى على شيء اختياراً خوفاً من ذلك في لوازم الشرع ما يستنفد كل توسع وطاقة إذا حقق معرفة ذلك.

قال الله تعالى في صفة قوم التزموا شيئاً من عبادته ولم يفوا بها: «ورهبانية ابتدعوها ما كتبنها عليهم»[٣]. ومن شأنه قصر الأمل فإن الفقير ابن وقته، ومتى كان له أمل لا يصل أبداً، ومن شأنه أن لا يكون معه معلوم وإن قلّ لا سيما إذا كان بين الفقراء، فإن ظلمة المعلوم تطفىء نور الوقت.

ومن شأنه ترك قبول بر النسوان ورفقهم لا محالة، والتباعد عن أبناء الدنيا، فإن صحبتهم سمّ مجرد لأنهم ينتفعون به، وهو يتضرر بهم.

قال الله تعالى:

ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا[٤]، فالزهاد يخرجون المال من الكيس تقرباً إلى الله تعالى، وأهل المعرفة يخرجون الخلق والمخلوقات اكتفاء بالله تعالى عما سواه:

---

(٣) سورة المجادلة، الآية ٥٧ ـ ٣٧

(٤) سورة الكهف، الآية ٢٨ ـ ٢٨/١٨

قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون[٥]

٣ ـ آفات المريد

ومن آفات المريد حسد الخفى للأخوان على ما خصهم الله تعالى به من المقامات والأحوال التي ليس له مثلها. وإنما ذلك باكتفائه بوجود الحق، وقدمه عن وجوده ونِعَمِهْ، وكل من رأى أن الحق رفع مرتبته أن يحمل غاشيته فإن الظرفاء من القاصدين على ذلك استمرت طريقتهم وسنّتهم لعلمه، إن ذلك كله بقسمته.

ومن حكمه إذا وقع في جمع أشار الكل بالكل. فيقدم الجائع والشبعان على نفسه ويتلمذ لكل من أظهر عليه الشيخوخة وإن كان هو أعلم منه، ولا يصل إلى ذلك إلاّ بتبرئة عن حوله وقوته، ونوصله إلى ذلك بطول الحق ومنته، [وأما إرادته في السماع فلا يتحرك فيه اختيار إليه، ومتى تحرك غلبة وقهراً ثم زال ذلك القهر وجب عليه العقود والسكون لا محالة.

وإن أشار عليه الشيخ بالحركة فتحرك بإشارة، فلا بأس به إذ كان ممن يحكم على مثاله.

وبالجملة فالحركة الإختيارية ينقص من حال كل متحرك، مريداً وشيخاً، فإن أشار عليه الفقراء بالمساعدة في الحركة ساعدهم بالقيام وبأدنى ما لا بد منه مراعاة لقلوبهم، ورفعاً لاستيحائهم.

وأما طرح الخرقة فحق المريد أن لا يرجع في جرح عنه البتة، إلاّ إذا أشار عليه الشيخ بالرجوع فيه، فيأخذ بنيته العارية بقلبه، ثم يخرج عنه بعد ذلك من أبحاث قلبت ذلك الشيخ.

فإن حصر مع قوم عادتهم طرح الخرقة والرجوع فيها، فإن لم

---

(٥) سورة الأنعام، الآية ٩١ ـ ٩١/٦

يفهم الشيخ بحرمته وحشمته وكان هذا المريد أن لا يعود فالأحسن أن يساعدهم في الطرح ثم يؤثر بها العقال إذا أرجعوهم، وله أن لا يطرح ولا يسلم للمريد البتة والإقتراح على القوال لأنه إن كان صادقاً فصدق قوله يحمل على القوال على التكرار ويحمل غيره على طلب التكرار.

٤ ـ السفر

وأما السفر قلما كان رأي كثير من أهل الحقيقة اختيار السفر والغربة جعل باباً مستقلاً على حدة وهو مختلف فيه [فمنهم من اختار الإقامة ولا يسافر إلاّ لحجة الإسلام كالجنيد وسهل بن عبد الله وأبو يزيد البسطامي وأبي جعفر وغيرهم. [ومنهم اختار السفر ولم يزل عليه حتى خرج من الدنيا كابي عبد الله المغربي وابراهيم أدهم وغيرهما. [ومنهم من سافر في حال الشباب في ابتداء الحال وأقام في حال الشيخوخة، كالشبلي وأبي عثمان الحبري وغيرهما.

ولكل واحد منهم أصول بنى عليها طريقة.

واعلم أن الذين اختاروا السفر على الإقامة إنما اختاروه لما فيه من زيادة الرياضة، وليكونوا مع الله تعالى بلا علاقة ولم يتركوا من أورادهم في السفر شيئاً.

وقالوا: الرخص له ضرورة ونحن نسافر اختياراً

وقيل: إنما سمي السفر سفراً لأنه يُسفر عن أخلاق الرجال، أي يكشف عنها

وعن مالك بن دينار: إن الله تعالى أوحى إلى موسى أن اتخذ نعلين من حديد وعصا من جديد ومسيحاً في الأرض فاطلب الأثار والعير.

وقال محمد الكتّابي: أوصني. فقال: اجتهد أن تكون كلها ليلة ضيف مسجد، وأن لا تموت إلاّ بين المنزلين.

وقال الحصري: جلسة[٦] خير من ألف حجّة

وقال أبو عبد الله النصيبي: سافرت ثلاثين سنة ماحطت لي خرقة على مرقعي ولا عدلت إلى موضع علمت أن لي فيه رفقاً ولا تركت أحداً يحمل لي شيئاً.

أنواع السفر

والسفر نوعان: سفر باليدين وهو الإنتقال من بقعة إلى بقعة وهو كثير الوجود، وسفر بالقلب وهو الإنتقال من صفة إلى صفة، وذلك قليل الوجود، ويسمى الأول سفر الأرض والثاني سفر السماء.

وكان النبي (صلعم) إذا استوى على البعير خارجاً إلى سفر كبّر ثلاثاً ثم قال: سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون. ثم يقول:

اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا الستر والتقوى، ومن العمل ما ترضى،

اللهم هوّن علينا سفرنا هذا وأطوعنا بعده.

اللهم أنت الصاحب في السفر وكآية المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال.

فإذا رجع من سفر قالهن وزاد فيهن:

آيبون تائبون لربنا حامدون.

(٦) جلسة: بجمع الهم بوصف الشهود خير من ألف حجة بوصف الغيبة (التفسير مستخرج من النص)

الفصل السابع:

الهيبة والوجد والتواجد وأدلّة الأذكار

١ ـ الهيبة والأنس

وأما الهيبة[1] والأنس[2] وهما حالان فوق القبض والبسط كما أن القبض فوق الخوف والرجاء، فكل هاتف غائب حتى لو قطع قطعاً لم يحضر من غيبته إلا بزوال الهيبة عنه والأنس.

ثم إنهم يتفاوتون في الهيبة والأنس.

قيل: أدنى مراتب الأنس أنه لو أتى في لظى لم يتكدر عليه أنسه.

وقال الجنيد: سمعت السري يقول: يبلغ العبد من الهيبة والأنس إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لا يشعر وكأن في قلبي شيء من ذلك حتى بان لي أن الأمر كذلك.

واعلم أن الأنس يتولد من السرور بالله. ومن صح له الأنس بالله استوحش من كل شيء سواه.

وقيل لبعضهم متى يذوق حلاوة الأنس فقال: إذا قطعوا العلائق

---

(١) الهيبة: مقتضاها الغيبة والدهشة. (استخرجها من النص)

(٢) الأنس: مقتضاها الصحو والإفاقة.

ورفعوا الخلائق وغاضوا في الحقائق مطلعين على الدقائق.

وقال الأصمعي: مررت بأعرابية في كوخ فقلت لها من يؤنسك هنا.

فقالت: من يؤنس الموتى في قبورهم.

قلت: فمن أين تأكلين.

فقالت: يطعمني مطعم الذرة وهي أصغر مني.

وقال الشبلي: من استأنس بالله استوحش من خلقه، ومن استوحش من خلقه صار فرداً بين تربه[٣] وحالتا الهيبة والأنس وإن حلتّا، فأهل الحقيقة يعدونهما نقضاً لتضمنها تغيّر العبد، فإن أهل التمكين سمت أحوالهم عن التغيير فهم كمال المحو في وجود العين فلا هيبة لهم ولا أنس ولا علم ولا حس وارتقاءهم عن هذا المقام بالوجود. وسيأتي في ذكره إن شاء الله.

وحكي عن أبي سعيد الحرازانة قال: تهت مرة فكنت أقول أتيه مرة فلا يدري من التيه من أنا سوى ما يقول فيّ وفي جنس أيته على جن البلاد وأنسها، فإن لم أجد شخصاً أتيه على نفسي هتف بي هاتف يقول:

أيا من يرى الأسباب أعلا وجوده.
ويفرح بالتيه الدني وبالأنس.
فلو كنت من أهل الوجود حقيقة.
لغبت عن الأكوان والعرش والكرسي.
وكنت بلا حول مع الله واقفاً.
خلياً عن التذكر للجن والأنس.

---

(٣) أترابه

٢ ـ التواجد والوجد والوجود

وأما التواجد والوجد والوجود. فالتواجد استدعاء الوجد تكلفاً بضرب اختيار وليس لصاحبه كمال الوجد لأن باب التفاعل أكثره لإظهار صفة ليست موجودة كالتفاعل والتجاهل ونحوهما، وقد أنكره قوم من التكليف والتصنع والبعد عن حقيقة الأمر، وأجازه قوم لمن به تحصيل الوجد، وهو مستعد له بحرقته ورقته وحزنه، وأصله قوله تعالى:

إن لم تبكوا فتباكوا.

وأراد بالتباكي الإستعداد للبكاء بما ذكرنا، لا تباكي الغافل اللاهي.

والوجد: ما يصادق القلب ويرد عليه بلا تكلف ولا تصنع.

وقيل: هو السماع ممن هو فان عن أحوال البشرية.

وقيل: هو بروق تلمع ثم تخمد ثم تبدو ثم تخفى، فما أخلاها لو بقيت على صاحبها طرفة عين.

والوجود: فقدان العبد بمحاق أوصاف البشرية، ووجود الحق لأنه لابقاء للبشرية عند ظهور سلطان الحقيقة. وهذا معنى قول أبي الحسين النوري:

أنا منذ عشرين سنة بين الوجد والفقد، إذا وجدت ربي فقد قلبي، وإذا وجدت قلبي فقد ربي، وهو أيضاً قول الجنيد: علم التوحيد مباين لوجوده وجود التوحيد ومباين لعلمه وانشد وجودي: أن أغيب عن الوجود بما يبدو عليّ من الشهود. [فالتواجد بداية والوجود نهاية والوجود واسطة بينهما.

وقال أبو علي الدقّاق: التواجد يوجب استيعاب المريد، والوجد

يوجب استغراقه والوجود يوجب استهلاكه. فهو كمن شهد البحر ثم ركبه ثم غرق فيه وهلك، [وترتيب هذا الأمر قصور ثم ورود ثم شهود ثم وجود ثم خمود وبمقدار الوجود يكون الخمود ولصاحب الوجود صحو ومحو، فحال صحوه بقاء بالحق، وحال محوه فناء بالحق، وهاتان الحالتان أبداً متعاقبتان عليه فإذا غلب عليه الصحو بالحق فيه يصول وبه يقول، كماجاء في الخبر المشهور، فبي يسمع وبي يبصر.

وقال رجل للشلبي: هل تظهر آثار صحة الوجود على الواجدين. فقال: نعم، نور يزهر مقارناً لنيران الإشتياق، فتلوح على الهياكل آثاره، كما قال ابن المعتز شعراً:

وأمطر الكأس ماء من أبارقة   فأنبت الذر في أرضٍ من الذهبِ

وسبّح القوم عندما رأوا عجبا   نوراً من الماء في نارٍ من الذهبِ

وإذا غلب عليه المحو فلا علم ولاعقل ولا فهم ولاحسّ، كما روى مسنداً أن أبا عقال المغربي أقام بمكة أربع سنين ولم يأكل ولم يشرب إلى أن مات، وكان يسلّم خاص أصحابه، فلم يعرفه حتى يعرّفه بنفسه، ثم يغيب عنه الشيخ، حتى لو عاود الفتى بالكلام لم يعرفه الشيخ، ومنهم يعود إلى حال أداء الفرائض فقط:

وتسمى هذه الحالة الفرق الثاني، وسبق ذكرها.

الفصل الثامن:

الإنسان الكامل وشروط المرشد وعلاماته

١ ـ الإنسان الكامل:

عبارة عن جميع المراتب الإلهية والكونية من العقول والنفوس الكلية والجزئية ومراتب الطبيعة إلى آخر تنزلات الوجود، وتسمى بالمرتبة العمائية أيضاً فهي مضاهية للمرتبة الإلهية، ولا فرق بينهما إلاّ بالربوبية والمربوبية ولذلك صار خليفة الله ومرتبة الأحدية هي ما أخذت حقيقة الوجود بشرط أن لا يكون معها شيء، فهي المرتبة المستهلكة جميع الأسماء والصفات فيها ويسمى جمع الجمع وحقيقة الحقائق، والعماء أيضاً ومرتبة الإلهية ما أخذت حقيقة الوجود بشرط شيء، فإما أن يؤخذ بشرط جميع الأشياء اللازمة لها كليتها أو جزئتها المسماة بالأسماء والصفات، فهي المرتبة الإلهية المسماة عندهم بالواحدية ومقام الجمع.

مقام الجمع هذه باعتبار الإيصال بمظاهر الأسماء التي هي الأعيان والحقائق إلى كمالاتها المناسبة لا استعداداتها في الخارج، ويسمى مرتبة الربوبية.

وإذا أخذت بشرط كليات الأشياء يسمى مرتبة الإسم

الرحمان، رب العقل الأول المسمى بلوح القضاء وأم الكتاب والقلم الأعلى.

وإذا أخذت بشرط أن يكون الكليات فيها جزئيات ثابتة من غير احتجابها من كلياتها فهي مرتبة الرحيم، رب النفس الكلية المسماة بلوح القدر، وهو اللوح المحفوظ والكتاب المبين.

وإذا أخذت بشرط أن تكون الصور المفصلة جزئيات متغيرة فهي مرتبة الإسم الماحي والمثبت والمحي رب النفس المنطبقة في الجسم الكلي المسماة بلوح المحو والإثبات.

[وإذا أخذت بشرط أن تكون قابلة للصور النوعية الروحانية فهي إسم القابل رب الهيولي الكلية المشار إليها في الكتاب المسطور والرق المنشور.

[وإذا أخذت بشرط الصور الحسية الغيبية فهي مرتبة الإسم المصوّر رب عالم الخيال المطلق والمقيد.

وإذا أخذت بشرط الصور الحسية الشهادية فهي مرتبة الإسم الظاهر المطلق والآخر رب عالم الملك.

المراقبة: والمراقبة استدامة علم العبد باطلاع الرب عليه في جميع أحواله.

الفصل التاسع:

خواص الذكر وفضله وآداب طريق الشاذلي

وأمافضل الذكر ودلائله وخواصه وحقائقه.

إعلم أن الذكر هو العمدة في هذا الطريق، فلا يصل أحد إلى الله إلاّ بدوام ذكره وهو مأمور به وثابت بالأدلّة الأربعة.

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبّحوه بكرة وأصيلا﴾(1)

وقال النبي (عم): قال الله تعالى:

يا ابن آدم إذا ذكرتني شكرتني وإذا نسيتني كفرتني.

وقال عليه السلام: خير الأعمال ذكر الله تعالى

وقال: لكل شيء صقال، وصقال القلوب ذكر الله.

وقال: إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها.

قيل: يا رسول الله وما رياض الجنة: فقال: مجالس الذكر. وقال:

---

(1) سورة الأحزاب، الآيات: ٤١ و ٤٢ - ١٤/٣٣ و ٤٢

من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده. فإن الله تعالى ينزل العبد منه حيث نزّله العبد من نفسه.

وقال أبو علي الدقاق: الذكر منشور الولاية، فمن وفق للذكر فقد أُتي المنشور، ومن سُلب الذكر فقد عُزل

وقال ذو النون: عقوبة العارف انقطاعه

وقيل: الذكر أفضل من الفكر لأن الله تعالى يوصف به ولا يوصف بالفكر.

١ ـ خصائص الذكر

ومن خصائص الذكر أن الله تعالى جعل في مقابلته الذكر فقال:

﴿فاذكروني أذكركم﴾[٢].

وهذا من خصائص هذه الأمة. لم يعطه الله لأمة قبلها.

كذا قال رسول الله (صلعم) عن جبريل (عم) عن الله تعالى.

وقال عليه السلام: في قوله تعالى:

﴿ولذكر الله أكبر﴾[٣].

ومعناه ذكره الذي وعدكم به في قوله تعالى:

﴿اذكروني أذكركم أكبر من ذكركم له﴾

ومن خصائصه أيضاً أنه غير مؤقت بل إن العبد مأمور في كل وقت باللسان أو بالقلب إما فرضاً أو ندباً.

قال الله تعالى:

---

(٢) سورة البقرة، الآية ١٥٢ ـ ١٥٢/٢

(٣) سورة العنكبوت، الآية ٤٥

﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾[٤]

قال الإمام أبو بكر بن بورك: معناه قياماً نحو الذكر وقعوداً خالياً عن الدعوى فيه.

وقال القشيري: قال السري مكتوب في بعض الكتب المنزلة: إذا كان الغالب على عبدي ذكري عشقني وعشقته وأوحى الله تعالى بي فافرح وبذكري فتنعّم. وفي الأنجيل: اذكروني حين تغضب أذكرك حين أغضب.

٢ ـ أنواع الذكر

والذكر ثلاثة أنواع:

ذكر باللسان، وذكر بالقلب، وذكر بالروح.

بالأولى يتوصل إلى الثاني، وبالثاني يتوصل إلى الثالث الذي هو غاية القسوة. وقيل هو ثلاثة أنواع:

ذكر باللسان مع غفلة القلب ويسمى ذكر العادة وهو ذكر العوام وثمرته العقاب لأنه ذنب

وذكر باللسان مع حضور القلب ويسمى ذكر العبادة وهو ذكر الخواص وثمرته الثواب

وذكر بجميع الجوارح والأعضاء ويسمى ذكر المحبة والمعرفة، وهو ذكر الخواص وثمرته لا يمكن التعبير عنها ولا يعلم قدر ذلك الذكر إلاّ الله.

[وقيل: حقيقة الذكر أن تذكر الله تعالى وأنت ناس لكل شيء سواه ولهذا قال ذو النون: من ذكر الله على الحقيقة نسي في جنب

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٩١ ـ ١٩١/٣

ذكره كل شيء وحفظ الله تعالى عليه كل شيء.

وأفضل الذكر لا إله إلاّ الله لقوله (عم) أفضل الذكر: لا إله إلاّ الله والذكر الخفي أفضل لقوله تعالى:

﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفية﴾[٥]

وقوله الخفي والمعنى فيه. أنه أخلص الله، وأبعد عن الرياء، وأكثر فائدة، وأفيد ثمرة بالتجربة، وأعظم وأقوم وأسعد أجراً وذخراً، وأتمّ درجة وأقرب زلفى وأكمل مقاماً، وأزكى طهارة، وأسرع نجاة، وأسبغ رضى، وأجذل معرفة، وأبلغ وصلاً.

وعن جماد الملكي أنه قال: ذكر القلب يضاعف سبعين ضعفاً على ذكر اللسان وقال (عم): الذكر الذي لا تسمعه الحفظة يزيد على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين ضعفاً، أخرجه البيهقي عن عائشة.

وقيل: ذكر الله بالقلب سيف الخواص، وذكره باللسان سيف العوام.

وقال محمد الكتاني: لولا أن ذكره تعالى فرض لما ذكرته إجلالاً له، كيف يذكره مثلي ولا يغسل فمه قبل ذكره بألف توبة مقبولة.

وقيل لراهب أنت صائم فقال: نعم أنا صائم بذكر الله، فإذا ذكرت غيره أفطرت.

وقال الحريري: كان بين أصحابنا رجل يكثر قوله:

الله، الله، فوقع عليه في بعض الأيام جذع فشجّ رأسه فجرى منه الدم، فكتب على الأرض الله، الله،

(٥) سورة الأعراف، الآية ٧/٢٠٥

وكان الشبلي ينشد شعراً:

ذكرتك لأني نسيتك لمحة وأيسر ما في الذكر لساني

فلما أراني الوجد أنك حاضري شهدتك موجوداً بكل مكاني

فخاطبت موجوداً بغير تكلم ولاحظت معلوماً بغير عيان

٣ ـ شروط المرشد

واعلم أنه يشترط بالمرشد أن يكون عالماً بما يحتاج إليه المريدون من فقه وعقائد التوحيد بقدر ما يزيل به الشبهة التي في البداية تعرض للمريد، وأن يكون عالماً بكمالات القلوب وآدابها، وآفات النفوس وأمراضها وكيفية حفظ صحتها واعتدالها، وأن يكون رؤفاً رحيماً بالمسلمين وخصوصاً بالمريدين.

وأن يكون ناصحاً لهم فينظر في حال من يصحبه منهم وإذا رآه قابلاً للسلوك سلكه وحسن له الطريق، وعلى ترك الأسباب عانه، وبكل ما أمكنه إعطائه من المال وغيره ملكه، وإن رآه غير قابل لذلك ردّه إلى حرفته أو إلى تعاطي شيء من الأسباب، هنالك، فإن الله تعالى لا يحب العبد البطال.

٤ ـ علامة المرشد

ومن علامة المرشد الأمين أن يستر ما اطلع عليه من عيوب المريدين، وأن يكون في حالة الوسطى في جميع أحواله من جوع وشبع ونوم وسهر وقبض وتنشيط.

والحالة الوسطى هي ما بين الإفراط والتفريط، ولا يقدر عليها إلا الكمّل من الرجال، ولذا كان من اتصف بها صالحاً للإرشاد بلا محال وأن يكون قد استوى عنده جميع المأكل والملبس، وأن يكون غني النفس، وحسن الخلق لا يغضب إلاّ الله.

وإذا جاء أحد يريد الإرشاد لا يكون في وجهه عابس وينبغي أن يكون جلاله ممزوجاً بجماله وغضبه ممزوجاً بجماله، وقهره ممزوجاً بلطفه. فيكون قد وصلنا الله بمنه وكرمه إلى تلك الصفات.

وإذا سئلت عن واجبات الشيخ تجاه المريد وواجبات المريد في حق الشيخ يكون الجواب:

يجب على الشيخ ثلاثة أشياء:

التشكيك في البداية.

والتبليغ في النهاية.

والحفظ في الرعاية.

ويجب على المريد للشيخ ثلاثة أشياء:

امتثال أمره.

وكتمان سره.

وتعظيم قدره.

وإذا سئلت عن أقسام الآداب فهي على ثلاثة:

آداب الله الذي مولاك.

وآداب مع شيخك الذي ربّاك.

وآداب مع جميع العلماء الصالحين وذلك من علامات المخلصين.

وقال الشيخ الأكبر قدس سره: يجب على الشيخ إذا رأى شيخاً آخر فوقه أن ينصح نفسه ويلزم خدمة ذلك الشيخ الآخر هو وتلامذته، فإنه صلاح وسعادة في حقه وحق أصحابه ومتى لم يفعل هذا فليس بمنصف وناصح نفسه ولأصحابه همة، بل هو ساقط الهمة، وضعيفها بل ربما هو محب في الرئاسة والتقدم. وهذا في طريق الله نقض.

قال عليه السلام: لو كان موسى حياً ما وسعه إلاّ تبعني وإلياس وعيسى، بل كان الأنبياء حتى حكم شريعة رسول الله (صلعم) في الدنيا وفي الآخرة تحت لوائه وشريعته. [هكذا ينبغي أن يكون شيوخ الطرائق.

قال الشعراني قدس سره: ثم إني إذا رأيت أحدهم أعرف مني بالطريق تتلمذت له. ولو كان مأذوناً لي قبل ذلك من شيخ آخر، لأن المقامات ليس لها حد يقف عليه العبد.

قلت: فإذا وجب على الشيخ لزوم خدمة الشيخ الأكمل منه، وكان حال الشيوخ تلميذاً لمن هو أعرف منه بالطريق. ولو كانوا مأذونين من شيخ آخر، كحال موسى مع الخضر عليهما السلام. فما تقول في من لم يشم رائحة من أسرار الطريق أو شمّ ما هو ناقص منحط عن ذروة التحقيق.

٥ ـ كيفية أخذ الذكر

أما كيفية أخذ الذكر فهو أن يستخار المريد والشيخ، أو أحدهما فقط، فإن وافقت استخارتهما فذلك هو المطلوب أو صحّت من أحدهما فيستدل به على الأذن من حضرة علاّم الغيوب يجلس الشيخ المريد بين يديه بعد أن يكون لديه طهارة كاملة، ويلصق ركبتيه إلى ركبتيه كما فعل جبريل (عم) مع النبي (عم)، ثم يأخذ بيده اليمنى يد المريد اليمنى كالمصافح ثم يستتيبه عن جميع المخالفات والمعاصي والقبائح ويأمره بالاستحلال مع أرباب الحقوق ورد المظالم، وترك البدعة، والعمل بالسنّة واجتناب الرخصة، والأخذ بالغرائم، ثم يقرأءا معاً هاتين الآيتين بنيّة التوبة من جميع ما يخالف رضى الله ثم يغمض المريد عينيه والشيخ يتكلم بالتهليل ثلاثاً كما تعلم النبي (عم) لعلي.

ثم يقرأ قوله:

إن الذين يبايعونك.

للتبرك وللإشارة إلى أنه كأنما يبايع الرسول (عم) ثم يضع الشيخ والمريد أيديهما على ركبتيهما ويغمضان أعينهما ثم يذكر الشيخ بقلبه إسم الذات على نية التلقين والتعليم لقلب المريد ثلاثاً بالمد والحضور كأنه مشاهد الملك الغفور ثم يأمر بالإستغفار، والفاتحة، والإخلاص إلى السلسلة والرابطة لشيخه بشرط أن يعتقد أنه خليفة (عم) في الفيض والإمداد، وأنه نائب عنه في تربية الخلق والإرشاد. ولذا قال (عم): ذكر الله شفاء القلوب أخرج الديلمي في الفردوس، عن أنس، وقال (عم) ذكر الأنبياء من العبادة وذكر الصالحين كفّارة، وذكر الموت صدقة، وذكر القبر يقربكم من الجنة.

وأخرجه أيضاً عن معاذ ويقال (عم) الذكر خير من الصدقة.

أخرجه أبو الشيخ عن أبي هريرة وقال: الذكر نعمة من الله فأدّوا شكرها.

أخرجه الديلمي في الفردوس وقال الذكر الذي لا تسمعه الحفظة يزيد على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين ضعفاً.

البيهقي في شعب الإيمان.

وقال الله تعالى:

فاذكروني أذكركم.

وقال أذكر الله ذكراً كثيراً.

قال: فاذكر الله عند المشعر الحرام وقال: اذكروا كما هداكم وقال: الذين يذكرونه الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم وقال: فإذا

قضيتم مناسككم فاذكر الله وقال في ذم المنافقين: ولايذكرون الله إلاّ قليلاً. وقال: واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفية ودون الجهر من القول بالغد ولا تكن من الغافلين

وقال: ولذكر الله أكبر، وقال فضيل: بلغنا أن عز وجل قال: عبدي اذكرني بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما.

وقال معاذ ابن جبل: ليس يتحسر أهل الجنة على شيء إلاّ على ساعة مرت بهم لم يذكر الله سبحانه كما في.

وقال (عم): غنيمة مجالس الذكر الجنة. أخرجه أحمد والطبراني.

وقال لو أن رجلاً في حجرة دراهم يقسمها وآخر يذكر الله لكان الذاكر الله تعالى أفضل. أخرجه الطبراني في الأوسط.

وقال: ليس يتعسر أهل الجنة على شيء إلاّ على ساعة مرّت بهم لم يذكروا الله عزّ وجلّ فيها. أخرجه الطبراني والبيهقي عن معاذ.

وقال: ما جلس قوم يذكرون الله تعالى فيقومون حتى يقال لهم قوموا قد غفر الله لكم ذنوبكم وبدلت سيئاتكم حسنات. أخرجه البيهقي والطبراني عن سهل بن حنظلة.

وقال: صدقة أفضل من ذكر الله. أخرجه الطبراني في الأوسط.

وقال: ما من قوم يذكرون الله تعالى إلاّ جفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله في من عنده عن أبي هريرة.

وقال: من أحب لقاء الله أحب الله لقائه، ومن كره الله كره الله لقائه. أخرجه الأربعة.

وقال: من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلت صلواته وصيامه وتلاوته للقرآن. ومن عصى الله فلم يذكره وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن.

وقال: مجالس الذكر تنزل عليهم السكينة وتحف بهم الملائكة، وتغشاهم الرحمة ويذكرهم الله على عرشه، أخرجه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة وأبي سعيد.

وقال تعالى:

رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله

وقال: واذكر ربّك إذا نسيت

وقال: ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا

وقال: فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله

وقال: ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع وكان أمره فرطا

وغيره، فالذكر أشرف العبادات وأفضلها وأعظمها وأكملها من حيث تصفية القلوب وتحليتها وتزكية النفوس وتكميلها لأن العابدين لو اشتغلوا بجميع العبادات في جميع أوقات الليل والنهار قلما تحصل لهم تصفية قلوبهم وتزكية نفوسهم وتهذيب أخلاقهم.

وأما الذاكرون لما اشتغلوا بذكر الله على الدوام لا يشذ منهم أحد إلاّ وقد حصل ذلك مع كثير من الأسرار وأنواع الوصلة:

لأن الذكر عمل جامع لأحوال القلوب وأسرار القرب من مقامات اليقين ومشاهدة الشهود ومراتب كشف الغيوب وهو حصن الله الأعظم ومن دخله كان آمناً من الآفات الظاهرة والباطنة كما قال الله تعالى:

لا إله إلاّ الله حصني ومن دخله كان آمناً.

وكما جاء في الحديث: يقول الله تعالى لملائكته قرّبوا مني أهل لا إله إلاّ الله فإني أحبهم.

وقال عليه السلام: لا إله إلاّ الله ليس لها دون الله حجاب حتى يتخلص إليه.

وقال تعالى: قل الله ثم ذرهم في خوفهم يلعبون.

الفصل العاشر:

آداب الخارج وتخصيص القلب بالذكر والخشية

١ ـ آداب الخارج

وأما الأداب في خارج الذكر: دوام الوضوء وصلاة سنة الوضوء، وقيل مستحب، والإشراق، وصلاة الضحى واستغفار الأولين، والتهجر وملازمة الجماعة، والرواتب، وإحياء ما بين الطلوعين: أعني الفجر والشمس، قد رد بالذكر وإحياء ما بين العشائين وأيضاً بالذكر.

فإن ضم إلى ذلك استغراق ما بعد العصر كله بالذكر كان أتم، وكذلك الرابطة والعمل في ذلك مهم وعليه اتباع الشرع والسنّة وإماتة البدعة، وحفظ الكسب من المحرمات، فلا ينقص ذكره عن خمسة آلاف في اليوم والليل، وما زاد أتم وأنجى، والمجرد يكثر البتة.

واستغراق أوقاته في الإشتغال مهما أمكن، والإعتزال عن المنكر مهما حصل. [إذ أن مخالطة المنكرين مع أهل الباطن يورث قسوة القلب والإنكسار، والتصفية، والوقوف دواماً، والسكوت دواماً بغير موجب الشرع، وتقليل الطعام: وإن كان حلالاً وغير

حيواني[1] فهو أعلى، وتقليل النوم مع الحضور والأدب، وضم القدمين إليه، والعزلة عن أهل الغفلة، ولو مريداً، [وترك المراد والمقصود، وصرف همته إلى معرفة الله فقط، والتواضع ونفي الوجود وحسن الظن بالله بمحض فضله، والمحبة لمرشده، والمبالغة في الإخلاص إليه، وطلب رضائه دائماً وهو سبب الفتح.

وإن لا يكون طعامه ولباسه بيد تارك الصلاة ولا بيد المنكر ولا بيد منفوس ولا حائض ولا معيون ومنحوس، وكذلك طهارتهما ونحوهما.

وعلى المريد أن يكون على كل المذاهب الأربعة بعد تصحيح الإعتقاد والتبري عن الترهات وأهل الفساد، وترك البدعة والإعراض عن متاع الدنيا، والميل إلى نعيم الآخرة، وأن يكون بطهارة الظاهر والباطن. وبأن يحفظ قلبه عن دخول الخواطر، وأن يتجرد عن القيود والعلائق، ويزكي نفسه عن الشهوات وحب الدنيا واتباع الهدى والسوى، وأن يذكر الله دائماً مع الحضور والتوجه التام، وأن يستمد من شيخه للترقي إلى حقيقة الذكر وكل حال. وأن يراعي نسبته في حال الذكر، وأن يحصر جميع وقته على الذكر بعد أداء الفرائض والمسنن والرواتب، وأن لا يشغل بشيء غير ما أمر به الشيخ، وأن يذكر بالمحبة والشوق والعشق، وكل ذلك لا لطلب الأهوال والكرامات والمقامات والأغراض.

روي في الأخبار "ثلاثة أشياء لا تزن عند الله تعالى جناح بعوضة:

أحدها: الصلاة بلا خشوع وخضوع

---

(١) غير حيواني المصدر.

ثانيها: الذكر بالغفلة لأن الله لا يقبل دعاءً وذكراً من قلب غافل.

ثالثها: الصلاة على النبي عليه السلام من غير حرمة ونيّة.

كما قال عليه السلام: إنما الأعمال بالنيات.

٢ ـ تخصيص القلب

وقد جاء تخصيص القلب بالإيمان والخشية والإنابة والذكر والتقوى والسلامة.

قال الله تعالى: كتب في قلوبهم الإيمان.

وقال: من خشي الرحمان بالغيب وجاء بقلب منيب.

وقال: حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم[٢].

وقال: إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب.

وقال: أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى.

وقال: يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

وقال الحارث: بلية العبد تعليل القلب عن الله تعالى، فتحدّث الغفلة في القلب.

وقال تعالى: ولا تطع من أغفلن قلبه عن ذكرنا.

وقد كان السلف يجتهدون في قطع العلائق ورفع الشواغل والعوائق عن القلوب ومتى تفرغ القلب عن عوائقه ينتهي بفطرته إلى محبة خالقه.

---

(٢) سورة الحجرات، الآية ٧ ـ ٤٩/٧

وقالت رابعة العلوية: شغلوا قلوبهم بالدنيا عن الله ولو تركوها لجالت في الملاقوت ثم رجعت إليهم بطريق الفوائد.

وعن خالد بن معد: إن ما من عبد إلاّ وله عينان في وجهه يبصر بهما في أمر الدنيا وعيناني في قلبه يبصر بهما في أمر الآخرة.

فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينيه فأبصر بهما ما وعد الله وإن أراد الله به غير ذلك تركه على ما لقلبه وأقفل عليه.

وعن أحمد بن حضرون: إنه قال: القلوب أوعية فإذا امتلأت من الباطل أظهرت زيادة ظلمتها على الجوارح.

وقال أبو تراب: ليس في العبادات شيء أنفع من إخلاص القلب عن الخواطر.

وقال سهل بن عبد الله: حرام على قلب يدخله النور وفيه شيء من ما يكرهه الله.

وقال ذو النون المصري: صلاح القلوب ساعة أفضل من عبادة الثقلين.

٣ ـ أنواع التوحيد والذكر

ويقال: هذه الأربعة: توحيد الآثار وتوحيد الأفعال، وتوحيد الصفات وتوحيد الذات هي أنواع التوحيد:

وفي كتب الشاذلية: يقرأ المريد الفاتحة إحدى عشرة مرة ثم يقول:

يا رب أنت الله يسر لنا علم لا إله إلاّ الله

ثم يذكر الله خافضاً صوته بذكره إلى أن يغلب عليه خاطر

فيرفع صوته بقدر ما يدفع تلك الخواطر فإن لم يندفع يرفع صوته بالذكر ويعيد الإستغفار والقراءة كما سبقه.

ثم يذكر، ويتعين على العبد أن يلازم ذلك في سائر أوقاته فإن لم يتيسر فعقيب الصلاة، فإن لم يتيسر معقيب الصبح والعصر والعشاء، فإن لم يتيسر له فمرة في الليل والنهار.

الفصل الحادي عشر:

منشأ الطريق وأنواع الذكر والتلقين

وجاء في كتب الشاذلية:

إن الشيخ لا يشترط في الطريق سوى ترك المعاصي كلها والمحافظات على الواجبات وما يتيسر من المندوبات وذكر الجلالة الشريفة مهما أمكن وقدر عليه، وقول هذا الذكر ألف مرة في كل يوم، والإستغفار مائة مرة، والصلاة على النبي عليه السلام ما أمكن أو على الأقل مائة.

فالشيخ يرغب في فضل الصلاة على النبي (عم) ويحض عليها، ويحيل ذوي الحاجات والكربات عليها، ويوصي صلاة ركعتين في الليل.

وقال: أولئك كالأغنام بل هم أضل أولئك هم الغالبون.

وقال: ألم يأذن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله.

وقال عليه السلام: الذكر في سبيل الله يضعف فوق النفقة سبعمائة، أخرجه أحمد عن أنس، وقال الله تعالى: تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله.

وقال الله تعالى:

أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه.

وعن أبي هريرة قالوا: الأذكار أربعة:

ذكر تذكره، وذكر تُذكر به وذكر يذكرك وذكر يذكر بك.

ذكر تذكره: يخص العوام وهو الذي تطرد به الغفلة أو ما تخافه من الغفلة.

ذكر تذكر به: تذكر به أي مذكور. أما العذاب وأما القرب وأما غير ذلك، وأما الله جلّ جلاله.

ذكر يذكرك مذكورات أربع: الحسنات من الله والسيئات من قبل النفس ومن قبل العدو وإن كان الله هو الخالق لها.

وذكر يذكرك: وهو ذكر الله لعبده وليس للعبد فيه تعلق وإن كان يجري على لسانه.

والذكر موضع الفناء بالذكر العلي، فإذا ادخلت فيه صار الذاكر مذكوراً والمذكور ذاكراً.

والذكر هو حقيقة ما ينتهي إليه في السلوك، فعليك بالذكر الموجب للأمن من عذاب الله في الدنيا والآخرة وتمسك به ودوام عليه وهو أن تقول:

الحمد لله واستغفر الله ولا حول ولا قوة إلاّ بالله، الحمد لله بإزاء المنن والإحسان من الله، واستغفر الله بإزاء ما يأتي من قبل النفس أو من قبل العدو وإن كان من الله خلقاً وإرادة، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله بإزاء عوارض ما يرد عليك من الله وما يصدر منك إليه، وتنبّه فإن الشرّ قلما يقع في الذكر أو في الفكر أو في السكوت والصمت إلاّ على واحد من هذه الأربعة الحسنة أو السيئة فقل الحمد لله واستغفر الله.

وإن عرض لك عارض من الله أو من نفسك لم يكن بعد خيراً أو شراً ولست بقادر على دفعه أو جلبه فقل:

لا حول ولا قوة إلا بالله، واجمع بين الأذكارات الواردة في جميع الأوقات وداوم عليها تجد البركة والغناء وافرغ باب الذكر باللجوء والإفتقار إلى الله بملازمة الصمت عن الإمتثال والأجناس ومراعاة السر عن محادثة النفس في جميع الأنفاس إن أردت الغناء.

وقال الشاذلي:

فرّغ لسانك للذكر وقلبك للشكر وبدنك بمتابعة الأمر فأنت إذاً من الصالحين.

طريق التوبة:

وقال: إذا ثقل الذكر على لسانك وكثر اللغو من مقالك وانبسطت الجوارح من شهواتك، وانسدّ باب الفكر من مصالحك فاعلم أن ذلك من عظيم أوزارك لكون النفاق في قلبك وليس لك طريق إلى التوبة إلاّ الإصلاح والإعتصام بالله والإخلاص في دين الله. ألم تسمع قوله تعالى:

﴿إلاّ الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين﴾[1].

ولم يقل من المؤمنين، فتأمل وابكِ وافزع إن كنت صادقاً.

قال لبعض شرّاح الحكم العطائية عند شرح قول المتون: لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله إلى آخره. فحقيقة الذكر هو طرد الغفلة، ولطرد الغفلة مراتب هي:

(١) سورة النساء، الآية ٤/١٤٦

الأولى ذكر اللسان: وله شواهد في الكتاب والسنّة، فالزم بذكر اللسان حتى تتصل وتشرف بذكر الجنان.

الثانية: ذكر الجنان.

وذكر الجنان أول عند النقشبندية: فأول قدم يضعونه في الذكر القلب. وذلك لا يعرف إلاّ منهم كما لا يمكن السالك على الرسوخ في هذا القدم إلاّ بهم. فاقصدهم واستنشق روائح عرقهم الطيب لك تظفر بواحد منهم فتجوز بهذا الجوهر النفيس، وتشم من روايح الطريق ما لا يخطر لك ببالك، ويزول عنك التلبس.

فطرقهم أسهل الطرق وليس فيها كثرة الجوع ولا كثرة السهر بل الإعتدال يصحبها.

وخلوتهم في جلدتهم، وكل المجامع لهم زاوية، يحضرون في المجالس وقلوبهم حاضرة مع مولاهم ومن السوء خالية.

نسبة علي:

واعلم أن تلقين الذكر في الطريقة المحمدية وفق السنّة النبوية، كما روي عن علي ذي النفس الرضية، [قال: يا رسول الله دلني على أقرب الطرق إلى الله وأسهلها [فقال: صلى الله عليه وسلم، عليك بمداومة ذكر الله تعالى في الخلوة. [فقال علي، كيف أذكر يا رسول الله.

قال: أغمض عينيك واستمع في ثلاث مرات وقال (عم) ثلاثاً: لا إله إلاّ الله، وعلي يسمع. ثم قال علي ثلاثاً كذلك والنبي (عم) يسمع.

فهذه نسبة علي كرّم الله وجهه.

نسبة الباطنية:

وأما نسبة الباطنية في تلقين الأذكار، يعني بالجنان، من غير حركة اللسان: ذلك بالإثبات من غير نفي لفظ إسم الذات أمر به نبيه (عم):

قل الله ثم ذرهم (الآية)

وهي نسبة الصديق الأعظم التي أخذها باطناً عن المصطفى عليه السلام، وهذا هو الذكر الذي وقرّ في قلبه وعنا به رضي الله عنه.

وقال صلى الله عليه وسلم: فأفضلكم أبو بكر بكثرة صوم ولاصلاة بل بشيء وقر في قلبه. [وقد تفرعت جميع الطرق من هاتين النسبتين فهما الأصل وعليهما عون الرحمان.

تلقين المريد وتنبيته:

وفي شرح رسالة الخادمي وكيفية التلقين بعد ثبوت صدق المريد:

أن يأمر الشيخ بالإستخارة، وهو أن يستخير المريد أيضاً، فإن وافقت استخارتهما، يأمر الشيخ المريد أن يغتسل بغسل التوبة ثم يصلي المريد صلاة التوبة ركعتين ثم يتصدق بصدقة، ثم يجيء عند الشيخ والشيخ يجلسه بين يديه ويلصق ركبتيه بركبتيه ثم يأخذ الشيخ بيده اليمنى يد المريد كالمصافحة ثم يستتيب الشيخ من جميع المعاصي والمخالفات التي أضاع عمره بها، ويأخذ عليه العهد على الإستحلال مع أرباب الحقوق ورد المظالم واسترضاء الخصوم، ويأخذ العهد على التقيد بمتابعة السنّة والعمل بالعزيمة والإجتناب

عن كل رخصة[٢]، والتباعد عن كل بدعة، والإعراض عن جميع القبائح من المنكرات والصفات المذمومات، ثم يستغفر هو والمريد بهذا الإستغفار:

أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلاّ هو الحي القيوم، بديع السموات والأرض وما بينهما من جميع جرمي[٣] وظلمي على نفسي وأتوب إليه. ثم يقرأ الشيخ هذه الآية: ﴿إن الذين يبايعونك﴾ (الآية)، ثم يذكر الشيخ بقلبه إسم الذات على نيّة التعليم والتلقين لقلب المريد ثلاث مرات، ثم يزمع الشيخ معاً أيديهما للدعاء فيدعو الشيخ له ويؤمن المريد ثم يمسحان أيديهما ووجهيهما، وبعده يُقَبِل المريد ركبة الشيخ ويقوم من محله ويستأذن الشيخ ويذهب. ويشتغل بما أمر به الشيخ ويحفظ نسبة الشيخ في كل حال ووقت، ويوفي العهد والميثاق ولا يُنقصه إلى أن يموت.

---

(٢) رخيصة.

(٣) جرائمي.

الفصل الثاني عشر:

الآداب عند الشاذلية وإسم الجلالة واشتقاقاته

أنواع الآداب

في كتب الشاذلية آداب كثيرة ولكن يجمعها عشرون أدباً:

خمسة سابقة على التلفظ بالذكر.

اثنا عشر في حالة الذكر.

ثلاثة بعد الفراغ من الذكر.

أما الخمسة فهي:

١ ـ التوبة وحقيقتها ترك العبد ما لا يعنيه قولاً وفعلاً وإرادة

٢ ـ الغسل والوضوء

٣ ـ السكوت والسكون ليحصل الصدق بأن يشغل قلبه بالله بالفكر دون اللسان حتى لا يبقى أي خاطر مع الله، ثم يوافق اللسان القلب بلا إله إلاّ الله.

٤ ـ أن يشهد بقلبه عند شروعه بالذكر همة شيخه.

٥ ـ أن يرى استمداده من شيخه أنه استمداد من النبي (صلعم) لأنه نائبه.

وأما الإثنا عشر وهي في حالة الذكر:

١ ـ جلوسه على مكان طاهر كجلوسه في الصلاة.

٢ ـ أن يضع راحتيه على فخذيه.

٣ ـ تطيب المجلس للذكر بالرائحة الطيبة وكذلك ثيابه.

٤ ـ لبس الثياب الحلال الطيب.

٥ ـ اختيار الموضع المظلم إن أمكن.

٦ ـ تغميض العينين لسد طرق الحواس عليه.

٧ ـ أن يجعل خيال شيخه بين عينيه وهذا عندهم أكبر الآداب.

٨ ـ الصدق في الذكر بأن يستوي السر والعلانية.

٩ ـ الإخلاص: ويصل الذاكر إلى درجة الصديقية بشرط أن يظهر جميع ما يخطر بقلبه من حسن وقبح لشيخه. وإن لم يظهر ذلك كان خائناً وحُرم الفتح، فالله لا يحب الخائنين.

١٠ ـ أن يختار من صيغ لفظة لا إله إلاّ الله، فإن لها أمراً عظيماً عند القوم لا يوجد في غيرها من الإذكار الشرعية، فيذكر بها جهراً بقوة تامة بحيث لا يبقى فيه متسع ويحضر قلبه المعنوي مع معناها.

١١ ـ إحضار معنى الذكر بقلبه على اختلاف درجاته في الترقي وبعرض كل ما ترقى فيه من الأذواق على شيخه ليعلمه الأدب فيه.

١٢ ـ نفي كل موجود من القلب سوى الله تعالى بتعبير «لا إله إلاّ الله» ليكون تأثير إلاّ الله في القلب ويسري إلى الأعضاء.

قال الشاذلي: ينبغي للرجل أن يهتز من فوق رأسه حتى أسفل قدميه عند قوله الله وهذه حالة يُستدل بها على أنه سالك يُرجى له القدم الأعلى منها إن شاء الله.

وأما التي بعد الفراغ وهي ثلاثة آداب:

١ ـ أن يسكن إذا سكت، ويخشع ويحضر مع قلبه مترقباً لوارد الذكر. لعلّه يرد فيعمر وجوده في لحظة، أعظم ما تعمره الرياضات والمجاهدات في ثلاثين سنة.

٢ ـ يردّ نفسه مراراً، (قالوا) لأنه أسرع للتنوير في البصيرة وكشف الحجب وقطع الخواطر النفسانية والشيطانية.

٣ ـ منع شرب الماء لأن الذكر يورث حرارة في قلب الذاكر، وشوقاً وتهيجاً إلى المذكور، وهو الأعظم من الذكر، وشرب الماء عقب الذكر يطفىء ذلك.

قال الشيوخ فليحرص الذاكر على هذه الأبواب الثلاثة، فإن نتيجة الذكر إنما تظهر بها والله الموفق.

اسم الجلالة:

إعلم أن إسم الجلالة والهيبة والعظمة ويقال إسم الذات، هو لفظة الله وهذا الإسم الشريف موضوع للذات الإلهية باعتبار اتصافها بجميع الصفات الألوهية والأسماء الربوبية والجلال والجمال والكمال عند بعض العارفين.

هو إسم موضوع للذات البحث من حيث هي، إلاّ باعتبار الإتصاف لشيء. لقوله تعالى:

قل هو الله أحد.

وبهذا الوضع كان أعلى من إسم الأحد ومن سائر الأسماء

الإلهية من حيث الرتب. وقيل إنه مشتق وقيل لا. وقيل إنه إسم عربي وقيل لا، وقيل إنه لموضوع معين وقيل لا، وقيل مستعمل بجميع الألسنة وقيل لا. والأصح أن إسم الجلالة «الله» هو إسم الذات وباقي جميع الأسماء والصفات والكمال مندرجة تحت إسمه.

وهو الإسم الأعظم عند أبي حنيفة وعند العارفين من أهل الطريقة.

ولكل نبي من الأنبياء إسم مخصوص تجلّى الله به عليه. ولنبينا عليه السلام وهذا الإسم الشريف، وبه تجلى الله عليه. فلذا كانت رتبة نبينا عليه السلام أعلى من جميع رتب الأنبياء عليهم السلام. كما كانت رتبة هذا الإسم الشريف أعلى من رتب سائر الأسماء الإلهية.

الفصل الثالث عشر:

طريق النفي والإثبات عند الشاذلية

وضع ابراهيم المواهبي الشاذلي في لا إله إلاّ الله رسالة وسماها كتاب التفريد بضبط قواعد التوحيد.

وقال في الجلوس للذكر:

- التربع ونتيجته التمكن وسره دوام الوضوء ظاهراً، وأما باطناً فأشار إلى التمكن بكمال القابلية، وإن أحبّ جلس كما المتشهد حيث لا ألم.
- [ثم يعتمد باليدين على الركبتين مع سدل الكمين ليتقوى على الحركة الجامعة للقلب المنتشي هذا ظاهراً، وأما باطناً فالاعتماد بيد الصدق والإخلاص على حد مستند الكتاب السنّة ليجتمع فيك خصائص الخواص.
- ثم غمض العيون استعانة على خلو الباطن من تطرق المحسوسات هذا ظاهراً، وأما باطناً فتغميض عين الظاهر والباطن عما سوى الله.
- ثم الأخذ بلا إله من الجانب الأيسر الذي هو مشكاة فتيلة القلب النوراني تصل بها إلى المأخذ (وهو المحيط والمأخذ

هو ما تضمنته كلمة النفي) والموضع (وهو ما تضمنته كلمة الإثبات والنفي). مصحوبة في ذهابك من أسفل الصدر وفي إيابك من أعلاه، راجعاً إلى المآخذ فتفارقه بالإثبات.

وسر ذلك أن القلب برزخ بين العالم العلوي والعالم السفلي، ففي أخذك منه إلى أسفل الصدر إشارة إلى استيعاب العالم السفلي بلا إله، ثم بها في عودك إليه من أعلا الصدر إشارة إلى استيعاب العالم العلوي، نافياً عنه ما سوى معنى إلاّ الله، وهذا سر النفي والإثبات.

الوقوف

إعلم أن الوقوف هو أقرب الطرق إلى الله تعالى بعد طرق المراقبة.

قال المجدد الألف الثاني أحمد الفاروقي السرهندي قدس سره: متى لم يتأثر السالك في طريقتنا بسائر الإشتغالات تشغله بالوقوف وبعد ذلك يتأخر في القريبة ويوصله إليه تعالى.

إعلم أن الوقوف القلبي هو التوجه إلى حقيقة الروح الإنسانية من جهة القلب لأن القلب باب الروح الإنساني. ولأن الروح الإنساني إنما يتعلق أولاً بالبدن من طرف القلب، وبعد ذلك أيضاً إنما تتصرف الروح في البدن بواسطة القلب.

فمن يتوجه إلى حقيقة الروح في ناحية القلب يطّلع على حقيقة روحه ويعرف نفسه وتنكشف له أنوار روحه وكمالات نفسه. وعند ذلك يعرف حقيقته، وبمعرفة نفسه يهتدي إلى معرفة ربه

تعالى ويشاهد أسرار أحدية ذاته تعالى ويكاشف آثار صفاته وأسمائه تعالى في المظاهر كلها على مضمون:

من عرف نفسه فقد عرف ربه

بمعنى أن من كشف أنوار نفسه كشف أنوار ربه، لأن النفس الناطقة الإنسانية يعني الروح الإنسانية، محيطة بجميع ما في الحضرة الربوبية، تقدست أسماؤها، إحاطة انطباعية مكانية للوجود في نفس الأمر.

فمن توجه إلى روحه من قلبه فقد ينكشف له في روحه ما في الحضرة الربوبية من الأسرار فيعرف بعد ذلك ربه تعالى بالمعرفة الشهودية. لأن حقيقة الروح الإنسانية كالمرآة لتلك الحضرة لقوله تعالى في التورية إن الإنسان مثال له تعالى وصورته لما فيه من القوة العقلية التي هي جوهر إلهي.

فمن كشف ذلك الجوهر رأى فيه جميع صفات الله وأسمائه وذاته تعالى بالإنطباع الظلي، ورأى فيه أيضاً جميع الموجودات العقلية والحسية إلا أن الروح الإنسانية محيطة بجميع الموجودات، لأن من عرف روحه حق المعرفة عرفت جميع الصفات العقلية الحسية. فلذلك كانت الروح الإنسانية خليفة في العالم العلوي والسفلي كما قال تعالى:

﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾[1].

ولذلك كان خليفة الله في العالم العلوي، لأن الله تعالى بواسطة الروح الإنسانية خلق الأفلاك وما تحتها كما أشار إلى ذلك (عم): أول ما خلق الله روحاً كانت نبياً.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٣٠/٢

وأيضاً قال الله تعالى:

لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك.

ثم إعلم أن كيفية الإشتغال بالوقوف القلبي أن يجرد السالك أولاً عقله من جميع الإدراكات ثم يعطل جميع قواه وحواسه على أحكامها

ثم يسلخ نفسه عن الهيكل الجسماني

وبعد ذلك يتوجه بالبصيرة إلى حقيقة القلب عن طريق الإستغراق والإستهلاك ويداوم على ذلك، فكلما ازداد توجهه إلى حقيقة القلب يزداد معرفة ربه تعالى. فيحصل بمعرفة نفسه معرفة ربه. [وقال أبو زيد البسطامي قدس سره: طريق السالك إلى الله نفسه ومنازله: معرفة أنه إله لأن سفر السالكين ينتهي إلى الظفر بنفوسهم، وإذا ظفروا بنفوسهم فقد ظفروا.

وقال أيضاً: سوقوا أنفسكم تجدوها أي تعرفوها.

الانجلاء الروحاني

والحاصل أنه لا بد للسالك أن يعرف حقيقة روحه بطريق الوقوف القلبي في أن يتجرّد عن المواد الجسمانية ولواحقها، وأن يمحو جميع العلوم الرسمية من التصورات والتصديقات، وأن يلازم التوجه إلى حقيقة قلبه على الدوام. وبعد ذلك لا يبقى فيه إلاّ الإنجلاء الروحاني الغير مقيّد بشيء من الأجسام وعوارضها، ولا يرى حقيقة قلبه في تلك الحالة إلاّ نوراً بسيطاً محتوياً بجميع ما كان ويكون، منتسبة إلى باريها، لأن جهل النفوس بذواتها وبباريها إنما تنشأ من الشواغل البدنية والعلوم الرسمية، وغواشي أحكام القوى والحواس.

فلذلك قال الشيخ الجنيد البغدادي قدس سره: والتصوف هو أن يجلس السالك ساعة متعطلاً عن ملاحظة شيء.

حقيقة الفناء والبقاء

وأما حقيقة الفناء والبقاء.

الفناء: سقوط الأوصاف المذمومة

البقاء: وجود الأوصاف المحمودة.

فمتى بدّل العبد أوصافه المذمومة بالمحمودة فقد حصل له الفناء.

والفناء والبقاء إثنان أحدهما ما ذكرنا وهو بكثرة الرياضة والثاني عدم الإحساس بعالم الملكوت، وهو بالإستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق. وإليه أشار بعض المشايخ بقوله: الفقر سواد الوجه في الدارين. يعني الفناء في الدارين.

ماهية النفي والإثبات

وأما ماهية النفي والإثبات وهو المسلك الثاني. وهو أنفع وأفضل وأشد تأثيراً وهما كلمة: لا إله إلاّ الله وهذه الكلمة الطيبة تطهر الناكر عن الشرك الجلي وعن الشرك الخفي وتجعله خالصاً مخلصاً. وهذه التكملة تجرّد القلوب عن حجب العلائق العنصرية وتزكي النفوس عن رزائل الصفات الحيوانية وتكشف لذكراها على الدوام الصدق والإخلاص في العلوم اللدنية والأسرار الغيبية وتشهد له أنوار التجليات الإلهية.

وكان النبي صلعم يلقن هذه الكلمة الطيبة «لا إله إلاّ الله» للصحابة (رضي) لكن لا تحصل هذه تلك التصفي والتزكية من هذه الكلمة الطيبة وأن سائر الأسماء إلا إذا تلقنها الذاكر عن شيخ

عالم عامل كامل. فأهم معنى القرآن والشريعة وما هو في الحديث والسنن وقاطن في العقائد وعلم الكلام، ملقناً إياها عن شيخ آخر وهو أيضاً ملقناً عن شيخ آخر... هكذا يتسلسل ذلك التلقين في المشايخ وصولاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الفصل الرابع عشر:

الوقوف القلبي وصوره المتعددة

١ ـ وهي أن يتوجه السالك إلى دائرة قلبه بعد تجريده عن الشواغل البدنية ثم يلاحظ بدنه في وسط تلك الدائرة كالكرة.

ويتوهم أنه نافذ من أقطار السموات والأرض.

ويستغرق في تلك الملاحظة على الدوام ويرجع إليها كلما أذهل عنها إلى أن يفنى عن ملاحظة تلك الكرة المفروضة.

وتتعطل جميع قواه وحواسه عن أحكامها.

فعند حصول هذه الحالة يظهر لمعان النورانية حتى لا يبقى في الوجود في نظره غير روحه التي هي الروح الحق.

وبعد ذلك يستهلك نورانية الروح أيضاً في نور الحق سبحانه وتعالى.

ونور الحق غالب على جميع الأنوار، وجميع الأنوار متلاش عند ظهور نور الحق كتلاشي سائر الأضواء عند ظهور ضوء الشمس.

فحقيقة لا يبقى في الظهور إلاّ نور الحق الذي هو الوجود المطلق جلت عظمته وظهرت آياته في الآفاق وفي الأنفس كما قال تعالى:

سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم

وعند ذلك يظهر له معنى قوله تعالى: كل شيء هالك إلاّ وجهه. وعند ذلك يظهر له معنى قوله تعالى: كل شيء هالك إلاّ وجهه، وعند ذلك الثلاثي وظهور الآيات وقع الإشتباه لبعض الصوفية فسهر في سكراته وشطح في دهشاته فانطلق لسانه يقول: أنا الحق.

ويقول: سبحاني ما أعظم شأني وغيرهما من الكلمات المتشابهة.

٢ ـ صورة أخرى: وهي أن يتوجه السالك إلى قلبه الحقيقي ثم يتصور روحه في قلبه نوراً محضاً بلا نهاية، وصفاء صرفاً بلا غاية.

ويتصور في جوّ روحه النوراني صورة بدنية وصورة العالم كالطير في الهوى، ويتصور روحه محيطة بتلك الصور ومحاطة بتلك الروح، وهو ينظر إلى تلك الصور في جو الروح.

ويستغرق في النظر إليها حتى يتّحد بتلك الصور في التصور ويزداد في الإتحاد بتلك الصور بالتحنن والتشوق إليها.

ويداوم على ذلك التصور بالتكرار فيه حتى يكون كأنه هو الحقيقة النوعية الكلية بجميع ما في العوالم التي لا نهاية ولا انقسام لها. بل يكون وحدة صرفة بمجموع تلك الصور.

فمن جعل روحه متكيفة بهذه الكيفية عرف حقيقة روحه، لأن حقائق العالم كلها منطوية في الروح الإنسانية. والروح حاوية عليها، كما قال علي رضي الله عنه:

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر. فمن عرف ربه بتلك الجمعية للحقائق كلها فقد عرف ربه كما ورد سابقاً: من عرف نفسه فقد عرف ربه.

٣ ـ أن يتوجه السالك إلى قلبه بعد تجريد نفسه عن الجسمانية ويتصور فيه نوراً بسيطاً وحدانياً مجرداً عن الكيفيات كلها غير متعلق بشيء ظاهراً على العالم الجسماني كظهور الشمس على الجسمانيات، بحيث يكون جميع العالم الجسماني بالنسبة إلى ذلك النور البسيط كالذرة في شعاع كما قال البسطامي: لو ألقي العرش وما تحته كله في زاوية من زوايا قلب العارف لا يحسه وذلك من كمال عظم القلب.

وبعد ذلك يعلق نظر بصيرته بذلك النور البسيط ويداوم على ذلك النظر لذلك النور البسيط حتى يستغرق في ذلك النظر. بحيث لا يبقى له شعور لغير ذلك. [فعند ذلك يتجلّى له نور الحق تعالى لأن جميع الأنوار مجردة تنتهي إلى نور الحق تعالى.

٤ ـ صور أخرى من الوقوف القلبي: وهي أن يتوجه السالك إلى قلبه ويلاحظ فيه أن نظر الله تعالى محيط به من جميع الجهات ويجعل ذاته محاطة بنظره تعالى. ويستمر على تلك الملاحظة: الإستمرار على تلك الملاحظة تصغر ذاته تحت نظره حتى لا يبقى لها بالتدرج أثر في الوجود.

فعند ذلك يظهر له سر قوله تعالى: كل شيء هالك إلاّ وجهه.

ويكون فانياً عن وجوده المكاني ولا يشاهد فيه ولا في الأشياء كلها إلاّ وجود الحق تعالى فيكون واصلاً إليه تعالى.

ثم إعلم أنه لا سبيل إلى معرفة الروح بالنظر العقلي وترتيب المقدمات الفكرية بل يحتاج السالك إلى استعمال القوى البدنية العاجزة عن إدراك الأنوار المجردة التي لا سبيل إلى معرفتها إلاّ بالكشف الروحاني مع العناية الإلهية. وذلك لا يحصل إلا بقطع النظر عن الحواس الظاهرة وترك العمل بالقوى الباطنة وتجريد القلب عن الشواغل البدنية، والتوجه إلى القلب على الدوام والتفكر في الأمور المجردة الروحانية.

وبهذه الطريقة ينكشف له كنه حقيقة روحه وتحصل له معرفة نفسه وتظهر له ماهية ذاته التي هي النورانية المحضة والصفوة الصرفة لأن الروح الإنسانية أمر من الأمور الإلهية فلذا قال تعالى: الروح من أمر ربي.

بين الحال والمقام

جاء في عوارف المعارف:

الحال سمي حالاً لتحوله. والمقام سمي مقاماً لثبوته واستقراره.

وقد يكون الشيء بعينه حالاً ثم يصير مقاماً مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ثم يزول بفعلية النفس، ثم تعود ثم تزول، فلا يزال العبد هكذا إلى أن تدركه المعونة من الله تعالى وتقهر النفس وتنضبط المحاسبة. وهكذا سائر الحال والمقام.

الفصل الخامس عشر:

عقبات الطريقة ومراتب النفس

وللطريقة سبع عقبات: فلا يصل السالك إلى المقامات إلاّ بقطع صفات النفس السبعة وهي:

الأمارة واللوامة والملهمة والمطمئنة والراضية والمرضية والكاملة.

وقطع عقباتها يكون بالإذكار السبعة.

الأول: لا إله إلاّ الله ألف مرة وهو للنفس الأمّارة، وسميت بالأمّارة لأنها تأمر بالسوء على صاحبها ولون نورها أزرق.

الثاني: الله مائة مرة. وهو للنفس اللوّامة، وسميت بهذا الإسم لأنها تلوم صاحبها بعد وقوع المصيبة ولون نورها أصفر.

الثالث: هو تسعون ألفاً وهو للنفس الملهمة وسميت به لأنها تلهم صاحبها فعل الخيرات ولون نورها أحمر.

الرابع: حيّ سبعون ألف مرة وهو للنفس المطمئنة وسميت كذلك لأنها اطمأنت وسكنت من أطرابها، واسلمت للأقدار ولون نورها أبيض.

الخامس: قيوم تسعون ألف مرة وهو للنفس الراضية وسميت كذلك لكونها رضيت من الله بكل حال، ولون نورها أخضر.

السادس: رحمان خمسة وتسعون ألف مرة وهو للنفس المرضية، وسميت بهذا الإسم لكونها صارت مرضية عند الحق والخلق ولون نورها أسود.

السابع: رحيم مائة ألف مرة وهو للنفس الكاملة وسميت كذلك لكونها كَمُلَت أوصافها وصارت رحيمة لجميع الخلق، فتحب للكافر الإيمان، وللعاصي التوبة من العصيان، وللطائع الثبات على طاعة الرحمان، وليس لها نور مخصوص، فنورها يتموج بين هذه الأنوار الست، وعالمها الخيرات، ومحلها االخفي. لأنها رجعت بحسبه إلى حال العوام وسبب ذلك أنها أُمرت بالرجوع إلى الخلق لأجل تكميلهم، ولا بد من حصول النسبة بين المرشد والمسترشد قال الله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾. ومتى وصلت النفس إلى هذا المقام صارت ريحانة الله في أرضه. محبوبة لله ولخلقه وبدلت بشريتها ملكاً وعبوديتها سيادة وعقلها حساً وعيبها شهادة، وباطنها ظاهراً.

وانقطعت إلى الله الأعلى وحققت السعادة الكبرى.

وهذه المراتب والإذكار عند جميع الطرق إلاّ عند النقشبندية والشاذلية. فإنها عندهما بذكر الله في القلب واللطائف وبذكر لا إله إلاّ الله، كذلك كثرة التوجهات والمراقبات وكثرة الرياضات والخلوات كما سيجيء.

تصفية القلب

واعلم أن حقيقة تصفية القلب بطريق الذكر إنما هي بذكر إسم الذات وذكر النفي والإثبات وكيفيته في الطريق المجددي: أن يتلفظ الذاكر بلسان القلب لفظة الله لأن القلب كله لسان وكله سمع وكله بصر إذا تجرّد عن القيود. وذلك التلفظ إنما يكون بحيث لا يحرك القلب الصنوبري لأن تلفظ القلب الحقيقي الروحاني لا يحرك القلب الصنوبري، فإذا تعسّر على الذاكر التلفظ الروحاني بإسم الذات فليذكره بالقلب الصنوبري بطريق العدد. كذكره باللسان، ففائدته مثل فائدة ذكر اللسان، فإذا تمكن الذاكر في الذكر بالقلب الصنوبري يترقى بعد ذلك إلى الذكر بالقلب الحقيقي. فالذكر بالقلب الصنوبري يوصل إلى الذكر بالقلب الحقيقي، والذكر بالقلب الحقيقي يوصل إلى مرتبة المراقبة، فلذلك قيل: إن ذكر القلب هو المراقبة.

وقد ورد في فضيلة هذا الذكر حديثه بقوله(عم) الذكر الذي لا تطلّع عليه الحفظة يزيد على الذكر الذي يطلع عليه الحفظة سبعين مرة، وفيه روايات أخرى.

قال الله تعالى: وتوبوا إلى الله تعالى توبة نصوحاً.

وقال صلعم: من استغفر الله في آخر كل صلاة ثلاث مرات فقال: استغفر الله الذي لا إله إلاّ هو الحي القيوم وأتوب إليه. غُفرت ذنوبه وإن كان قد خرّ من الزحف.

أخرجه ابن السني وقال: من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له لكل مؤمن ومؤمنة حسنة.

أخرجه الطبراني وقال: من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كل يوم

سبع وعشرين مرة كان من الذين يُستجاب لهم ويرزق بهم أهل الأرض.

أخرجه الطبراني وقال: الإستغفار ممحاة الذنوب أخرجه الديلمي، ولها شروط ثلاثة وهي الندم على ما مضى من العمر في غير طاعة الله. في الإصرار على الشهوات المانعة عن التقربات إلى الله تعالى والإقلاع عن المعاصي والغفلات في الحال، والعزم على أن لا يضيع عمر أمثال تلك التبعات في الإستقبال مع الثبات على تلك النية.

مفاعيل التوبة

واعلم أن التوبة هي مفتاح كل خير وأساس كل مقام، إذ بها تنفتح أبواب جميع الأحوال، وتنكشف بها وجوه الأسرار وعليها تبنى جميع المقامات والكرامات، واعلم أن التوبة فرض عين. فمن قال ليست بفرض فقد كفر فليس من شيء أوجب على الخلق من التوبة ولا عقوبة أشد عليهم من نسيان التوبة. فلا بد من التوبة والإنابة.

قالوا لتكن همتك ثلاثاً: التوبة والتقوى والحذر وقوامها بثلاث الذكر والإستغفار والصمت، عبودية لله. وحصّن هذه المزايا بأربع: الحب والرضا والزهد والتوكل.

وقالوا: إذا فاتتك التقوى في الإستقامة فلا تفوتك في التوبة والإنابة.

وقال الشاذلي: إلقِ بنفسك على باب الرضا وانخلع عن عزائمك وإرادتك حتى تأتيك بتوبة.

قال الله تعالى:

ثم تب عليهم يتوبوا.

وقال الشاذلي: اللهم إني تبت إليك فأعني وقيّدني وقوّني وانصرني وثبتني واعصمني واسترني بين خلقك ولا تفضحني عند رسولك. فقيل لي إنك مشرك. قلت كيف. فقيل إنك خفت الفضيحة عند الخلق، وإنما تخاف أن يفضحك الله بين الناس ويكون قلبك متعلق بالله لا بالناس.

وتعلم أن أحداً منكم لا ينفعك ولا يضرك. فما دام قلبك متعلقاً بعملك وقدرتك وحبك واجتهادك فلست براج حتى تيأس من الكل متعلقاً بالرجاء في الله، في كل نفس فتجد الروح والمدد من الله.

الفصل السادس عشر:

الإستغفار وجميع شروطه

فعل الإستغفار

قالوا الإستغفار أحصن الحصون وحقيقته أن لا يكون لك مع غير الله قرار.

قال تعالى: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾[1]

وقال الشاذلي: هممت بلقاء ملك من الملائكة فعارضني ذنبي، فكلما استغفرت وتبت ضعفت. فقيل لي: قل اللهم إني أسألك الصلابة في الدين والعمل باليقين وأعوذ بك من لقاء ذنبي فإن ذلك بما يضعف قلبي واشهدني إياك بإشهادك فإنه أقوى لسري ولي، اللهم استرني بمغفرتك وارحمني برحمتك واقدرني بقدرتك وامددني بمشيئتك وعلمني علماً يوافق علمك، وهب لي حكماً يصادق حكمك واوجدني لسان الصدق في عبادك وكن لي سمعاً وبصراً ولساناً وقلباً وعقلاً ويداً ومؤيداً، واعصمني من الخطأ والذنب والطغيان والكذب في الأقوال والأحوال والأفعال والأوهام

(١) سورة الإنفصال الآية ٣٣ - ٨/٣٣

والبصائر والإختيار والخواطر والأفكار، وخفي الهواجس والهم والوسواس والفكر والقدرة والإرادة والحركات والسكنات، وفيما علمت يا عالم الخفيات، أنت وعلمك حسبي لا أسبل وا أفصل إن ربي غني كريم.

وإنما هي عبودية تجري على ما تشاء من الدعاء والسؤال والتفصيل والإجمال والأقوال والأفعال والعقود والأحوال وغير ذلك مما تكتسب وتعطي بلا كسب ولا سؤال إن ربي بكل شيء عليم، فلا بد من التوبة والإنابة لمن أراد رضاء الله ومحبته والإطلاع على علم الغيب. [ولا بد أيضاً من ترك المعاصي كلها لأن الله تعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين.

روي أن موسى (عم) سأل الخضر: بأي شيء أطلعك الله تعالى علم الغيب فقال: بترك المعاصي.

شروط التوبة

وشروط التوبة عند أهل السنّة والجماعة ثلاثة: الندم على ما سلف، والترك في الحال، والعزم على أن لا يعود إلى مثل ذلك في المستقبل.

وإن قوله (عم): الندم التوبة، فمعناه معظم أركانها أو معظم شروطها كقوله (عم) الحج العرفة. وقال البعض إنه مجر على ظاهره وإن الندم كل التوبة. والركنان الباقيان يتبعانه في الوجود لا محالة، إذا كان ندماً صادقاً.

وقال بعضهم: شروط التوبة ثمانية:

الثلاثة المذكورة [والرابع: داء مظالم الناس وحقوقهم [والخامس: قضاء ما فوّت من الواجبات [والسادس: إذابة كـ

لحم نبت من الحرام بالرياضة والمجاهدة [والسابع: صلاح المأكول والمشروب والملبوس بجعلها من جهة الحلال.

[والثامن تطهير القلب من الغل والغش والمكر والحسد وطول الأمل وغيرها.

وأما التوبة النصوحة فهي التوبة البالغة. وقيل: هو أن يتوب ولا يعود إلى ما تاب عنه أبداً.

وأما التوبة ففي اللغة الرجوع عن الذنب وكذلك التوب.

وقال الله تعالى:

غافر الذنب وقابل التوب.

وقيل: التوب جمع التوبة. والتوبة في الشرع الرجوع عن الأقوال والأفعال المذمومة إلى المحمودة. وهي واجبة على الفور عند عامة العلماء. أما الوجوب فلقوله تعالى: وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون. وأما الفورية فلما في تأخيرها من الأصرار المحرّم .

أما الإنابة فهي قريبة من الثوبة لغة وشرعاً،والثوبة عند أهل الحقيقة الندم على ما مضى والدوام على ما صفى.

وقيل الندم على ما فات وإصلاح ما هو آت.

وقيل:التوبة أن ترجع عن كلّ شيء. سوى اللّه عزّ وجلّ وتقطع كلّ علاقة بينك وبين غيره كما قال اللّه تعالى:

﴿فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً﴾.

وقال ذو النون: حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت، وتضيق عليك نفسك، وتظن أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه. والظن هنا بمعنى اليقين كما قال الله تعالى:

وعلى الثلاثة الذين خُلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم (الآية)(٢)

وسئل السري عن التوبة فقال: أن تنسى ذنبك

وسئل عنها الجنيد فقال: أن لا تنسى ذنبك وكلاهما صحيح

لأن السري أراد توبة الخواص، فإنهم لا يذكرون ذنوبهم مما غلب على قلوبهم من عظمة الله ودوام ذكره، أما الجنيد فأراد توبة العوام في ابتداء السلوك. [وقيل التوبة ثلاثة: توبة من الزلات وهي توبة العوام، وتوبة من الغفلات وهي توبة الخواص، وتوبة من رؤية الحسنات وهي توبة خواص الخواص.

وقيل من تاب خوفاً من العقاب فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعاً في الثواب فهو صاحب إنابة، ومن تاب مراعاة للأمر لا خوفاً ولا طمعاً فهو صاحب أوبة.

[وقيل: التوبة صفة المؤمنين قال الله تعالى: وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون.

[والإنابة صفة الأولياء والمقربين قال الله تعالى: «وجاء بقلب منيب». والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين. قال الله تعالى في حق أيوب (عم): نعم العبد إنه أيوب.

وأظهر الأقوال إن التوبة على قسمين: [توبة العوام وهي الرجوع عن المعاصي إلى الطاعات بترك الدنيا وطلب الآخرة والجنة ونعيمها إلى عبادة الله لذاته المقدسة فقط لا طمعاً في الثواب ولا خوفاً من العقاب.

---

(٢) سورة التوبة، الآية ١١٨ - ١١٨/٩

ولهذا كانت توبة العوام دنيا من ذنوب الخواص كما قال (عم): حسنات الأبرار سيئات المقربين.

[ثم توبة الخواص وهي على قسمين: العارفون والمقربون: فالمقربون خواص الخواص. ونسبة العارفين إلى المقربين كنسبة المبتدئين في السلوك إلى العارفين.

ثم اعلم أن القسم الأول من قسمي التوبة: (توبة العوام): هو منازل السالك من مقامات الطالبين وقد حثّ الله على التوبة بقوله إن الله يحب التوابين، وروي عن النبي (عم) قال: إذا أحب الله عبداً لم يضره بذنب ثم تلا الآية والمعنى أن الله إذا أحب العبد وفّقه للتوبة فيتوب، فلا يضره الذنب الذي صدر من قبل التوبة.

وحثّ عليه النبي (عم) بقوله: التائب من الذنب الذي صدر من قبل التوبة.

وقال: ما من شيء أحب إلى الله تعالى من شاب تاب.

الفصل السابع عشر:

معنى الأوراد والغيبة وحقيقة الإستقامة

فالأوراد تعمير الأوقات بالذكر والدعاء والسنّة والواجب والطاعات، التي هي القدرة والروحة والولجة، والقدرة للتحيل والروحة للتفضل والولجة للتوصل.

والسحر وقت المناجاة. وذكر ما بعد الصبح مفتاح الطاعات، وما بعد العصر استغفار من الواقعات والمعتدل ما عدا الفرض خمسون من أوراد الصلاة.

وأما حقيقة الإستقامة ففي اللغة ضد الإعوجاج وفي اصطلاح أهل الحقيقة هي الوفاء بالعموم كلها وملازمة الصراط المستقيم. والصراط المستقيم رعاية حد التوسط والعدل في كل الأمور من الطعام والشراب واللباس والنكاح، وكل أمر ديني ودنيوي، فذلك هو الصراط المستقيم في الدنيا كالصراط المستقيم في الآخرة.

الإستقامة

ومن اهتدى إلى معرفة صراط المستقيم في الدنيا كان سبباً لنجاته عند مروره عليه في الآخرة.

والهداية إلى المعرفة من أعظم نعم الله تعالى على العبد.

قال الله تعالى: ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وقال في حق النبي (عم): ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً.

وقيل: الإستقامة هي أن لا تختار لنفسك غير ما يختار الله تعالى لك، ولا تدبّر أمراً.

وقال الشبلي: الإستقامة هي أن تشهد الدنيا قيامة وقد مدح الله المستقيمين بقوله:

إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لم يشركوا بالله شيئاً

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لم يروغوا روغان الثعلب، أي لعبه،

فقول الصديق محمول على معناه مراعاة أصول التوحيد، وقول عمر محمول على ترك طلب التأويل، وقيل معناه: استقاموا بأفعالهم كما استقاموا بأقوالهم وأفعالهم.

قال النبي عليه السلام: استقيموا ولا تحصوا واعملوا إن أَخْير أعمالكم الصلاة.

وقال أبو علي الدقاق: الإستقامة لها ثلاثة مدارج: [أولها التقويم وهو تأديب النفس.

وثانيها الإقامة وهي تهذيب القلوب

وثالثها الإستقامة وهي تقريب الرب.

واعلم أن الإستقامة درجة بها تمام الأمر وكماله، وهي مقام لا يطيقه إلاّ الأكابر.

ويؤيد ذلك ما حُكي عن بعض المشايخ قال إنه رأى النبي عليه السلام في المنام فقال له: يا رسول الله، روي عنك أنك قلت شيبتني سورة هود فما الذي شيّبك فيها، قصص الأنبياء وهلاك الأمم. قال: لا ولكن قوله تعالى: فاستقم كما أمرت.

وقيل إن الإستقامة توجب دوام الكرامة، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿وألّوِ استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا﴾[1]

الغيبة

وأما الغيبة فقال الله تعالى: أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً. فأوحى الله تعالى إلى موسى (عم) من مات وهو تائب من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات وهو مصر عليها فهو أول من يدخل النار.

وقيل ومَثَلُ الذين يغتابون الناس كمثل من نصب منجنيقاً يرمي به حسناته شرقاً وغرباً.

وقيل يعطى الرجل كتابه فيرى فيه حسنات لم يعملها فيقال: هذا بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر.

وسئل القوري عن قوله عم من بغض أهل البيت للحمين فقال: هم الذين يغتابون الناس ويأكلون لحومهم.

وذكرت الغيبة عند عبد الله بن المبارك فقال: لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت والديّ لأنهما أحق الناس بحسناتي

وقيل للحسن البصري فلاناً اغتابك فأرسل إليه طبق حلوى وقال: بلغني أنك أهديت إليّ حسناتك فكافئتك بقدر الإمكان.

---

(١) سورة الجن، الآية ١٦ - ١٦/٧٢

وقال عليه السلام: من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له.

وقال عليه السلام: ليس للفاسق غيبة

وقال الجنيد رأيت فقيراً عليه العياء وهو يسأل فقلت في نفسي لو أن هذا عمل عملاً يصون به وجهه لكان أحب إليه، فلما انصرفت إلى بيتي وشرعت في وردي ثقل عليّ جميع أنواعه فنمت عنها،فرأيت ذلك الفقير وقد جيء به على خوان وقيل لي كل لحمة فقد أغتبته فقلت إنما قلت ذلك في نفسي فقيل لي بمثلك لا يليق به ذلك فاستحله، فلما أصحيت ذهبت ولم أزل أطوف حتى وجدته في موضع يتلفظ في كناسة البقالين في النهر عروقاً من البقل، فسلمت عليه فقال لي: يا أبا اقاسم تعود، فقلت لا فقال غفر الله لنا ولك الحمد وفيه أحاديث لا تحصى.

الفصل الثامن عشر:

الطهارة والأخلاق والحسد ولأمل

الطهارة:

هي في اللغة عبارة عن النظافة وفي الشرع عن غسل أعضاء مخصوص بصفة مخصوص. وعند الصوفية: عصمة الله من المخالفات وهو على أنواع:

طاهر الظاهر: فهو من عصمة الله تعالى عن المعاصي

طاهر الباطن: فهو من عصمة الله تعالى من الوسواس والهواجس

طاهر السر: فهو من لا يزيل عن الله تعالى طرفة عين

طاهر السر والعلانية: هو من قام بتوفيق حقوق الحق والخلق جميعاً لسعته برعاية الجانبين

وفي رسالة الخادمي والشرط السابع: الإجتناب عن الملكيات الذميمة والصفات النفسانية والرزيلة، وفي شرحه لها يقول:

هي العقائد الفاسدة وارتكاب المعاصي، وترك التوبة والجهل عن العرائض والواجبات والسنن، والبطالة عن العمل، والعجب والكبر

والحسد والعداوة وحب الرياسة والرياء والسمعة والمفاخرة والخيلاء والمباهات والمكر والحيلة والخيانة والمداهنة والبخل والحرص والطمع والميل مع الهوى عند كل شهوة من المحرمات والمباحات وسماعي الملاهي، وشهود المنكر واللعن والقذف والسب والشتم والغيبة والنميمة والكذب والبهتان وشهادة الزور والسخرة والتحقير والغضب والسخط واللمز والهمز والغمز والبغض والمقاطعة والجدال والمراء والإمتحان والهلع والجزع والشر والبطر والإستهزاء والعنف والبغي والظلم وحب الدنيا والإسراف والفرح والمرح والمزاح والتزيّن والمصانعة وحب الفتن وحب الفواحش والتسويف والتمني وطول الأمل والتدمير وقلة الحياء والجبن وعدم الغيرة والغل والغش، وهذه الصفات الذميمة كلها نجسات معنوية لا يمكن التقرب بهاإلى حضرة القدس الإلهية.

[كما لا يمكن التقرب بالنجاسات الصورية في العبادات الإلهية.

[فلا بدّ للسالك أن يزكي نفسه في جميعها بالإجتناب عنها حتى ينال الفوز والفلاح عند الله كما قال الله تعالى: قد أفلح من زكّيها.

الصمت:

وأما الصمت فقال الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً

وقال عليه السلام: البلاء مؤكل بالمنطق

وقال عليه السلام: إن أكثر خطأ ابن آدم في لسانه

وقال عليه السلام: من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به.

وقال عم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً وليصمت.

وقال عم: رحم الله امرىء سكت وسلم أو قال خيراً فغنم

وقال عم: من صمت نجا

وقيل لرسول الله (عم): ما النجاة فقال: إحفظ عليك لسانك وليسعك بيتك وابكِ على خطيئتك.

وقال أهل الحقيقة: الصمت سلامة وهو والنطق عارض، واختلف الناس في تفضيل أحدهما على الآخر. والأصح أن كل واحد منهما أفضل من الآخر في بعض المواضع ولكن الموقف هو من يعرف موضع الصمت وموضع النطق.

وقال بشر الحافي: إذا أعجبك الكلام فاسكت فإذا أعجبك السكوت فتكلم.

وقال لقمان لأبيه: لو كان النطق فضّة لكان الصمت ذهباً. ولقد ندمت على الكلام مراراً ولم أندم على السكوت مرة واحدة.

وقال أبو على الدقاق: من صمت عن الحق فهو شيطان أخرس.

واعلم أن الصمت على نوعين صمت العام وهو امساك اللسان كفاً عن الكذب والغيب.

وصمت الخاص وهو إمساك اللسان لاستيلاء سلطان الهيبة. وذلك الصمت هو من آداب الحضرة. وينقسم الصمت على قسمين: صمت العوام وهو كف باللسان وحده وصمت الخواص

وهو كف اللسان والقلب، فالمتكل صمت قلبه عن طلب الرزق والراضي صمت قلبه عن حركة الإعتراض.

سئل أبو بكر الفارسي عن صمت القلب فقال: ترك الفكر في الماضي والمستقبل، وقد يكون سبب الفكر الحيرة، بسبب ورود الكشف بغتة فتخرس العبادة عند ذلك ويكل النطق هناك.

فلا علم ولا حس ولا نطق ولا فهم. وقد آثر أرباب المجاهدة السكوت لما رأوا في الكلام من الآفات وحظ النفس وإظهار صفة المدح وميل الإنسان بالطبع إلى أن تميز بين أشكاله بحسن الظن.

وروى عن داود الطائي أن سبب توبته أنه كان يجالس أباحنيفة(رضي) فقال له: أبوح يوماً يا أبا سليمان. أما الأداة فقد أحكمناها (أي العلم). فقال له داود: وأي شيء بقي فقال داود فنازعتني نفسي إلى العزلة فقلت لا أعتزل حتى أجالسهم سنة ولا أتكلم في مسألة، فجالسهم سنة ولم يتكلم في مسألة. قال: وكانت المسألة تمر بي وأنا إلى الكلام فيها أشد شوقاً من العطشان إلى الماء ولا أتكلم.

وكان عمر بن عبد العزيز إذا كتب كتاباً وأعجب مزّقه وكتب غيره. قيل: إذا نطق العبد فيما يعنيه وفي ما لا بد منه فهو صامت.

قيل: إن أبا بكر الصديق أمسك في فمه حجراً كذا وكذا سنة ليقل كلامه.

وقيل: إن حمزة البغدادي كان حسن الكلام فهتف به هاتف: تكلمت فأحسنت بقي أن تسكت فتحسّن. فما تكلم بعد ذلك حتى مات، وربما يقع السكوت على الإنسان تأديباً له لأنه قد يكون أساء الأدب في شيء من كلامه، فيكون في المجلس من هو أحق منه بالكلام أو يكون في المجلس من الأنس والجن لا يكون

أهلاً لإسماع ذلك الكلام فيصونه الله تعالى عنه بإسكات ذلك الشخص.

وقال بعض الحكماء: إنما خلق للإنسان لسان واحد وعينان وأذنان ليبصر ويسمع أكثر مما يقول.

وقيل: لسان الإنسان مثل السبع إن لم تحبسه اعتدى عليك.

وقيل: العارف إذا سكت ملك والمحب إذا سكت هلك.

الحسد

إعلم أن الحسد حرام مذموم

قال الله تعالى: ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾[1].

ختم السورة التي جعلها للتعوذ من الحسد

وقال (عم): ثلاث هنّ أصل كل خطيئة فاتقوهن واحذروهن: الكبر: فإنه منع إبليس عن السجود لآدم. والحرص فإنه حمل آدم على أكل الشجرة، والحسد فإنه حمل قابيل على قتل هابيل.

وقيل: الحسود لا يسود

وقيل: الحاسد جاحد لأنه لا يرض بقضاء الواحد

وقيل في قوله تعالى: إنما حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطر، بأنه الحسد

وقيل: اتق الحسد فإنه يؤثر فيك قبل أن يؤثر في المحسود

وقال الأصمعي: رأيت أعرابياً له مائة وعشرون سنة فقلت له: ما أطول عمرك قال: تركت الحسد فبقيت.

---

(١) سورة الفلق، الآية ٥ - ١١٣/٥

قيل: إذا أردت أن تسلم من الحسد فليس عليه أمرك.

وقيل: إنه جميع الآفات.

الأمل

وأما الأمل فاعلم أن الأمل هو الرجاء ويعلو القلب بالبقاء، فمن طال أمله اشتغل بالجمع والتحصيل وغفل عن الموت وتركه نسياً منسياً حتى يصير كمن أيقن أنه يبقى إلى أقصى أوقات الآجال.

وقال (عم): يشيب ابن آدم وتشبّ فيه خصلتان: الحرص وطول الأمل.

وقال (عم): إن أخوف ما أخاف على أمتي الهوى وطول الأمل. أما الهوى فيصد عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة.

وقال: الكيّس من دان نفسه وعمل بعد الموت، والعاجز من اتبع هواه وتمنى على الله.

واعلم أن قصر الأمل من أعظم السعادات فيطهر القلب من كل شيء ويرفع الدرجات والأجر.

الفصل التاسع عشر:

حسن الخلق وعلامته وأنواعه وتفاصيله

وأما تفصيل الأخلاق الحميدة فمذكور في كتابنا جامع المتون في بحث الحرام المجمع عليها وهي قريبة من ألف.

فهو كالحلم والعلم والتواضع والرأفة واللينة والبشاشة والعذوبة في الصحبة والعفو والإحسان سيما لمن ظلمه، والوصلة سيما لمن قطعه، والرحمة سيما على الضعفاء وتوقير المشايخ، وخدمة الأخوان سيما للصلحاء، والعقائد الصحيحة، والتوبة والإعراض عن المعصية والندم على فعلها، والحياء من الله، والإنابة إليه والطاعة والصبر والورع والزهد والقناعة والرضا والشكر والثناء وصدق الحديث والوفاء وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ حق الجوار وإطعام الطعام وبذل السلام وحسن الكلام والعمل، وحب الآخرة، والبغض على الدنيا، والجزع من الحساب وحفظ الجناح وكف الأذى واحتمال البلاء ومراقبة الحق والإعراض عن الخلق وطمأنينة القلب، وكسر النفس عن هواها، وقواها وهجرها عن لذاتها وشهواتها، والخوف والرجاء والجود والصفح والتجاوز والمودة والغيرة والمواساة، والمداراة والإيثار والنصيحة والصفوة

والإحتساب، والتسليم والتوكل والشجاعة والهمة، والفتوة والمروة ومحبة الله وأنبيائه وأوليائه والمؤمنين لله كافة، ورجاء الوصول إلى الله، وخوف الفراق منه والتأدب والتعقل والتفقّه في القرآن والإلتجاء إلى الله تعالى والإخلاص في كل حال.

فلا بد للسالك أن يكابد ويجاهد نفسه حتى يتخلق بهذه الأخلاق الحميدة، وإذا تخلق بها تقرّب إلى الله ورسوله وتحصل له السعادة في الدارين.

الخلق

وأما الخلق في اللغة بضم للام وسكونها. في الطبيعة وفي اصطلاح أهل الحقيقة هو ما اختاره الله تعالى لنبيّه في قوله: خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين.

وقيل: هو قضاء الحق وقبول ما يرد عليه من جفاء الخلق بلا قلق ولا اضطراب ولاضجر.

وقيل: هو استقلال ما منك واستكثار ما إليك.

وقيل: هو احتمال المكروه بحسن المداراة.

وقيل: هو كف الأذى واحتماله من الجنس وغير الجنس.

وقيل: الخلق أفضل مناقب العبودية به يظهر جواهر الرجال والإنسان مستور بخُلقه مشهور بخلقه. وقد خلق الله نبينا بما خصّه من الصفات الشريفة، ثم لم يُثنِ عليه بشيء من صفاته كما أثنى عليه بالخُلق فقال:

وإنك لعلى خلق عظيم.

وقيل: إنما وصفه بالخلق لأنه جاد بالكونين واكتفى بالله.

وقيل: لأنه لم يكن له هم إلا الله

وقيل في قوله تعالى: ﴿واسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة﴾[1] أما الظاهرة فتسوية الخلق وهو قوله وإذا سويته، والباطنة تسوية الخُلق.

وقال النبي (عم) إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجات الصائم والقائم.

وقال (عم): إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم بل تسعوهم ببسط الوجه والخلق لحسن.

وقال: أفضل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلقاً.

وقال: خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخُلق

وقيل: كان ابن عمر إذا رأى أحداً من عبيده يحسن الصلاة يعتقه. فعرفوا ذلك من خلقه وكانوا يحسنون وكان يعتقهم.

وقال ذو النون: أكثر الناس هماً أسوأهم خُلقاً

وقيل: السيء يضيق صاحبه لأنه لا يدعه يسع غير مراده.

وقيل: من علامات حسن الخلق أن يتأثر الإنسان ممن يقف في الصف إلى جانبه ولا ممن يجلس أعلى منه في المجلس، ومن علامات سوء الخلق وقوع البصر على سوء خُلق الغير

وقال: المحاسن بثلاثة أشياء عزيزة أو معدومة: حسن الخلق مع الصيانة وحسن الخلق مع الديانة وحسن الخلق مع الأمانة.

وقال بعضهم: التصوف خلق فمن زاد عليه زاد في التصوف

وقال وهب: ما تخلق عبد بخلق أربعين صباحاً إلاّ جعل الله ذلك طبيعة له.

---

(١) سورة لقمان، الآية ٢٠ - ٣١/٢٠

وقيل للأحنف: ممن تعلمت الحلم فقال من قيس بن عاصم: كنت جالساً عنده فجاءت جارية له بسفود عليه شواء حار سقط من يدها على ابن له فمات. فذُهشت الجارية من ذلك فقال: لا روعة عليك، أنت حرة لوجه الله.

وقيل لابراهيم بن أدهم: هل فرحت في الدنيا. قال: مرتين: مرة كنت قاعداً فجاء إنسان وبال عليّ ومرة كنت قاعداً فجاء إنسان وضعني.

وحكي عنه أنه كان في بعض البراري فمرّ به جندي وقال: أين العمارة فأشار ابراهيم إلى المقابر فضرب الجندي رأسه فكسره لظنه أنه استهزاء، ثم ترك ومضى. وقيل له بعد ذلك أنه ابراهيم بن أدهم زاهد خرسان، فعاد إليه يعتذر فقال ابراهيم: إنك لما ضربتني سألت الجنة لك. فقال له الجندي: ولمَ ذلك. فقال: لأنك سقت إليّ ثواباً بضربك لي فما رضيت أن يكون نصيبي منك الخير ونصيبك مني الشر. وقيل لحاتم الأصم: حسن الخلق أن يحتمل الرجل من كل أحد. فقال: نعم: لا من نفسه. وقال لقمان لأبنه: ثلاثة لا تعرف إلاّ ثلاثة: الحلم عند الغضب والشجاعة عند الحرب، والصداقة عند الحاجة.

وكان لبعضهم غلام سوء، فقيل: لمَ تمسكه ولا تبيعه. فقال: لأتعلّم عليه الحلم.

وحكي أن رجلاً دعا أبي عثمان الحبري فلما وصل معه إلى باب الدار قال: يا شيخ إرجع فإني قد ندمت على طلبك. فرجع الشيخ. فلما وصل باب داره جاء ذلك الرجل وقال له: يا سيدي إرجع فقد ندمت على ردك فرجع معه، فلما وصل باب داره ردّه. وهكذا ردّه وطلب فرجع أربعاً أو خمساً حتى قال في الأخير: والله

يا سيدي ماقصدت لاختيارك فلله درُّ خُلقك ما أحسنه. فقال الشيخ: لا تمد حتى بخُلق يوجد في الكلب فإنه إذا دُعي أقبل وإذا طُرد انصرف.

وقيل: إنه مرّ يوماً في بعض المحال وألقي عليه رماداً من بعض البيوت فغضب أصحابه وبسطوا ألسنتهم بالقول لهم: لا تغضبوا بالقول فإن من استحق النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب.

وروي أنه نزل بعض الفقراء على جعفر بن حنظلة ولم يكن يعرفه وكان جعفر يبالغ في خدمته والفقير يقول له كل ساعة: نعم الرجل أنت لو لم تكن يهودياً، وجعفر يقول له: عقيدتي لا تضرك فيما تحتاج إليه من خدمتي. فاسأل الله لنفسك الشفاء ولي الهداية. ولم يعرفه بنفسه.

فعليك أيها المريد بترك حظوظ نفسك من كل شيء تتنازع فيه أبناء الدنيا التي هي من الجيفة قد تسلم لبعض الكلاب ممن ينازعه فيها بخلاف الدنيا، فإنها لا تسلم لأحد عن المنازع، فكم من نفوس فنيت في حبها وأديان ذهبت في طلبها، فمن بغضها وترك حظوظه منها سلم من غائلة الحسد والمنازعة التي هي أصل كل داء وبلاء وفساد ومكر وغم ووهم وفتنة.

الفصل العشرون

التزام الطريق وحقيقة الصحبة وركنها

قال السيد الشريف: القرب هو القيام بالطاعة. والقرب، المصطلح، هو قرب العبد من الله تعالى لا قرب الحق من العبد. وهو من حيث دلالته وهو معكم أينما كنتم، قرب عام سواء كان العبد سعيداً أو شقياً.

وقد يثبته الحق سبحانه بالتزام أصل الطريقة، من طلب مطلوب واحد، متخطياً كل ما يأتي إليه من صور الأكوان وحقائق الكشف، مغضباً عنه، متوجهاً إلى ما هو فيه. غير أنه لا يخرج من موقف حتى يبدو له ما هو مقصود باعتبار وقته، وهو في كل ذلك خائف من مقته.

وبالجملة فكل مورد له فيه تنزلات ومدامات كلهاخارجة عن مقصوده، وإن كانت مصحوبة يكشف له ذلك منها عند فراغ مدده المودع فيها حتى إذا انتهى لطور القلب خوطبت عوالمه اللطيفة بالأشياء على السبيل بنوع من الإلهام.

الصحبة

وأما حقيقة الصحبة والتكلم ففي اللغة بمعنى واحد، وهي عند

أهل الحقيقة على ثلاثة أقسام:

صحبته مع من فوقك وفي الحقيقة خدمة.

وصحبته مع من دونك وهي تقتضي رحمة من المتبوع وشفقة عليه. وتوجب على التابع الوفاء والحرمة وصحبة الأكفاء والنظراء وهي مبنية على الإيثار والفتوة.

فمن صحب شيخاً فوقه في المرتبة فأدبه ترك الإعتراض ظاهراً وباطناً وحمل ما يبدو منه على وجه جميل.

ومن صحب مثله فسبيله التعامي عن عيوبه وتأويل ما ينكر منه بأحسن التأويلات مهما أمكن فإنه لم يجد له وجهاً عاد إلى نفسه بالتهمة واللوم.

وقال أبو أحمد القلانسي وكان من مشايخ الجنيد لقيت أقواماً فأكرموني فقلت لبعضهم مرة: أين أزراري. فسقطت عن أعينهم. والمعنى أن الصحبة إذا خلصت لم يبق منها شيء يختص أحدهما حتى يضيفه إلى نفسه. ولهذا قال ابراهيم بن شيبان: كنا لا نصحب من يقول فعلي. [وقال رجل لسهل بن عبد الله: أريد أن أصحبك فقال: وإذا مات أحدنا فمن لصحبة الباقي منا. فقال: الله. قال سهل: فلنصحبه الآن.

ومثله ما روي أن رجلاً سأل ذا النون: لمن يصحب. فقال: أصحب من لا تكتمه شيئاً بعلمه الله منك.

وفي رواية أخرى عنه: أصحب من إذا مرضت عادك، وإذا ذهبت تاب عليك.

وقال ذا النون: الصحبة مع الله بالموافقة ومع الخلق بالمناصفة ومع النفس بالمخالفة ومع الشيطان بالعداوة.

وكان ابراهيم بن أدهم إذا صحبه إنسان شرط عليه ثلاثاً: أن تكون الخدمة والآذان على ابراهيم وإن لا يختص عليه بشيء من الدنيا.

وقيل: كل صاحب تقول له قم فيقول: اين. فليس بصاحب. وينشدّ إذا استنجدوا. لا يسأل من دعاه إلى أين.

واعلم أن ركن الصحبة شيء واحد هو أن يقصد كل واحد منهما أن يكون الربح مع الآخر في كل حال.

ويتفرع من ذلك: النصح والشفقة والإيثار والجود بالنفس والمال، إلى غير ذلك. لما أثبت الله تعالى للصديق (رضي) حق الصحبة مع النبي (عم) بيّن النبي عليه السلام بقوله: لا تحزن إن الله معنا.

حكي عن الرباطي قال: صحبت عبد الله المروي وكان عادته أن يدخل البادية بلا زاد فلما صحبته خيرني أن يكون أميراً أو مأموراً فاخترت أن أكون مأموراً. ثم دخلنا البادية بلا زاد فأخذنا المطر ليلة فوقف إلى الصباح على رأسي وعليه كساء يمنع به عني المطر. وكلما سألته أن يقعد قال لي: أنا الأمير وعليك الطاعة. فما زلت أقول طوال ليلي: ليتني لم أفوّض إليه الإمارة. ولم نزل نجد في تلك السفرة. ثم قال لي عند مفارقته: إذا أصحبت أحداً فاصحبه كمارأيت صحبتك لي.

واعلم أن الداعي للصحبة بين اثنين: وجود الجنسية والنسبة. فلا يصحب شخص لآخر إلاّ لوجود النسبة بينهما، أي أن الحالة موجودة في كل منهما.

قال الشاذلي: لا تصحب من يؤثرك نفسه عليك فإنه لئيم، ولا من يؤثر على نفسه فإنه لا يدوم. واصحب من إذا ذكر الله فالله

ينوب عنه إذا فقد ويفنى به إذا شهد، وليكن قصدك الله وحب الموت مع كل قدم، ولا تطيل أملك ولا تصحب من يغير هذا الوصف، وإن صحبته فلا تعوّل عليه وارفضه بأول قدم، وعامله بالمعروف مدة الصحبة.

وقال: الصحبة مع الله تؤدي إلى رفض الشهوات والمشيئات، فيصل العبد إليه ولا يبقى معه لا شهوة ولا مشيئة.

الفصل الواحد والعشرون:

طريق النفي والإثبات والسلسلة النقشبندية

وأما الطريق الثاني عند النقشبندية: طريق النفي والإثبات وتفصيلها على ما في الاعتبارات، ومن يستعد لتقديم الجذبة لكونه من أهل الجذبة والعشق، فله الأول أي بإسمه الذات لأنه غير محتاج إلى النفي والإثبات.

ومن يستعد للتقدم للسلوك لكونه من أهل السلوك: تقيّده وتعلّقه بالسوي فله الثاني أي بالنفي والإثبات «لا إله إلاّ الله» بالقلب والتخلص وكيفيته: أن يلصق الذاكر لسانه في سقف الحلق ويضع الأسنان كما في الأول. ثم يحبس النفس بعد أخذه في الجوف أو تحت السرة ويبتدىء بكلمة، لا بالتخيل، من تحت السرة، ويمدها حتى ينتهي بها إلى الدماغ في الرأس، ويبتدىء بعدها بهمزة (إله) من الدماغ بالتخيل وينزل بها حتى ينتهي إلى كتفه الأيمن، ويبتدىء بهمزة (لا إله) بالتخيل من الكتف الأيمن ويمدها بالنزول إلى كرسي الصدر حتى ينتهي إلى القلب الصنوبري في الجانب الأيسر تحت عظام الجنب والضلع. فيضرب الجلالة بقوة النفس المحبوسة على سويداء القلب حتى يتأثر بحرارته جميع

البدن. بحيث تحترق جميع الأجزاء الفاسدة في البدن، ويتنور ما في البدن، من الأجزاء الصالحة، بنور الجلالة، فيحيط على أمكنة اللطائف كلها، ويلاحظ معنى التهليل، فإن المقصود هو الله.

ومن كلمة النفي ينفي جميع وجود المحدثات عن النظر والإعتبار وينظرها نظرة الفناء ومن كلمة الإثبات يثبت في قلبه ونظره ذات الحق تعالى وينظر وجود ذات الحق نظره البقاء وفي آخرها عند الوقوف على عدد الوتر يقول: محمد رسول الله، ويأخذ من القلب إلى الجانب الأيمن ويريد بها كمال الأتباع به، والمحبة له (صلعم)، ويطلق النفس عند الإحتياج إليه على الوتر ويقول باللسان: اللهم أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، ومن خاصية هذا الكلام تأكيد معنى التوحيد وحفظ القلب ودفع التفرقة عنه، ويكون ذلك الذكر كله بحيث لا يظهر على التفرقة عنه. ويكون ذلكالذكر كله بحيث لا يظهر على ظاهره حركة في أعضائه، ولا يشعر به من كان في قربه لأنه الذكر الخفي.

الإنتقال

قال التستري: من انتقل من نفس إلى نفس أخرى من غير ذكر فقد ضيّع حاله. فإذا وصل عد الوتر إلى أحد وعشرين تظهر النتيجة من الذهول عن وجود البشرية والإستهلاك في الجذبة الإلهية الذاتية وهما إنما يحصل من انتفاع المنفي. أي الماسوي، وإثبات المثبت أي الحق، يعني في حال النفي، ينفي عنك وجود البشرية والخواطر اللونية، وفي حال الإثبات يظهر فيك أثر تصرفات الجذبة الإلهية، والأثر متفاوت بحسب الإستعداد، وهو ما أعطاه الله أرواح عباده قبل تعلقها بالأبدان من القرب الثاني الأزلي.

فبعضهم أول ما يحصل له الغيبة عما سوى الله تعالى.

وبعد ذلك يتحقق له وجود العدم، وهو انتفاء وجود البشرية، وبعده يتشرب بالفناء، وبالإستهلاك في الجذبة الإلهية. وإن لم تظهر النتيجة عند ذلك العدد فإنما هو من القصور في الشرط، وهو صدق الإرادة والرابطة للشيخ والمتابعة بأمر الشيخ والتسليم إليه في جميع الأمور وسلب الإختيار عند اختيار الشيخ وطلب رضاه في كل حال.

فبرعاية هذه الشروط يتوارد الفيض الإلهي من باطن الشيخ إلى باطن المريد على طريق الفيض والإمداد، فلا بد أن يراعي شروطه ليطابق الفعل والقول على مضمون الذكر عملاً واعتقاداً واتباعاً. [فإنه إن بقيت المقصودية الغيرية في شيء من عمل واعتقاد واتباع ولم يوجد الأتباع، لزم الكذب في قوله: لا إله إلاّ الله. كما قال (عم): من قال لا إله إلاّ الله ولم يعمل بمقتضاها.

قال الله تعالى: كذبت يا عبدي لِمَ تقول ما لا تفعل؟

فليستأنف المجاهدة ويبدأ الذكر من أول الأمر مع المجاهدة في مراعاة الشروط والآداب وتجديد العهد مع الشيخ، فإن كلمة الإيمان أي لا إله إلاّ الله لا بد للذاكر من تطبيقها مع جميع الروابط والتعلقات في جميع الأعمال والاعتقادات.

فإن وجد مقصودية الغير وعدم التبعية لزم أن لا يكون صادقاً في ذكره، لأن معناها: لا مقصود إلاّ الله.

ومن جملة الأتباع طلب الحلال ومحبة الصديقين.

وليراع في جانب النفي بنفي لوازم البشرية من حب الدنيا والهوى والشهوات وغيرها، وفي جانب الإثبات بإثبات أحدية الذات، وفي ضمن دوام الحضور وكمال الأتباع معنى دوم العبودية. [والنسبة: الجامع القرب والمعارف كلها.

سلسلة النقشبندية

إعلم أن هذا الفقير البالغ في التقصير قد تشرف بأخذ الطريق النقشبندية قدّس الله اسرار طائفتها على الشيخ وهو أعلم زمانه وفريد دهره، سيد الأولياء الحاج أحمد بن سليمان الطرابلسي قدّس سره.

وهو قد أخذ بعد تكميل العلوم والكمال عن معدن الأسرار والحقيقة، قطب دائرة الإرشاد، غوث الثقلين، ورحلة الأبدال والأوتاد، ذي الجناحين المستضيء من الكتاب والسنّة بمصباحين، السائر في الله، الخاشع المجاهد حضرة مولانا ضياء الدين محمد خالد النقشبندي قدّس سره.

وهو قد أخذ بعد تكميل العلوم وتمام العقول والمنقول ووالفروع والأصول يشد الرحل وقطع مسافة نحو سنة إلى دار سلطنة الهند، بلده «دهلي» المعروفة بجهان آباد، عمن هو فيها قطب الأولياء، جامع الكمال الصوري والمعنوي الشيخ عبد الله شاه الدهلوي قدّس سره.

عن المعلى المزكى، المصفى، المطهر، شمس الدين حبيب الله جان جانان المظهر قدّس سره.

عن المشرف بالتجلي الذاتي والصفاتي والشؤوني السيد نور محمد البدواني قدّس سره. عن السمتغرق في لجّة بحر حق اليقين سلطان الأولياء الشيخ سيف الدين قدسّ سره عن شيخه ووالده مظهر النور، أمين السر المكتوم شيخ المشايخ العروة الوثقى محمد المعصوم قدّس سره.

عن شيخه ووالده مظهر العجائب ومنبع الأسرار والمعاني الشيخ

أحمد الفاروقي السرهندي المعروف بالإمام الرباني مجدد الألف الثاني قدّس سره.

عن القطب الذي لصهباء الحب الذاتي، وهو الساقي، مؤيد الدين الرضا الشيخ محمد الباقي قدس سره.

عن الموالي الكريم السني مولانا خواجكي السمر قندي الأكلني قدس سره

عن شيخه ووالده المكرم المجد شيخ المشايخ مولانا الدرويش محمد قدس سره

عن شيخه وخاله الراكع الساجد شيخ المشايخ مولانا محمد الزاهد قدس سره

عن مروج الدين ومقوي السرب الطقشبندي قطب الأولياء المعروف بخواجة أحرار الشيخ عُبيد الله السمرقندي قدس سره

عن المورد لتواتر عنايات الباري مولانا يعقوب الجرخي الحصاري قدس سره.

عن مفتاح خزائن الأسرار قطب الأقطاب الشيخ محمد البخاري المعروف بعلاء الدين العطار قدس سره

عن إمام الطريقة وغوث الخليقة ذي الفيض الجاري والنور الساري المعروف بشاه نقشبند بهاء الدين محمد البخاري الأويسي قدس سره وأعم برّه.

عن منبع المعارف والكمال رئيس السادات سيد أمير كلال قدس سره

عن المقبل على الله ولما سواه قطب الأتقياء الشيخ بابا السماسي قدس سره

عن الواله في محبة مولاه الغني المعروف بحضرة عزيزان علي الرامتني قدس سره

عن المعرض عن المراد الدنيوي والآخروي شيخ المشايخ محمود الأنجير فغنوي قدس سره.

عن المتسلق عن الحجاب البشري قطب الأصفياء الشيخ العارف الريوكوري قدس سره.

عن القطب الرباني غوث الخلائق عبد الخالق الغجدواني قدس سره.

عن الغوث الصمداني الشيخ يوسف الهمداني قدس سره

عن النشواني من رحيق الحب الغني قطب الواصلين أبي على الفارمدي قدس سره.

عن المحبوب السبحاني غوث السالكين أبي الحسن الخرقاني قدس سره.

عن المؤيد بالتأييد الإلهي صاحب الإلهامي سلطان العارفين أبي بايزيد البسطامي قدس سره.

عن إمام الإئمة الذي هو بالحق ناطق الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه.

عن والد أمه أحد الفقهاء السبعة الإمام الهمام المؤيد بالتوفيق قاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

عن الصحابي الغريب المعدود من آل بيت الرسول سلمان الفارسي المكرم المقبول رضي الله عنه عن أفضل الإئمة على التحقيق خليفة رسول الله (صلعم) وصاحبه في الغار ومعينه الدائم ووزيره المكرم أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

عن منبع الصدق والصفاء أفضل الخلائق محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وتسمى هذه السلسلة سلسلة الذهب.

واعلم أن النقشبندي قد أخذ أيضاً عن روحانية الفجدواني إلى آخر النسبة.

والفارمدي أيضاً عن الشيخ أبي القاسم الكركاني عن الشيخ أبي عثمان الغربي عن الشيخ أبي علي الكاتب، عن الشيخ أبي على الروزباري عن الشيخ أبي القاسم الجنيدي البغدادي عن سرى السقطي عن معروف الكرخي عن الإمام على الرضا. عن والده الإمام موسى الكاظم عن والده الإمام جعفر الصادق عن والده الإمام محمد الباقر عن والده الإمام على زين العابدين عن والده الإمام الحسين (رضي) عن والده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عن سيد المرسلين محمد (صلعم).

والكرخي أيضاً عن داود الطائي عن حبيب العجمي عن حسن البصري عن علي بن أبي طالب عن سيد الكونين وعلي أيضاً عن الصديق الأعظم عن النبي (عم) رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

كما ذكره محمد پارسا في قدسيته.

انتساب المريد

وقال العارف عبد الوهاب الشعراني في المدارج. اعلم أيها الطالب المريد، من لم يعلم أباءه وأجداده في الطريق فهو أعمى وربما انتسب إلى غير أبيه فيدخل في قوله (صلعم): لعن الله من انتسب إلى غير أبيه.

وقال سيدي عمر بن الفارض:

نسب أقرب في شرع الهوى بيننا من نسب من أبواب.

وذلك لأن الروح الصق بك من حقيقتك، فأبو الروح يليك وأبو الجسم بعده فكان بتلك أحق أن ينسب إليه دون أبي الجسم، وقد درج السلف الصالح كلهم على تعليم المريدين آداب آبائهم ومعرفة أنسبائهم، وأجمعوا كلهم على أن من لم يصح له نسب القوم فهو لقيط في الطريق لا أب له ولا يجوز له التصدر والجلوس لإرشاد المريدين إلا بعد أخذه آداب الطريق من شيخ كامل مجمع على جلالته وخبرته بالطريق ثم يؤذن له صريحاً بأن يرشد ويلقن ويلبس الخرقة على شروط ما كان عليه السلف رضي الله عنهم أجمعين.

أهمية السلسلة في التلقين

واعلم يا أخي أن السر في التلقين إنما هو لارتباط القلوب بعضها إلى بعض إلى رسول الله (صلعم) إلى حضرة الله عز وجل. [وأقل ما يحصل للمريدين إذا دخل في سلسلة القدم بالتلقين أن يكون إذا حرّك السلسلة تجاوبه أرواح الأولياء من شيخه إلى رسول الله (صلعم) إلى حضرة الله عزّ وجلّ.

فمن يدخل في طريقهم بذلك فهو غير معدود منهم ولا يجيبه أحد إذا حرّك السلسلة.

واعلم أن شيخنا قدس سره مأذون ومخلف بالخلافة التامة المطلقية من قبل شيخه المأذون كذلك. وهكذا إلى جمع الطرائق أفضل الخلائق، قطب العالم سيدنا محمد (صلعم) ببقية الطرائق الأربعة:

القادرية والسهروردية والكبروية والجشتية، وزاد شيخنا أربعين طريقة كما عرّفت في أول الكتاب، ولولا خوف الإطالة لذكرنا سلاسلها مفصلة كاملة.

الفصل الثاني والعشرون:

التوحيد ودوام العبودية

إعلم أن كلمة التوحيد إنما هي إسم واحد تنزلت في مراتب الوجود الإمكاني نفياً وإثباتاً ليمسح بالنفي غبار وجود البشرية الإمكاني عن وجه أحدية الذات الإلهية، ويظهر بالإثبات أنوار وجود الأحادية في الكائنات. [فلذلك لا بد لمن ذكر كلمة التوحيد أن يلاحظ في طرف النفي نفي وجود البشرية، وفي طرف الإثبات إظهار أنوار وجود الذات الأحدية، وفي ضمن دوام الحضور وكمال الإثبات يحصل معنى دوام العبودية على طريق الإستهلاك.

دوام العبودية

إعلم أن دوام العبودية على طريق الإستهلاك مشاهدة أنوار وجود الأحدية ـ الذات الإلهية ـ على الدوام مع أداء حق العبودية على ما اقتضاه الوقت، وتلك العبودية الدائمة إنما تحصل إذا ذكرت كلمة التوحيد بنفي لوازم البشرية وإثبات أحدية الذات الإلهية، فإذا ذكرت كلمة التوحيد بهذا الشرط غسلت بماء الفيض الإلهي عن الطبيعة البشرية جميع المخالفات، وكنست بنفحات العناية عن

القلب غبار التعلقات، وأزالت عن النفس بأنوار الهداية ظلمة الضلالة، وحققت الظاهر والباطن بحقيقة الإخلاص، فعند حصول هذه الخصائص في الذاكرة من ذكر كلمة التوحيد يستهلك في نظر الوجود الإمكاني، ويظهر له الوجود الحقاني في جميع الكائنات فيصير ذلك الذاكر عبداً للحق لا عبداً الشيطان ولا للنفس والهوى.

ويكون الذاكر في العبودية على الدوام في جميع الأحكام، ويستهلك في أنوار الأحدية من حيث الذات والصفات، ويميز مرتبة العبودية عن مرتبة الربوبية في كل مقام ويخص لكلٍ حقها على ما يقتضيه الوقت والآن.

ومعنى دوام العبودية فيه ظهور النسبة والمعرفة اليقينية بين الربوبية والعبودية الجامعة للقرب والوصل والمعارف كلها، كما قيل: من عرف الله عرف كل شيء ولا يخفى عليه شيء.

قال الشبلي قدس سره عندما سئل بفتح طريق الإفادة (أي إفادة العلوم الشرعية، حتى ينتفع بها أصحاب الإفادة من الطالبين): والذي نفسي بيده لحضور قلبي وشهوده في استغراق نور ذاته خير من علوم الأولين والآخرين[(١)].

وهذا المعنى والحضور والشهود في استغراق نور الرب زبدة كلماء الأنبياء والمرسلين فهو المقصد والمسند الأعلى، والمقام الأسنى، والحالة الحسنى الموجبة للزيارة في الدنيا والآخرة.

فهو الهداية العظمى واللطيفة الكبرى، والسعادة العليا، وكان قاب قوسين وأدنى.

---

(١) يوضح المؤلف فيقول: يعني علوم شرائع الأنبياء الأولين والآخرين.

حقيقة التوحيد

وأما حقيقة التوحيد: فالتوحيد في اللغة: الحكم بأن الشيء واحد، أو العلم بأنه واحد، يقال فيه وحدته أي وصفته بالوحدانية.

كما يقال شجاعته أي وصفه بالشجاعة. وفي اصطلاح أهل الحقيقة هو تجريد الذات الإلهية عن كل ما يمكن تصوره في الإفهام وتخيله في الأوهام والأذهان.

ومعنى كون الله تعالى واحداً نفيٌ للإنقسام في ذاته، ونفي الشّبه والشّرك في ذاته وصفاته.

وقال الجنيدي: إذا تناهت عقول العقلاء في التوحيد انتهت إلى الحيرة.

وقال أيضاً: التوحيد معنى اضمحل فيه الرسوم واندرست العلوم، ويبقى الله تعالى، كما لم يزل.

وقال أيضاً: (كلمة قيلت في التوحيد) كلمة أبي بكر الصديق رضي الله عنه: سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفته إلاّ بالعجز عن معرفته.

وقيل: التوحيد إسقاط الياءات ومعناها أن لا تقول: لي، وبي، ومني.

وقال الشبلي: ما شم روايح التوحيد من تصور من عنده.

وقيل لأبي بكر الطمساني: ما التوحيد فقال: التوحيد: موحود موحّد. هذا تثليث أم توحيد.

وقيل: من وقع في بحار التوحيد لايزداد على مرور الأيام إلاّ عطشاً.

وقال الحصري: أصولنا في التوحيد خمسة أشياء:

رفع الحدث وإفراد القدم، وهجر الآخرة، ومفارقة الأوطان، ونسيان ما عُلم.

وللتوحيد عبارة ومعنى: وعبارته كلمة الإخلاص، ومعناه الإخلاص فيها وهو التجرد عن الكونين وعن أوصاف البشرية عند ذكرها. وذلك هو المراد بقوله (عم) لا إله إلاّ الله، ومن قالها خالصاً مخلصاً دخل الجنة.

الفصل الثالث والعشرون:

حقيقة التهليل وفوائده وخواصه

وأما فوائد التهليل: فمن واظب على ذكرها كما ذكرنا يحصل على فوائد كثيرة ومنافع عظيمة منها ما يرجع إلى محاسن الأخلاق ومنها ما يرجع إلى الكرامات.

أما الأول: فمنها اتصافه بالزهد ونعني به خلو الباطن من الميل إلى الفناء ومنها فراغ القلب من الثقة بالزائل.

فإن كانت اليد بمتاع حلال فعلى سبيل العادية المحققة، وتصرفها به بالإذن الشرعي تصرف الوكالة الخاصة ينتظر العزل عن ذلك التصرف بالموت أو بغيره مع كل نفس:

ومنها نفي النفس عن التعلق بما لا بد من زواله.

ومنها التوكل: وهو ثقة القلب بالوكيل الحق بحيث يسكن عن الإضطراب عند تعذر الأسباب، وهي ثقة بمسبب الأسباب، ولا يقدح في توكله تلبس ظاهره بالأسباب، والوجود وعدمه عنده سيّان.

ومنها الحياء من الله وعظمته بدوام ذكره والتزام امتثال أمره

ونهيه، والإمساك عن الشكوى به إلى العجزة والفقراء والمساكين وغيره.

ومنها الغني وهو غني القلب بسلامته من فتن الأسباب.

ومنها الإيثار على نفسه غيرة إلاّ ما لا بد منه على حكم الشرع.

ومنها الفتوة وهي التحافي عن مطالبة الخلق بالإحسان إليه، ولو أحسن إليهم لعلمه بأن إحسانه وإساءتهم إليه، كل ذلك مخلوق الله. قال الله تعالى:

﴿والله خلقكم وما تعملون فلم ير لنفسه إحساناً حتى يطلب عليه جزاء ولم يرَ لهم إساءة حتى يذمهم عليها﴾.

والفوائد كثيرة. فمن أرادها فليجتهد في ذكرها وآدابها وسيعرفها بالذوق.

وأما الثاني: فمنها وضع البركة في الطعام ونحوه حتى يكثر القليل ويكفي اليسير وهذه مشاهد لأولياء الله:

ومنها تيسير دنانير ودراهم أو كليهما أو غير ذلك مما تدعو إليه الحاجة، وبعضهم لا ينتصب على سجادته لذكر أو الصلاة في خلوته إلاّ وخلق الله على سجادته وتحتها درهم.

ومنها أن يكشف له حقيقة ما يريد استعماله من الطعام فيعرف حلاله وحرامه بإمارة من باطنه أو ظاهره. وكرامات هذا الباب كثيرة. إلاّ أن المؤمن ينبغي له أن لا يقصدها بشيء من طاعته، وإلاّ دخل عليه الشرك الخفي ومكر به والعياذ بالله.

شروط ذكر التوحيد

وهذا من جملة ما يجب أن يصفى به القلب عند ذكر كلمة التوحيد:

فليقطع التفاته إلى الظاهر بالكلية وليكن قصده رضا مولاه الذي لا خلف له منه ولا غنى لمخلوق عنه.

وكشف الحجاب عن عين قلبه حتى يتنزه في ذلك الجمال العديم المثال ويتوجه مولاه عزّ وجل بعجائب أسرار لا يعبر عنها المقال.

قال الشاذلي:

التوحيد سر الله، والصدق سيف الله، ومدد السيف بسم الله، وترجمته: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

وقال: كان لي صاحب وكثيراً ما كان يأتيني بالتوحيد، فرأيت في المنام مايجب أن أقول له: يا عبد الله إذا أردت التوحيد الذي لا لوم فيه فليكن الغرق في لسانك موجوداً والجمع في سرّك مشهوداً.

أبواب الحق

وقال: أبواب الحق أربعة:

التوحيد والمحبة والإيمان والرضاء

وقال: رأيت في المنام: يقال لي: من تعلق بأسماء الله من جهة المسميات فالشرك موطئه فكيف بمن تعلق بأسماء نفسه. أين أنت من التوحيد الحق المجرد عن التعلق بالله وبالخلق.

وكل إسم يستدعي به نعمة أو يستكفي به نقمة فهو حجاب عن الذات وعن التوحيد بالصفات.

ولا تدع ما هو لك لما ليس لك

ولا تتمنَّ ما فضل الله به غيرك

ولتكن عبوديتك التسليم والقبول لما يأتي
وأحسن الظن بالله فيما تلقى
واشتغل بما هو أولى
ذلك هو الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الفصل الرابع والعشرون:

معرفة اليقين وعين اليقين وحق اليقين

وأما معرفة عين اليقين فهي المعرفة الحاصلة في الآيات بالنظر بالآفاق والجهات المفهومة. من قوله تعالى: قل انظروا ماذا في السموات والأرض.

أي انظروا في بديع المصنوعات وعجائب المخلوقات كرفع السماء بلا عمد وحبال، وبسط الأرض ونصب الجبال، ودوران الشمس والقمر، وتعاقب الليل والنهار، وخلق الدواب والأشجار.

وهذه المعرفة استدلالية ومن وراء حجب المحسوسات.

وأما معرفة حق اليقين فهي إنما تعرف بمعرفة النفس، ومعرفتها إنما تحصل:

بالإشراف النوراني الكاشف اللّبس، وذلك الإشراق لا يحصل إلاّ بتصفية الروح وتذكية النفس وبالمجاهدات.

قال الله تعالى: والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا.

وذلك بتلطيف السر بالإذكار الموصلة لحضرة الملك الغفار.

لتستعد الروح بتلك المجاهدات والأذكار لنزول البارقات الإلهية وظهور خطوات الأنوار.

فبذلك تزول الشكوك من الصدور وتنزل السكينة والطمأنينة من القلب بتجلي العزيز الغفور. لقول علام الغيوب: لا تطمئن النفس إلاّ بذكر الله. فمعرفة سياسة النفس أدى إلى معرفة الرب والوصول إلى حضرة القدس.

قال عليه السلام: من طهر الله قلبه وعرف نفسه فقد عرف ربه. أي بأن تعرف النفس نفسها بذلها وعجزها، فتعرف ربها باتصافه بكل كمال وبقدرته على جميع الأفعال بها وبغيرها. وبأن تلاحظ صفاتها:

الحسية: وعاملها الروحاني القدسي فتميل إلى مقامها الداني بترك كل فاني، حتى تتجرد عن الأوصاف الخسيسة الجسمانية وتتصف بأوصافها الحميدة الروحانية.

فحجاب النفس عن كمالاتها العلمية إنما هو اشتغالها بالأمور البدنية والقوى العنصرية.

[ولا بد لمن أراد أن يعرف نفسه ويشاهد أنوار ربه أن يجرد نفسه عن التعلق بالقوى البدنية والتقيد بالحواس الجسمانية:

بأن يلطف نفسه بالعبادات

ويخفف جسمه يالرياضات

ويلازم الورع في جميع أفعاله

وقد قال عليه السلام: لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا قوس، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار وأجريتم من أعنيكم الدموع مثل الأنهار فما ينفعكم ذلك إلاّ بالورع. وهو اجتناب الشبهات خوفاً من الوقوع في المحرمات، فقليل من الورع يجزى عن كثير من العمل.

قال عبد القادر الجيلي: عليكم بالورع والذكر إن أردتم أن تطوى لكم مقامات الطريق بسرعة. وعليكم بالتواضع إن أردتم أن يرفعكم الله.

الفصل الخامس والعشرون:

المقام والقفل والران والختم والربط

المقام

وأما المقام: (بفتح الميم) هو ما يتحقق العبد بمنازلته من الآداب مما يتوصل إليه نبوغ التصرف، ويتحقق به بضرب تطلّب، أو مقامات تكلّف.

فمقام كل واحد موضع إقامته عند ذلك، وما هو مستعمل بالرياضة له وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوف أحكام ذلك المقام، فإن من لا قناعة له لا يصح له التوكل، ومن لا توكل له لا يصح له التسليم، ومن لا توبة له لا يصح له الإنابة، ومن لا روح له لا يصح له الزهد، [وقيل: المقام هو حالة إقامة وظائف العبودية بكسب واختيار [واعلم أنه لا يصح لأحد منازلة مقام إلاّ بشهود إقامة الله تعالى إياه في ذلك المقام ليصح بناء أمره على قاعدة صحيحة.

الحال

وأما الحال فهو عندهم معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا

اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو قبض أو بسط، أو شوق أو انزعاج، أو احتياج أو هيبة. فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب، والأحوال ثاني من وجود العين والمقامات تحصل ببذل المجهود، فصاحب المقام ممكّن في مقامه، وصاحب الحال مرقّى عن حاله.

وقال المشايخ: الأحوال كالبروق، فإن بقيت فحديث نفس.

وقالوا أيضاً: الحال كأسمها وتعني أنها تحل في القلب ثم تحول.

وأنشدوا شعراً:

لو لم تحلّ في ذلك ما سميت حالاً وكل ما حال فقد زالا

أنظر إلى الفيء إذا ما انتهى يأخذ في النقض إذا طالا.

وأشار قوم إلى بقاء الأحوال ودوامها وقالوا: إذا لم تبقَ ولم تدم، فهي لوائح وبوادر، وإذا دامت كانت أحوالاً.

روي عن أبي عثمان الحيري أنه قال مذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حالة فكرتها. (أشار بذلك إلى دوام الرضا والرضاء) من جملة الأحوال.

فالأحوال وإن دامت لكن صاحبها أبداً يكون في الترقي من حالة إلى حالة أعلا منها.

الدوام

فالدوام باعتبار جنس الأحوال والزوال باعتبار عين الحال، وبذلك فسر أبو علي قوله (عم) أنه ليُغان على قلبي حتى استغفر الله تعالى سبعين مرة في اليوم، لأنه (عم) كان في الترقي من أحواله، فإذا ارتقى من حالة إلى أعلا منها رأى في الأولى نقصاً بالنسبة إلى الثانية فاستغفر الله وهلم جراً.

واعلم إن قطع المقامات ثلاث:

قطع المقام الأول: في أثناء السلوك في الطريقة النقشبندية:

أن يتوجه السالك إلى أهل السلسلة، واحد بعد واحد إلى حضرة الصديق الأعظم إلى حضرة المصطفى (صلعم) إلى حضرة جبريل الأمين إلى مشاهدة الذات المنزه عن الشبه والمثيل.

والتعيين: ويشتغل بذلك حتى تتحرك السلسلة كلها بالتوجه إليه ثم يفنى عن ذلك التحرك والتوجه بمشاهدة الذات العلية.

المقام الثاني: فإذا قوي الحال وحصل الفناء عما سوى المولى، ووقع في التوجه المحصن وذهل عن وجود عالم الملك وعن وجود نفسه يكون المقام الثاني.

المقام الثالث: فإذا قوى هذا الحال ودخل في البقاء يكون المقام الثالث.

وهو نتيجة الفناء. فمتى تمّ الفناء حصل البقاء بالقرب المعنوي من الملك المجيد إذ هو أقرب إلى العبد من حبل الوريد.

ويعبر عن هذه المقامات الثلاثة بعبارات أخر وهي:

العلم الرباني والفتح الصمداني والتجلي الإحساني.

اما العلم الرباني فهو علمك بأن الله تعالى معك أينما كنت لقوله تعالى:

﴿ما يكون من نجوى ثلٰثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر ألا هو معهم أين ما كانوا﴾[1]

---

(١) سورة المجادلة، ١ ـ ٧/٥٨

ونظير ذلك في الآيات والأحاديث كثيرة، وهو محل مزالق الأقدام، فيلزم للمناسبة في هذا المقام. فأقول: اعلم مدلول الإسم الكريم إنما هو الذات اللازمة لها الصفات المقتضبة لتعلقها بجميع الممكنات وليست كمعية المتحيزين لعدم مماثلته تعالى لما سواه من المخلوقات المحققة بالجسمية المفتقرة للوازمها الضرورة.

كالحلول في الجهة من الأثنينية الزمانية والمكانية، بل على ما يليق بشأنه لما له من الكمالات تعالى عن التشبيه والنظير ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وأما الفتح الصمداني (وهو المقام الثاني) فهو غيبتك عن كل فان. لقول سيد الأكوان:

كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان.

وقول الملك الرحمان: كل من عليها فان

وأما التجلي الإحساني (وهو المقام الثالث) فهو القرب من حضرة الحق والتداني لقول الملك الحميد، ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد.

ويعبر عن هذه المقامات أيضاً بعبارات أخرى:

الأولى: الحضور مع الله ومشاهدة مصنوعاته.

الثانية: الحضور في مقام مشاهدة صفاته.

الثالثة: الحضور مع شهود لشيء من مخلوقاته.

ويعبر عنهابالمعية والأحدية والأقربية.

فالمحمدي الكامل لا يستقر في حضرة واحدة، بل ينتقل إلى الحضرات الثلاث وليس له مقام مخصوص.

ثم اعلم أن القلب كما يتصف بالمراقبة والمشاهدة ونحوها

يتصف بالختم والقفل والران والربط لقوله تعالى: ختم الله على قلوبهم

وقوله: أم عى قلوب أقفالها

وقوله: كلا بل ران على قلوبهم

وقوله: لولا أن ربطنا على قلبها.

التوبة

وهي ملاك كل أمر لأنها تجبّ ما قبلها. كما أن الإسلام جبّ ماقبله. ولها ثلاثة شروط:

الأول: العزم على أن لايعود إلى قبيح الأفعال

الثاني: الندم على ما فات من مخالفة الملك المتعال

الثالث: القيام في الحال على أحسن الأحوال

فإن أخلّ بشيء منها ففعله باطل وهي على ثلاثة أقسام: وهي التوبة، الإنابة، الأوبة.

فمن تاب خوف العقوبة فهو صاحب التوبة ومن تاب رجاء المثوبة فهو صاحب الإنابة، ومن تاب حفظاً وقياماً بالعبودية لا رغبة في الثواب ولا خوفاً من العقاب فهو صاحب الأوبة.

فالتوبة صفة المؤمنين العاصين والإنابة صفة الأولياء المقربين والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين.

قال الله تعالى: نعم العبد أنه أواب.

وقال (تع): وجاء بقلب منيب

وقال (تع): وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون

وفي هذه الآية إشارة خاصة وإشارة عامة.

ـ فأما العامة: فقد عمّت العصاة والطائعين والموافقين والمخالفين بلفظ الإيمان وقد سمّاهم بالمؤمنين لئلا تتمزق قلوبهم من خوف القطيعة.

ـ وأما الخاصة: فقد أمر الطائعين بالتوبة لئلا يعجبوا بطاعتهم فيصير عجبهم حجبهم، فيتساوى في هذا الأمر الطائع والعاص.

وكما أمر بالتوبة لعموم المؤمنين فقد أمر بها سيد المرسلين وقال (عم): فإني أتوب إلى الله في اليوم والليلة مئة مرة، فتوبة الرسول (صلعم) توبة خاصة الخاص وهي التوبة عن كل ما سوى الله، وتوبة الخاص عن غفلة القلوب عن حضرة المحبوب، وتوبة العوام من الذنوب فينحنى بها الران عن القلب، ولكن يبقى أثره. فالذكر يصقله حتى يصير كالقنديل [فبوجود الأنوار القلبية تنطبع في مرآته الأفعال الطائعة ويمد نظره إلى الحضرة القدسية، لأن القلب له مرآة ذات وجهين، وجه ثقيل ووجه كثيف: [فالثقيل مقابل إلى عالم الملك، وهو عالم الشهادة، فكل شيء قابله انطبع به فيتقلب القلب من الشر إلى الخير وبالعكس.

[والكثيف مقابل عالم الملكوت، وهو عالم الغيب، فإذا غلبت أنواره على ظلمته، وطاعته على معصيته، مال إلى عالم الملكوت، فيشتغل بالسلوك وقطع مقامات النفس، فكلما قطع مقاماً انجلى ما قابله من الوجه الكثيف حتى تضيء كلها، فحين ينظر السالك بالغيب يغترف من العلمين فيصير جسمه لطيفاً بين الأجسام كالأنبياء (ع) لأنهم لما تحققوا أن الجسم لا يليق للتجلي من حضرة الحق اللطيف لطفوا أجسامهم الكثيفة بأنواع الرياضات والمجاهدات وترك الشهوات ومخالفة النفس ذو الآفات حتى تلطفت أجسامهم الكثيفة فصارت مضاهية للأجسام اللطيفة [لأن الحق تعالى خلق

الإنسان مركباً من جسم كثيف وهو الجسد والجسم اللطيف وهو السائر في حالة النوم، ومن روح وهي الواسطة بينهما.

روى عن ابن عباس: في جسد ابن آدم نفس وروح، بينهما جسم شعاع الشمس.

فالنفس بها العقل والتمييز.

والروح بها النفس والتحريك.

فإذا نام العبد قبض تعالى نفسه ولم يأمر بقبض روحه.

وقال بعضهم: من يموت في القتال تتوفاه الملائكة ومن يموت على الفراش يتوفاه ملك الموت ومن يموت في المنام يتوفاه الله.

وفي ذلك نكتة لطيفة: وهو أن كل شيء يضاف إلى الله تعالى بغير واسطة مخلوق يوصل به راحة وبسط.

الفصل السادس والعشرون:

حيل إبليس لعبد القادر والخواطر والواردات

حكي أن إبليس تجلى لسيدي عبد القادر الجيلي بأنوار وهيئة عرش و ناداه وقال: ياعبدي قد رفعت عنك التكاليف. فقال قدس الله سره: إخسأ يا عدو الله، لو رفع التكاليف لرفعها عن حبيبه (عم) فقال: منعك مني علمك وقد أضللت قبلك ألف عابد ولذا قيل:

تفقه فإن الفقه أفضل قائد إلى البر والتقوى وأعدل قاصد، فإن فقيهاً واحداً متورعاً أشد على الشيطان من ألف عابد.

وللشيطان وساويس كثيرة فإنه يحسن لبعض الناس التواجد عند الذكر أو سماع القرآن ويدخل عليه بصورة نصيحة وهو أنك إذا شبهه بالواجدين تكون منهم، ويتلو لهو البيت الذي قاله بعضهم: تشبهوا إن لم تكونوا مثلهم فإن التشبه بالرجال فلاح، ثم إذا تواجد وتبع ما أمره به الشيطان تجلّى له من المصراع الأسفل، فينفخ فيه فيحصل له حرارة، فيسول له أن هذا من تجلى حضرة الحق فيصرخ فيحصل الإنقباض لهم سمعه من أهل الباطن، وعلامة ذلك أن لو كان وحده صحيحاً لأثر جميع من كان حاضراً. نعوذ بالله من اتباع الشيطان فإنه عدو للإنسان.

قال الله تعالى: إن الشيطان لكم عدو.

الخواطر الواردة

أما الخواطر الواردة على الضمائر، وهي خطاب يرد على الضمائر فقد يكون بإلقاء ملك وقد يكون بإلقاء الشيطان وقد يكون أحاديث النفس وقد يكون من الله فالأول إلهام والثاني وسواس والثالث هواجس والرابع خواطر الحق.

فعلامة الإلهام موافقة العلم.

وعلامة الوسواس ندبه إلى المعاصي.

وعلامة الهواجس ندبه إلى إتباع الشهوات وحظوظ النفس.

وأجمع المشايخ على أن من كان قوته من الحرام لا يفرق بين الإلهام والوسوسة وأجمع: على أن الخواطر المذمومة محل لها النفس.

والخواطر المحمودة محل لها القلب، وأن النفس لا يصدق أبداً.

وقال الجنيد الفرق بين هواجس النفس ووساوس الشيطان أن النفس إذا طالبت بشيء ألحت بطلبه حتى يوجد لها محاله الهم إلاّ أن يكون صاحبها صادق المجاهدة فيردها عن ذلك بصدق مجاهدته.

أما الشيطان إلى ذله فلم يوافق إليها تركها ودعا إلى أخرى لأن كل عنده سواء من حيث إنه معصية ومخالفة.

الواردات

وأما الواردات وهي جمع واردة. والواردات ما يرد على القلب من الخواطر المحمودة مما يكون بتعلم العبد وقد لا يكون الوارد من قبل الخاطر بل من قبل العلم أو الحق. فالواردات أعم من الخواطر

لأن الخواطر تختص بنوع الخطاب أو ما يتضمن معناه. والوارد أيضاً ما يرد على القلب من سرور وحزن أو قبض وبسط أو نحوهما.

الفصل السابع والعشرون:

إصلاح العباد

إعلم أن الإصلاح على الله ليس بواجب.

وقال المعتزلي: واجب

ومن قال بأن الإصلاح والصلاح على الإله واجب فهو عدول عـن الجادة ومخالف عن العامة ومعترض لأهل السنّة والجماعة.

مناظرة بين سني ومعتزلي

قال المعتزلي: سبحان من تنزه عن الفحشاء

قال السني: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما شاء

المعتزلي: أرأيت أن منعني الله من الهدى وحكم عليّ بالردى. أحسن إليّ أم أساء

السني: إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ماهو له فالله يفعل في ملكه ما يشاء

المعتزلي: أيرضى ربُنا أن يُعصى

قال: أيُعصى ربنا. [فألزمه وقطع حجته.

والحاصل: إن مذهب أهل السنّة: إن الإصلاح للعبد ليس بواجب على الله فيما يرى جمهور المعتزلة أنه واجب.

يقول المعتزلة:

أولاً: الألوهية تنافي الوجوب المختصة بالعبودية ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

ثانياً: إن الإصلاح بحسب الظاهر: أن يعتدي الخلف جميعاً وقد قال الله تعالى يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء مع قوله ولو شاء لهدينّكم أجمعين.

فقد أراد الله تعالى باختلاف العباد إظهاراً لعدله وإيثاراً بفضله.

وقال: إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً. مع أن الإملاء لزيادة الإثم ليس بصلاح عند العقلاء، ففيه الحجة البالغة والحكمة السابقة. [ثم هدايته تعالى: تارة يراد بها خلق الله. كقوله إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء.

وتارة يراد بها مجرد البيان والدلالة ومنه قوله تعالى: وأما ثمود فهديناهم، وقوله تعالى: وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم.

وتارة مجرد الإرشاد ومنه قوله تعالى: ولكل قوم هاد.

والمعتمد عند أهل السنّة أنها الدلالة المطلقة إلى المطلوب سواء حصلت أم لا.

وعند المعتزلة: الدلالة الموصلة إلى المطلوب.

واعلم أن تفصيل هذا المقام:

إذا أراد الله بعبد خيراً قلبه إلى محله الأصلي الذي بدأ منه أي إلى العلو، فيصير قلبه عرشياً لا فرشياً، فيكون انقلابه إلى الحق، وهو صرف وجه الهمة مع العدوة الدنيا. وهي الظواهر إلى العدوة

القصوى، وهي الحقائق وبواطن الأمور، ويصل إلى الفطرة التي خلقه الله عليها.

قال الله تعالى:

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾.

لكنه لما نزل مع الطبيعة إلى حكم العادة واستولت عليه الشهوات النفسية، وغلب عليه حكم البشرية صار كالثوب الأبيض الذي تدنس. فإذا غسله بماء الخلوات والرياضات عاد إلى أصله، وإلاّ زاد تدنسه وقويت أوساخه وصار مملكة للشيطان. فإذا كان من أهل الطرق تجلى له الشيطان من مصراع قلبه السفلي لانسداد مصراع قلبه العلوي. فإن للقلب باباً له مصراعان. مصراع يفتح إلى العلوي، ومصراع يفتح إلى السفلي.

فالمصراع العلوي لتجليات الرحمٰن.

والمصراع السفلي لتجليات الشيطان.

وإذا سد الباب السفلي لكثرة الإذكار وبنفي الخواطر والأغيار انفتح المصراع العلوي وتردف التجلي والواردات من حضرة الملك العلي.

وعلامة ذلك الورع الزهد في الدنيا. فإذا انتفى الورع والزهد من إنسان وادعى أنه يحصل له التجلي من حضرة الملك الديان فهو من الكاذبين. وتجليه هذا إنما من تجلّي الشياطين. لأن الطمع في الدنيا والرغبة فيها يسد المصراع العلوي ويفتح السفلي الذي يتجلّى منه الشيطان فإنه أضلّ خلقاً كثيراً.

قال الشاذلي: كل علم تسبق إليك فيه الخواطر وتتبعها الصور، وتميل إليه النفس، وتلتذ به الطبيعة فأرم به واتركه وإن كان حقاً.

وخذ بعلم الله الذي أنزل على رسوله واقتدى به الخلفاء والصحابة والتابعين من بعده، وبهداة الأئمة المبرئين من الهوى تسلم من الشكوك والظنون والأوهام والدعاوى الكاذبة المضلّة عن الهدى وحقائقها. وعليك أن تكون عبداً لله بالعلم والعمل.

حسبك من العلم: العلم بالوحدانية، ومن العمل به تحية الله ومحبة رسوله (صلعم) ومحبة الصحابة واعتقاد الحق للجماعة.

قال رجل: متى الساعة يا رسول الله قال: ما عددت لها. قال: لا شيء إلاّ إني أحب الله ورسوله فقال (عم): المرء مع من أحب. وقال: قرأت سورة الإخلاص والمعوذتين ذات ليلة، فلما انتهيت إلى قوله: من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس. قيل لي: شر الوسواس يدخل بينك وبين حبيبك وينسيك أفعالك الحسنة، ويكثر عندك ذات الشمال فيذكر أفعالك السيئة، ويقلل عندك ذات اليمين ليعدي بك من حسن الظن بالله ورسوله إلى سوء الظن بالله ورسوله.

أحذرك هذا فقد أخذ منه خلق كثير من الزهاد والعباد وأهل الورع والإجتهاد.

وقال لي: إذا أردت أن تسلم من ذلك فلا تدبر لغد ولا بعد غد.

الفصل الثامن والعشرون:

خواطر العلم ورؤية القوم وحياة القلب

وأما رؤية القوم فقال الله تعالى: لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

قيل: هي الرؤية الصالحة يراها الرجل وترى له.

كذلك روي عن النبي (صلعم) قال: الرؤيا من الله والحلم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم رؤيا يكرهها فلينقل عن يساره وليتعوذ فإنها لن تضره.

وقال: من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي.

حقيقة الرؤيا

[واعلم أن الرؤيا الصادقة نوع من أنواع الكرامة:

وحقيقة الرؤيا خواطر ترد على القلب وتتصور في القلب والوهم. فهي تارة تكون من قبل الشيطان وتارة تعريفاً من الله.

والله تعالى يخلق تلك الأشياء في القلب بغير واسطة.

والنوم على أقسام: نوم لعنة وغفلة وعادة. وهو مذموم لأنه أخ

الموت، كذا روت بعض الأخبار، وإليه الإشارة بقوله تعالى: وهو الذي يتوفاكم بالليل.

وقوله: والتي لم تمت في منامها.

وقيل: لو كان في النوم خير لكان في الجنة نوم

وقيل: لما قال ابراهيم لاسماعيل عليهما السلام إني أرى في المنام أني أذبحك. قال: هذا جزاء من نام عن حبيبه لو لم تنم ما أمرت بذلك.

النوم

وقال الشبلي: نعسة في ألف سنة فضيحة

وقال أيضاً: طلع الحق عليّ فقال: من نام غفل، ومن غفل حجب.

فكان بعد ذلك يكتحل بالملح حتى لا ينام.

قيل: إن كنت حاضراً فلا تنم لأن النوم في الحضرة سوء أدب، وإن كنت غائباً فأنت من أهل الخسر.

وأما أهل المجاهدات فنومهم صدقة من الله تعالى عليهم، والله يباهي بالعبد إذا نام في سجوده، فيقول: انظروا إلى عبدي روحه عندي وجسده بين يديّ، يفي روحه في محل النجوى وبدنه على بساط العبادة.

وقيل: كل من نام على طهارة يؤذن لروحه أن تطوف في العرش وتسجد لله.

وقيل: لا شيء أشد على أبليس من نوم العاصي، يقول: متى ينتبه جنى.

وقيل: لا يستحق العبد أن ينام ومولاه لا ينام.

وقال بعضهم: النوم أفضل من اليقظة لأن النائم لا يعصي الله تعالى في حال نومه.

وقال الكتاني: رأيت النبي (عم) في النوم فقلت: ادع الله أن لا يميت قلبي. فقال: قل كل يوم أربعين يا حي يا قيوم لا إله إلاّ أنت.

ورأى الحسن عيسى (عم) في النوم فقال له: إني اتخذ خاتماً فما الذي أكتب عليه. قال: لا إله إلاّ الله الملك الحق المبين. فإنه آخر الأنجيل.

وقيل: رأى بن حضرويه ربه فقال له: يا أحمد كل الناس يطلبون مني إلاّ أبا يزيد فإنه يطلبني.

وقيل: دخل الحسن البصري ليصلي المغرب فوجد إمامهم حبيب العجمي فلم يصل خلفه خوفاً من اللحن فرأى تلك الليلة في المنام قائلاً يقول: لو صليت خلفه لغفر لك ماتقدم من ذنبك.

وروى مالك بن أنس في المنام فقيل له: ما فعل الله تعالى بك.

فقال: غفر لي بكلمة حفظتها من عثمان بن عفان (رضي) وكان يقول عند رؤية الجنازة: سبحان الحي الذي لايموت.

وروى الجنيد في المنام: قيل له: ما فعل الله تعالى بك فقال: طاحت تلك الإشارات وبادت تلك العبادات ما نفعنا إلاّ بالسبحات.

الفصل التاسع والعشرون:

الجوع والصبر والشاهد والجذب والمجذوب

الجوع

وأما تفصيل الجوع والعطش والصبر عليها. قال الله تعالى:

﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين﴾[1]، أي على الخوف والجوع.

وقال: ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة[2].

وكان النبي (عم) يبقى أياماً لا يأكل شيئاً.

واعلم أن الجوع أحد أركان المجاهدة وبسببه تتغير ينابيع الحكمة لأهل السلوك وهو من صفاة أهل الحقيقة.

وكان سهل بن عبد الله لا يأكل الطعام إلاّ كل خمسة عشرة يوماً، فإذا دخل رمضان لا يأكل حتى يرى هلال شوال، وإنما يفطر كلّ ليلة على الماء وحده وكان يقول: جعل الله في الشبع الجهل والمعصية وفي الجوع العلم والحكمة.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٥ ـ ٢/١٥٥

(٢) سورة الحشر، الآية ٩ ـ ٥٩/٩

وكان رحمه الله إذا أكل ضعف وإذا جاع قوي.

وقال عبد العزيز بن عمر: جاع صنف من الطير أربعين صباحاً ثم طاروا في الهواء وعندما رجعوا كانت رائحة المسك تفوح منها. وقال القشيري: لا يستبعد أن يكونوا قد وصلوا إلى الجنة.

وقال أبو سليمان الداراني: مفتاح الدنيا الشبع ومفتاح الآخرة الجوع.

وقال يحيى بن معاز الرازي: الجوع نور والشبع نار وقال أبو علي الدوذباري: إذا قال الصوفي بعد خمسة أيام أنا جائع الزموه السوق وأمروه بالكسب.

وقيل للربيع: قد غلى الشعير فقال نحن أهون على الله من أن يجيعنا، إنما يجيع أولياءه.

وقال أبو علي: قام فقير في مجلس يطلب شيئاً فقال: إني جائع من ثلاث فصاح عليه بعض المشايخ: كذبت أن الجوع سر الله وهو لا يضع سره عند من يحمله إلى من يريد.

وقال أبو تراب النخشبي[٣]: ما تمنت علي نفسي إلاّ مرة واحدة: تمنت علي خبزاً وبيضاً وأنا مسافر، فدخلت إلى قرية لطلب الخبز والبيض، فوثب رجل وتعلق بي وقال لقزمه وهذا كان معهم فبطحوني وضربوني سبعين سوطاً فمر بي رجل فعرفني فخلصني منهم وعرفهم بي واعتذروا إلي. وأدخلني رجل منهم إلى منزله وقدم لي خبزاً وبيضاً فقلت لنفسي كلي شهوتك بعد سبعين جلدة.

---

(٣) هو أبو تراب عسكر بن حصين النخشبي من أجلّ مشايخ خراسان. قال عنه إبن الجلاء إنه واحد من أربعة من أفضل ستمائة شيخ. ويقول عنه صاحب الكواكب الدرية: كان شيخ عصره.

وقيل إن أبا تراب أكل من البصرة إلى مكة أكلة واحدة.

وروي عن النبي (عم): من حسن إسلام المرء ترك ما لايعنيه، وأصل ترك المباح لا بد للمريد منه، وهو لا يتم أمره دونه ولا يستعلم إلا عليه ولا يملك زمام قلبه إلاّ به وهو: علامة الصمت، ومداومة الجوع والعطش.

وروي عن النبي أنه قال: من عرف الله وعظمته منع فاه من الكلام وبطنه من الطعام.

وقالوا: دواء القلب في خمسة قيام الليل وقراءة القرآن وخلو البطن وقلة الكلام والتضرع عند الصبح.

وفي حديث زيد بن علي عن جده علي أنه قال رسول الله: فم الصائم أطيب ريحاً من المسك عند الله فلذلك قال الله تعالى: الصوم لي وأنا أجزي به.

وقال النبي (عم) للصائم فرحتان فرحة عند إفطاره وفرحة يوم القيامة ينادي مناد: أين الظامية أكبادهم وعزة وجلال لأروينهم اليوم.

وروى: الصوم جنة من النار.

وروى: إن أطولكم جوعاً وتذكراً أفضلكم عند الله.

وقال ذو النون: من قوي على بطنه قوي على دينه ومن لا يعلم أن مضرته من قبل بطنه فذلك من العابدين أعمى.

وعن الصادق: ظهر إبليس ليحيا بن ذكريا وعليه معاليق قال له يحيى (عم): ما هذه المعاليق يا إبليس. فقال: هذه الشهوات التي أصبتها من بني آدم. فقال هل فيها لي شيء. قال: ربما شبعت

مثقلناك عنه الصلاة والذكر. فقال يحيى بن ذكريا يا الله: عليّ أن لا أملأ بطني من طعام أبداً.

الشاهد

وأما الشاهد، وهو في اللغة عبارة عن الحاضر، وفي اصطلاح القوم عبارة عما كان حاضراً في قلب الإنسان وغلب عليه ذكره حتى كان يراه ويبصره.

فإن كان الغالب على قلبه العالم فهو يشاهد العلم [وإن كان الغالب عليه الرجاء فهو يشاهد الرجاء [وإن كان الغالب عليه الوجد فهو شاهد الوجد [وإن كان الغالب عليه الحقّ فهو شاهد الحقّ فكلّ ما غلب عليك ذكره فهو شاهدك.

وقيل مرادهم بالشاهد: ما في القلب، فليجيب شاهد قلب المحب أي حاضر قلبه كأنه يراه عيناً ويشاهد ما فيه وإن كان غائباً عنه.

وسئل الشبلي عن المشاهدة فقال من أين لنا مشاهدة الحق وإنما لنا شاهد الحق، أراد بذلك ذكر الحق المستولي على هيبة الغالب عليه.

وقال بعضهم إنما سمي الشاهد شاهداً لأنه من الشهادة فإذا تجلى للإنسان جمال شخص فإن كان بشرية الرائي ساقتطاً عنه لا يشغله جمال ذلك المرئي عن حاله ولا يؤثر في صحبته شيئاً، فيكون ذلك المرئي شاهداً للرائي بأحكام بشريته، وعليه حمل قوله (عم): رأيت ربي ليلة المعراج في أحسن صورة أي أحسن صورة رأيتها تلك الليلة ولم تشغلني رؤيته.

الفصل الثلاثون:

السلوك وقطع العقبات

إعلم أن السير والسلوك أربعين يوماً يشتغل فيها المريد بالخلوة مع الإخلاص التام بما يلقنه المرشد من أسمائه تعالى لقوله (عم): من أخلص لله أربعين صباحاً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه. وأحسنه أن يكون ابتدائه في ليلة النصف من شعبان ويكون خروجه في آخر ليلة عيد رمضان فإذا أراد الدخول فليغسل ثيابه وخلوته وبدنه، وينوي بالغسل التوبة من جميع الكبائر والصغائر وهفوات الخواطر وإذا كان عليه حق لأحد يدفعه له ويطلب السماح والرضا لمن له خلطة معه أو اغتابه وليكن جلوسه في الخلوة مستقبلاً للقبلة على الوضوء في جميع أوقاته وذلك بعد اتقانه لعلم الحال الذي لا بدّ له من معرفته في الفروض الخمسة من علم: لا إله إلاّ الله، وصوم، وصلاة، وحجة، وزكاة، وقد أمر الحق بذلك كله في كتابه.

فاعلم أن من صفات لا إله إلاّ الله المستحيل والجائز والواجب.

واعلم أن الوصول إلى الحضرة المقدسة بأربعين مقاماً: عشرة في الشريعة فمنها الخمسة المذكورة والباقي، التوبة والعلم والنكاح وحفظ اللسان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعشرة في

الطريقة وعشرة في الحقيقة وعشرة في المعرفة كما سيأتي.

واعلم أن قطع عقبات الطريق بقطع صفات النفس التي تسمى بالأمّارة واللوّامة والملهمة والمطمئنة والراضية والمرضية والكاملة. فكلما اتصفت بصفة سميت بها لأجل اتصافها بإسم من هذه الأسماء.

فإذا صادفت النفس الشهوانية ووافقتها ودخلت تحت حكمها سميت أمّارة.

وإن سكنت تحت الأمر وأذعنت لاتباع الشريعة ولكن بقي فيها ميل للشهوات سميت لوّامة.

فإن زال هذا الميل وقويت وتعلقت بالإلهامات سميت ملهمة.

فإن سكن اضطرابها ولم يبق فيها للنفس الشهوانية حكم أصلاً ونسيت الشهوات سميت مطمئنة.

فإن ترقّت عن هذا وسقطت المقامات من عينها وفنيت عن جميع مراداتها سميت راضية.

فإن زاد هذا الحال عليها صارت مرضية عند الحق والخلق.

فإن أمرت بالرجوع إلى العباد لإرشادهم سميت كاملة.

والمقصود من طي هذه المنازل حصول الإيمان الحقيقي الموقوف على كمال اطمئنان النفس ومراضاتها عند الحق الموصل إلى رتبة الكمال.

ولا تصل إلى تلك الرتبة ما لم تكن بسياسة القلب، ولا تتيسر سياسة القلب ما لم يتفرغ عن العلائق والعوائق وتحصل السلامة من الإبتلاء بما سوى المولى.

وعلامة السلامة من ذلك نسيان السوى، فما دام شعور بالغير

فبعيد عن السلامة وقريب من الوقوع في الضير فمن سلم أمره لمولاه فلا بد له من السعي حتى يتشرق بسلامة القلب المؤدي إلى اطمئنان النفس، الموصل إلى الإيمان الحقيقي والدخول في الرضوان. فإذا وصلت إلى هذا المقام استحقت أن تصير للمرشد الكامل. والكمال لك حاصل وصرت موصولاً واصل فاحمد مولاك على ما هداك. فالزم لخدمته بالإشتغال بمشاهدته، الذي هو مقام الإحسان والاتباع لسنة سيد الأكوان.

واعلم أن الله تعالى لما خلق لطاغته وعبادته وعرفانه كما قال: وما خلقت الجن والأنس إلاّ ليعبدون[1]، وأفضل العبادات مايوصل إلى الله: وهو السلوك.

وفي السلوك لا بد من مرشد كامل وأستاذ فاضل، إذ إن طريق الغيب وهو غير محسوس مبني على مخالفات النفوس.

ألا ترى أن كثيراً من الأطباء يعجزون عند تمرضهم عن علاج نفوسهم لخفائها على صاحبها، وهي أعدى أعدائه في ثياب أصدق أصدقائه، ولهذا ورد: المؤمن مرآت المؤمن.

فبالإستعانة به ينافذ نظر أخيه المؤمن الحاذق.

والسالك يحتاج إلى المرشد الكامل والشيخ الفاضل، وهذا ما يحفظ المريدين عن المهالك ويرشدهم إلى المسالك. فلا يسلكه إلاّ مريد مقدم صادق بإرشاد دليل كامل [فإذا توجه المريد إلى الله وصدق في قصده فالله سبحانه يوصله إلى شيخ كامل ناصح ينهضه حاله ولحظه، وينفعه مقاله ولفظه كما هو في مولانا ضياء الدين خالد المجدوي.

---

(١) سورة الطور، الآية ٥٦ ـ ٥٢/٥٦

وقال نجم الدين الكبرى كما أن المطرقة والسندان والمنفخ والفحم وغيرها من الآلات إذا اجتمعت ولم يكن ثمة أستاذ يضع الأشياء في محلها لا يتحقق وجود شيء، كذلك لا تتصفى مرآة قلب المريد بدون ربط القلب مع الشيخ وترك الإعتراض ودوام الرضا بما قدر من القدر والفتح والقبض ملاحظاً قوله تعالى: عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

ومتحققاً بأن الله تعالى أرحم بالعبد من الوالدة بولدها، وأعلم بمصلحة العبد من نفسه، كذلك الشيخ أعرف بمصالح المريد. والإنقياد إلى الشيخ والتسليم شرط أهم بكل وجه.

الجذب

واعلم أن لجذب وحده من غير السلوك في الطريق المستقيم بامتثال أوامر الحق والإجتناب عن نواهيه لا نتيجة له أصلاً غير الدخول في البله. فغايته السلامة من مواطن الهلاك لسقوط التكلف به. وكذلك السلوك بامتثال الأوامر والإجتناب عن النواهي من غير جذب إلهي لا نتيجة له غير الدخول في حيز العلماء والعباد من أهل الظاهر القانعين بما يظهر عليهم من العلم والعبادة، فيراهم الناس، فيحمدونهم على ذلك، فيرفعون أقدارهم ويكونون في باطن الأمر على رياء وعجب وكبر وحسد وغرور وغفلة وغيرها من أمراض القلب. وتظهر هذه الواقعات شبهاً بالحيوان.

تلازم السلوك والجذب

وأما السلوك أولاً والجذب ثانياً أو بالعكس، فهذان هما شرط أهل الله وخاصته.

فالسالك المجذوب عالم وعامل بعلمه فورّثه الله تعالى علم ما لم يعلم، وكان فضل الله عليه عظيماً، والمجذوب السالك عامل عالم أخلص الله أربعين صباحاً فتفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، كما قال الله تعالى:

﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾

واعلم بأن الشريعة المحمدية، إذا تأملنا جميع الأحكام المشروعة فيها على الوجه المشروع دون البدعة، تدعو إلى تحصيل الجذب الإلهي.

وأما العمل بها على طريق البدعة فهي مبعدة عن الجذبة ولذا قبحت البدعة وزاد قبحها على فعل المعصية: والآيات والأحاديث وسير الأصحاب والتابعين والأولياء طافحة بذكر الجذب والصعق والخشية والبكاء. وقال الله تعالى:

﴿ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾[٢].

وقال عليه السلام: اللهم أعوذ بك من قلب لا يخشع.

وقد صح من بعض الصحابة: الصعق وكثر التأوّه والبكاء الشديد والإضطراب والضرب على الأرض وأمثال ذلك مما يدل على خشوع القلب.

علم الأحوال

وأما علم الأحوال والمنازل وما يجري مجراه وهو الذي اختص به أهل الفن فللناس فيه طريقان:

---

(٢) سورة الحشر، الآية ٢١ ـ ٥٩/٢١

طريق رؤية الحق من أول القدم والعمل على ذلك بالإنحياز إليه وهو طريق الشاذلية والنقشبندية ومن نحا نحوهم.

وطريق رؤية النفس واطلاع الحق عليها والعمل على ذلك وهمي وهي طريق الغزالي وسهروردي ومن جرى مجراهم.

يقول أهل الطريق الأولى: إن تعبد الله كأنك تراه

وأما الطريق الثانية: إن لم تكن تراه فإنه يراك.

واعلم أن طريق الإشتغال بالعلم وعلاج النفس يقال لها طريق البرهان لأنه ليس لأحد فيها مطعن ولا للضلال فيها مدخل ولكن لا يقدر عليها إلاّ فحول الرجال، وأما السلوك العامي بها فهو أن يصحح اعتقاده على عالم يثق بديانته، ويسأل عن علم حاله بوجه يشفيه ويضمن نفسه له، ويلزم التقوى والإستقامة بغاية جهده بعد التبصر فيما يتعلق بحاله، ولا يدخل فيما فيه احتمال وتأويل، ولا دخل من قول إمام معتبر غير إمامه. ثم يستند في أحواله لشيخ ناصح أو أخ قد جرّب الأمور فيأخذ في كل ما يبقى ويذر معه.

الفصل الواحد والثلاثون:

شروط الخلوة وطريق الوصول

إعلم أنه لا يمكن الوصول إلى معرفة الأصول والسعادة إلا بالخلوة، ولا بد منها للإرشاد التام لفعله (عم) فإنه حبب إليه الخلوة وكان يغلو بغار حرّاء فيتحنث أي يتعبد في الليالي ذات التعدد حتى جاء الحق وهو في الغار، وقد أمر بالدعوة إلى الحق لجميع الكفار.

شروط الخلوة

وللخلوة خمسة وعشرون شرطاً:

أولاً: النية مع الإخلاص لقطع مادة الرياء وطلب السمة بالكلية فإن صحت الخلوة مبنية على تلك القضية فالواجب على المريد الطالب الحق وإرادته أن يخلص له بقلبه وقالبه في جميع حركاته وسكناته وأن يقطع علائقه من الدنيا الفانية ويصحح غرضه، ويصدق مع الله في السر والعلانية.

ثانياً: أن يستأذن الشيخ في دخول الخلوة وأن يجعل التواضع لديه طبعاً، ولا يدخلها إلاّ بإذن الشيخ وحضوره.

ثالثاً: أن يدخل الخلوة ويصلي فيها ركعتين قبل دخول المريد ويتوجه إلى الله تعالى بتسهيل الأمر عليه وأن يجعله فيها سعيداً.

رابعاً: أن يدخلها كما يدخل المسجد رجله مقدماً اليمنى، مبسملاً، متعوزاً من شر النفس والشيطان بالله اللطيف، مخلصاً لربه ومولاه ومنقطعاً عما سواه.

خامساً: أن لا يعلق همته بكرامة تحصل له، فجميع المرشدين نفروا عن الميل إلى الكرامات جميع المريدين.

قال ابن عطاء الله[1]: ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها إلاّ نادته هواتف الحقيقة: ألا أنظر أمامك. ولا تبرجت ظاهر المكونات إلاّ نادته حقائقها: إنما نحن متنه فلا تكفر.

سادساً: أن تكون الخلوة مظلمة لا يدخلها نور الشمس ولا ضوء النهار فيسد على نفسه طرق الحواس الظاهرة، وسدّ طرقها شرط للفتح خواص القلب عند الأخيار ويلازم الوضوء، فإنه إذا داوم عليه أوشك أن تتلألأ منه الأنوار الاهية وتظهر عليه أتم الظهور لقوله (عم): الوضوء نور.

سابعاً: أن لا تستند إلى جدار الخلوة ولا تتكيء على شيء إذا كان مبنياً ملاحظاً قوله تعالى أنا جليس من ذكرني. ثم يلازم خيال شيخه بين عينيه فإنه رفيقه في طريقته وهو معه بمعناه وروحانيته.

---

(١) ابن عطاء الله السكندري صاحب كتاب **لطائف المنن**.

ثامناً: أن تشغل قلبك بمعنى الذكر مراعياً بمعنى الإحسان الذي له هباءك وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

تاسعاً: الصوم فإنه يصفي القالب من الرطوبة الحسية فيصفو القلب الكدورات البشرية.

عاشراً: أن تعتقد في نفسك أنك تدخل الخلوة لكي يستريح الناس من شرّك.

الحادي عشر: أن يكون السالك في خلوته متيقظاً لأعدائه الأربعة: الشيطان والهوا والدنيا ونفسه، وأن يكون تاركاً لغفلته فكلما يتجلى له في الخلوة من الصور فيقول له أنا الله، ويقول له إن الشيء الفلاني هو الله، فليقل: سبحان الله الذي ليس كمثله شيء، آمنت بالله. وليذكر جميع ما يراه ويخطر له لشيخه، ويشغل بالذكر حتى يتجلى له مذكوره، فإذا أفناه عن الذكر به أو النوم فتلك المشاهدة. فالمشاهدة تترك في المحل شاهدها فيقع اليقظ واللذة عقبها، وأما النوم فلا تترك شيئاً فيقع عقبها الندم والإستغفار.

الثاني عشر: لا يتكلم مع أحد في الخلوة أو خارجها إلاّ مع شيخه لغرض واقعة ضرورة البيان أو يكلم الخادم الذي أقامه الشيخ للفقراء بقدر حاجته، أو إذا تعين الكلام عليه شرعاً كالخوف من سقوط أعمى.

الثالث عشر: أن لا تكون الخلوة بعيدة عن حس الأصوات فإن القلب الرقيق يؤثر فيه الخواطر المذمومة ولو يسيراً وأثر القليل عليه كثير.

الرابع عشر: إذا خرج إلى الصلاة أو الوضوء فليطريء إلى الأرض غير ناظر إلى أحد.

الخامس عشر: المحافظة على صلاة الجمعة والجماعة فتركها خطأ وغلط. فإن وجد تفرقة في وجوده فليكن له رفيق ليصلي معه في خلوته وإلاّ فليحضر مع الجماعة بحيث يدرك مع الإمام تكبر الإحرام فإذا سلم الإمام انصرف إلى خلوته.

السادس عشر: نفي الخواطر مطلقاً دون التمييز بين الخاطر الإلهي والملكي والشيطاني والنفسي، إذ التمييز بينهما وبين معرفة أقسامها لا يكون إلاّ بتحصيل الأنوار. والمبتديء لا يسلم له هذا المقام فينبغي أن ينفي الجميع إلاّ يضيع أوقات حضوره مع الحق تعالى ولا يجوز للذاكر في مذهب أهل الذكر والخلوة أن يتفكر في معنى آية أو حديث أو غيرها إلاّ إذا أورد عليه معنى من المعاني في أثناء الذكر من التنبهات الإلهية والواردات الحقيقية من غير تدنيس الأفكار البشرية، فيفهمها ويُرجع الحضور فإن خاف النسيان فليكتبها سريعاً.

السابع عشر: أن لا ينام إلاّ عن علبة فإذا نام بالطهارة فإذاً لزم المجاهدة والإستراحة ضار ذلك ذنب الأركان الأربعة: المائية والترابية والهوائية والنارية، فيكشف الحجب البشرية، وينظر إلى عالم الملكوت بعين قلبه فيشتاق إلى مشاهدة ربه.

الثامن عشر: الملازمة لأوسط الأمور في جميع الأحوال حتى ينال رتبة الكاملين من الرجال فيكون بين جوع وشبع في الطعام. وقال بعض المتأخرين: ينبغي أن يكون طعام الخلوة دسماً من غير حيوان وما خرج من الأنعام.

التاسع عشر: إذا كان في خلوته لا يفتحها لمجيء الناس للتبرق أو الزيارة إليه فلينظر إلى حال الرسول في ابتداء أمره وإرادة تكميل

جمعيته على الله تعالى: كيف كان يتحنث في غار حرّاق بمكة ولا يستصحب أحداً (صلعم).

العشرون: ملازمة الذكر في لطيفة القلب ثم في لطيفة الروح. ثم في لطيفة السر، ثم في لطيفة الخفي ثم في لطيفة الأخفى والإثبات الذي كالمنشار يخرج من لطيفة القلب، يمر على اللطائف المعارضة إلى لطيفة الروح فيكون الذكر بلا إله إلاّ الله كالمنشار. وذلك وما بعده في در المسلوك في انتهاء غاية السلوك.

الحادي والعشرون: إذا شاهد شيئاً في الواقعة أو في النوم أو في اليقظة أو في الفهوانية[٢] لا يستحسن ذلك ولا يستقبحه، ولا يزيد عليه ولاينقصه، بل يعرض جميع ذلك على شيخه فإن الكتمان خيانة، والله لا يحب الخائنين. ولا يعرف تأويلة الذكر إلاّ الذاكرين.

الثاني والعشرون: وهو دوام تخيل صورة شيخه وهو الرابطة بينه وبين خالقه، فيجعل قلبه مربوطاً به لأن ذلك يجره إلى مراقبة ربه، والمراد بربط قلب المريد بشيخه واستحضار روحانيته معه إنما هو لدفع وسوسة الشيطان وترك الإثم والعدوان، فإنه إذا همّ بمعصية يتمثل له الشيخ فينزجر عن فعلها إن كان ربطه كاملاً على محبته دائماً.

الثالث والعشرون: دوام التوبة بالإستغفار عن الكبائر والصغائر وهفوات الخواطر، في كل يوم سبعين مرة.

الرابع والعشرون: أن لا يعين مدة للخلوة وقت دخوله كأربعين وعشرين وسبعة وثلاثة أيام ولا يحدث نفسه بذلك. فإن خطر له

---

(٢) **الفهوانية:** ما بين النوم واليقظة.

هذا الخاطر خرج من يوم دخوله بل يحدثها أن الخلوة قبرها لا يُخرجها منها إلى يوم النشور، وإخراج الناس من القبور، فيكون الأمر لشيخه متى أراد إخراجه.

الخامس والعشرون: أن يرى استمداد الحاصل له إنما هو من شيخه، واستمداد شيخه من النبي صلى الله عليه وسلم، فهو نائبه عنه، والنبي نائب عن ربه، فلو أن رجلاً جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلاّ بالرياضات عند شيخ مرشد كامل وإمام ناجح مؤدب بالشرع عالم بالفنون فما حُرم من حرم الوصول إلاّ بتضييع الأصول وترك الإقتداء بالدليل والسلوك في هوى النفس عن سوء السبيل.

فالمطلوب من العاقل العمل بما أمر به أفضل البشر ودوام ترك الإعتراض على كل ما يريد عليك من الله من خير أو ضر.

والإيمان بأن الخير والشر من الله بالقدر، وإن جميع الكائنات بمراد الله تعالى لا يكون إلا ما يريد وهو يقتضي التفويض والتسليم لله فيما قدر واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تضجر.

واعلم أن مبنى الطريق على ثمانية:

أركان الصوم والخلوة ودوام الوضوء والإحسان والرابطة وترك الإعتراض على الديان، والذكر في القلب والصمت للسان.

واعلم أن ذكر القلب هو أن يكون الحضور مع الله تعالى فيجمع هذا مع هذا وذكر الروح هو أن يكون الحضور مع الحق تعالى غالباً على الحضور مع الخلق، وذكر السر هو أن لا يكون له حضور مع غير الحق تعالى. ولا يكون له خبر عن الكون. وذكر الخفي هو أن يخفي وجود الروح خفاء الكون في السر، فلا يبقى غير المذكور.

واعلم أن المهلكات التي تحبط الأعمال ثمانية:

الغيبة، والرياء، والكبر، والعجب، والحسد ، وقلة الرحمة على الخلق، وإرادة الصيت عند الناس، وإرادة غير وجه الله تعالى.

واعلم أن مبنى الأعمال: على النية واتباع الشريعة. فمن ادعى أن الطريقة والحقيقة خلاف الشريعة فهو مبطل كاذب، وقوله هذا ليتوصل إلى ما أحدثوه في هذا الزمان الفاسد من معاشرة النساء الأجانب ويقول هذه بنتي وهذه أختي وأنا كأخيها، وتنظر إليه وينظر إليها، فهذا فساد عظيم.

قال الله تعالى في أزواج المطهرات: وإذا سألتموهن متاعاً فأسألوهن من وراء حجاب، فعدم الستر من عدم الحياء، والحياء من الإيمان فمن لا حياء له لا دين ولا إيمان له، قال (عم): الحياء دين كله، وقال: الحياء كله خير. [واعلم أن الحياء ثلاثة أقسام: حياء العام من التقصير في خدمة الله، وحياء الخاص من الإسراف في خدمة خالق الأنام، وحياء خاص الخاص للإجلال للحق والإعظام ونسأل الله الرضوان والإعتصام.

الفصل الثاني والثلاثون:

طريق القصد وآداب السلوك

قال الشاذلي: لطريق القصد إلى الله أربعة أشياء فمن حازها فهو من الصديقين المحققين، ومن حاز ثلاثاً منها فهو من الأولياء المقربين، ومن حاز اثنين منها فهو من الشهداء الموقنين، ومن حاز واحدة منها فهو من عباده الصالحين.

أولها: الذكر وبساطة العمل وثمرته النور.

الثاني: التفكر وبساطة الفكر وثمرته العلم.

الثالث: الفقر وبساطة الشكر وثمرته المزيد منه.

الرابع: الحب وبساطة بغض الدنيا وأهلها وثمرته الوصلة بالمحبوب.

آداب السلوك

أما آداب السلوك فاعلم أنه لا بد لمن أراد الوصول إلى مقام الكشف والشهود أن يخلص محبة الله تعالى عن محبة السوي ويفرد قصده لذاته تعالى لا لأجل الكشف والكرامات ويعبد مخلصاً لله لا للأجر والنجاة، ويطبق جميع أعماله على قانو!

الشريعة وميزان السنة، ويجرد قلبه عن غواش العلوم وشواغل الخواطر، ويزكي نفسه عن الأماني والآمال وأوساخ العناصر ويطلق روحه عن عقال القيود الجسمانية والعوائق الحيوانية، ويجعل عقله عن قيود القوى والحواس ويزكي أخلاقه عن الرذائل والمذمومات، ويجرد ذهنه عن العلائق البدنية والعادات الطبيعية. ويتوجه على الدوام إلى العوالم الروحانية والمجردات القدسية، ويستبعد عن مقتضيات البشرية، ويستغرب إلى الخصال الملائكة، ويترك الدنيا وما فيها ويعتزل أهل الدنيا، ويقطع النظر عن المخلوقات وينظر إليها بنظر العدم والفناء، ويعرض عن جميع الملذات والمحسنات.

ويجتنب عن جميع ما يفعله عنه تعالى ويلازم بجميع ما يتعلق بتوحيده تعالى، من الذكر وسائر العبادات ويجتهد على محو الرسوم ونفي التعلقات، ولا يطلب من الله بعمله أجر الآخرة إلاّ رضاه وأن يقصر طاعته على الفرائض والواجبات والسنن، وبعد ذلك لا يشتغل إلا بعمل يورث التوحيد والتجريد والتفريد لأن الوصول إليه تعالى لا يصير إلاّ بهذه الثلاث. ويترك الرخص والبدع والكسل والشهوة والغضب والعداوة، ويلازم العفة والحلم والإحسان، ويضطر على المجاهدات والرياضات والتفكير في المجردات والتوجه إلى الروحانيات، ويلازم الجوع والعطش وعري الجسد وترك النوم، ويختار الفقر والضرورة في كل حال. ويحفظ خاطره عن صور المعقولات والمحسوسات وهواجس النفس ووساويس الشيطان.

واعلم أن النفوس الإنسانية مرايا للتجليات، وبحسب كثافة المرآت وصداها تشرح في تلطيفها وجلائها وإياك والتحويل والتشديد فإن الحق أقرب من حبل الوريد.

قال شمس الدين الحنفي: خصت الشاذلية بثلاث. وذكر منها: إنهم مختارون من اللوح المحفوظ. ويحتمل أن يكون المعنى أنه اختار هذه الطريق ليدخلها من كان موصوفاً بصفات القسم الثالث وأقول وكذلك النقشبندية والسهروردية.

واعلم أن لتلاوة القرآن والأسماء الحسنى شؤوناً وأسراراً لكن لكل شخص قسم من الأذكار يناسب حالته الغالية على نفسه ويكون فتحه منه أقرب ويُعرف ذلك من المشايخ. وحكي عن بعضهم أنه كان يُجلس المريدين بين يديه ويتلو عليهم الأسماء الحسنى، فإذا أراد المريد متأثراً عند إسم منها أو أسماء أمره باستعمالها فيفتح عليه سريعاً. وذكر البوني كيفيتها في شمسه. وهي:

أن ينظر الشخص من نفسه إل نوع من أنواع العبادات والذكر أو العلوم فيستكثر من ذلك، وقال في شرح المباحث حتى سلك قوم بالمنطق وقوم بالطبيعيات وقوم بالحكمة وقوم بالفقه، وقوم بالحدث وهما أقرب إذ هما أحد أركان الطريق.

ومن الناس من يخرج من ذلك كله فيراعى من كل أحد ما تقتضيه قواه الطبيعية بدل قواه الحقيقية.

لأن من سار إلى الله بطبع كان وصوله إليه على قدر بعده عن طبعه وذلك يقتضي الإستهلاك قبل الوصول فلا يتنعم برؤية إلاّ في آخر نفس من وجوده ولذا قال أبو العباس: بنو العجم مذاهبهم على التجريد فلا يصلون إلى الحق إلاّ في آخر رمة، والمغاربة بنوا طريقهم على رؤية الحق والفناء فيه بأول قدم، فهم ينعمون من أول قدم.

وعلى هذا طريقة الشاذلية والنقشبندية.

قال (عم): الإيمان يماني والحكمة يمانية وإني لأجد نفس

الرحمان من حية اليمن، قال في لطائف المنن[1]: مبنى طريق الشاذلي والنقشي على الجمع على الله، وعدم التفرقة، وملازمة الخلوة والذكر، وكان لكل مريد سبيل يحمله عليه فيسلك، وكان يأمر أصحابه بالجمع على محبته، وكان لا يأمر بترك حرفته أو تجارته، بل يعرّفه الطريق وهو باق على حاله، وكان يكره كل من ينادي على سر صاحبه بالإفشاء. وكان يقول عن شيخه: أصحبوني ولا أمنعكم أن تصحبوا غيري، فإن وجدتم منهلاً أعذب من هذا المنهل فردوا. وكان لا يحب المريد الذي لا سبب له.

وكان أبو العباس يحق على الحرفة ويقول: عليكم بالسبب، وليجعل أحدكم مأكوله سبحته أو تحريك أصابعه في الخياطة.

(١) **لطائف المنن** كتاب: ألّفه الإمام الجليل إبن عطاء الله السكندري. والكتاب يتحدث عن شيخصيتين هما في القمة من السمو الروحي: الإمام الكبير أبي الحسن الشاذلي، والإمام الكبير أبو العباس المرسي. وأبو العباس المرسي هو واحد من تلاميذ أبو الحسن الشاذلي.

الفصل الثالث والثلاثون:

العزلة والخلوة والذكر على طبع كل شخص

واعلم أن العزلة والخلوة معروفتان، وهما مطلوبتان شرعاً. قال الله (تع) حكاية عن ابراهيم (عم):

واعتزلكم وما تدعون من دون الله.

إلى قوله وكلا جعلنا نبيا.

وقال الله: وكفى بربك هادياً ونصيراً.

وقال النبي (عم): أحب الناس إلى الله تعالى الفرارون بدينهم يبعثهم الله مع عيسى بن مريم يوم القيامة.

وقال أهل الحقيقة: الخلوة صفة أهل الصفوة والعزلة من أمارارت الوصلة ولا يريد للمريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه، ثم في نهايته من الخلوة لتحققه بإنسه.

[والعزلة نوعان:

- عزلة العوام وهي مفارقة الناس بجسده طلباً لسلامتهم من شره لا لسلامته من شرهم.
- والعزلة على الوجه الأول صفة الأتقياء لأنها نتيجة احتقان

النفس واستصغارها وعلى الوجه الثاني صفة الشيطان.

- وعزلة الخواص وهي مفارقة الصفة البشرية إلى الصفات الملكية.

قال أبو علي الدقاق: إلبس مع الناس ما يلبسون وكل معهم ما يأكلون، وافرد بسرّك.

[وفي العزلة فوائد منها: السلامة من الغيبة والرياء والنفاق والإشتغال بزينة الدنيا ولهوها، والأمان من ملل الأصدقاء، وستر الفاقة عن العدو والشامت، والصديق المتوجع، والتفرغ للنظر في العلم، واستنباط الحكمة، [ومن أراد العزلة فينبغي أن يحصل قبلها من العلم مايصح به عقدة توحيده لكيلا يستهويه الشيطان بوساوسه، وما يصح به فرائض الله تعالى عليه ليكون بناء أمره على أصل محكم وأساس قوي، وأن تكون عزلته خالية من كل شيء سوى ذكر ربه، وأن تكون إرادة ربه هي الإرادة الوحيدة، [ثم يأخذ نفسه في عزلته بتأديبها وتهذيبها بمكارم الأخلاق ومحاسن العادات والعبادات. [والحاصل أن العزلة الحقيقية عند القوم اعتزال الصفات المزمومة ومفارقتها.

قال أبو زيد البسطامي: رأيت ربي في المنام فقلت كيف أصل إليك. قال: فارق نفسك وتعال.

وقال يحيى بن معاذ: من كان أنسه بالخلق ذهب أنسه إذا فارقها، ومن كان أنسه بالله في الخلق استوت عنده الأماكن كلها.

وقال أبو بكر الوراق: وجدت خير الدنيا والآخرة في العزلة والخلوة وشرهما في الخلطة.

وقال الشبلي : علامة الإفلاس الإستئناس بالناس.

وقيل: إذا أراد الله أن ينقل العبد من ذل المعصية إلى عز الطاعة أنسه بالوحدة وأغناه بالقناعة وبصره عيوب نفسه، فمن أعطى ذلك فقد أعطى خير الدينا والآخرة.

واعلم أن التوفيق للعزلة، دليل سعادة الأبد لأن من خالط الناس دارهم، ومن دارهم رآهم ومن رآهم نافقهم، ومن نافقهم استحق الدرك الأسفل من النار. ينص الكتاب العزيز: وعليك بمحو إسمك من صحايف القلوب وصفايح الألسن. [فإن العرفاء بلاء مناقص والخامل كامل وطالب الإسم والرسم ظاهره عامر وباطنه خراب وطالب الحق والحقيقة باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب.

الفصل الرابع والثلاثون:

خواص الخلوة والأربعين وآفاتهم ومكرهم

واعلم أنه قد خلط في طريق الخلوة والأربعينية قوم حرّفوا الكلام عن مواضعه ودخل عليهم الشيطان وختم عليهم باب الغرور ودخلوا الخلوة على غير أصل مستقيم من تأدية حق الخلوة بالإخلاص. وسمعوا أن المشايخ والصوفية كانت لهم خلوات وظهرت لهم وقائع، وكشفوا الغرائب والعجائب، فدخلوا الخلوة لطلب ذلك. وهذا عين الاعتلاال ومحض الضلال. بل إن الخلوة والوحدة والعزلة لسلامة الدين، وتفقد أحوال النفس وإخلاص العمل لله. بل قالوا: لن يصفو للعاقل فهم الأخير إلاّ بإحكام ما يجب عليه من إصلاح الحال الأول والمواطن التي يجب على السالك، فهو أن يكون: [خالياً من جميع الأذكار إلاّ ذكر ربه.

وخالياً من جميع المرادات إلاّ مراد ربه.

وخاليا من مطالب النفس من جميع الأسباب.

فإن لم يكن من هذه الصفة فإن خلوته توقعه في فتنة أو بليّة.

وقال محمد بن حامد: خير الدنيا والآخرة في الخلوة والقلة، وقد وجد شرهما في الكثرة والإختلاط. [فمن دخل الخلوة معتلاً

في دخوله دخل عليه الشيطان وسوّل له أنواع الطغيان وامتلاء من الغرور بغير شروطها وأقبلوا على ذكر من الأذكار واستجمعوا نفوسهم بالعزلة عن الخلق ومنعوا الشواغل من الحواس بفعل الزهابين والبراهمة والفلاسفة، وكلما كَثُرَ من ذلك كثُرَ البعد من الله، ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية أو بما قد يُرابا له من صدق الخواطر وغير ذلك حتى يركن إليه كل ركون ويظن أنه قد ظفر بالمقصود. والله يريد الإستقامة وأنت تطلب الكرامة، [وقد يفتح على الصديقين شيء من خوارق العادات وصدق الفراسة وتتبين ما سيحدث في المستقبل، وقد لا يفتح ولا يقدح في حالهم عدم ذلك، وإنما يقدح الانحراف عن حد الاستقامة. فما يفتح من ذلك على الصديقين يصير مزيداً ليقينهم والداعي لهم إلى صدق المجاهدة والمعاملة والزهد والأخلاق الحميدة، وما يفتح من ذلك على من ليس بسياسة الشرع يصير سبباً لمزيد بُعده وغروره وحماقته واستطالته على الناس به حتى يخلع ربقة الإسلام عن عنقه وينكر الحدود والأحكام.

الفصل الخامس والثلاثون:

أخذ الطريق ولزوم السلوك

واعلم أن اتخاذ الشيخ وأخذ الطريق ولزوم السلوك فقد قالوا إن العادة جرت بأن الوصول إلى التطهر من النجاسة المعنوية وإدناس الطوية والحضور والخشوع في الصلاة وسائر العبادات، بحيث أن تعبد الله كأنك تراه لا يتيسّر إلاّ بالسلوك على يد شيخ عالم كامل بعلاج هذه الأمراض والحكمة بالتعامل معها بالعلم والذوق والتجربة.

ولو خطّ المبتلي بالأخلاق الذميمة السابقة كتباً متعددة لا يستغنى بها عن تربية مثل هذا الشيخ ليخرجه من رعونات نفسه الأمّارة، ودسائسها الخفية.

وقال الشعراني في الأنوار القدسية: وقد أجمع أهل الطريق على وجوب اتخاذ الإنسان له شيخاً يرشده إلى زوال تلك الصفات التي تمنعه من حضرت الله بقلبه لتصح صلاته من باب ما لا يتم الواجب إلاّ به.

ولا شك أن علاج أمراض الباطن كأنه واجب كما بشهده الآيات والأحاديث الواردة في تحريمها والوعيد بالعقاب عليها.

واعلم أن كل من لم يتخذ له شيخاً يرشده إلى الخروج عن هذه الصفات فهو عاصي لله ولرسوله. وهو لا يهتدي لطريق العلاج ولا ينفع تكلفه بغير شيخ، ولو حفظ ألف كتاب فهو كمن يحفظ كتاباً في الطب ولا يعرف وصف الدواء للداء فإذا سمعه السامع وهو يدرس في الكتاب يقول إنه طبيب عظيم ومن رآه حين يُسال عن إسم المرض وكيفية علاجه قال إنه جاهل.

فاتخذ لك شيخاً ولا تمضي، وتفكّر بالأبدية والآخرة، وإياك أن تقول: طريق الصوفية لم يأت لها كتاب ولا سنّة فذلك كفر، فالصوفية كلها أخلاق محمدية وسيرة أحمدية وسنن إلهية.

وقال الشعراني في الجواهر: سئلت عن الدواء الذي إذا استعمله العبد زال عنه الرياء والإعجاب بأعماله فقلت الإكثار من ذكر الله تعالى حتى يتجلى في قلبه التوحيد الحقيقي ويرى أعماله خلقاً لله وحده فهناك لا يصير عنده رياء ولا إعجاب ولا تكبر على أحد العصاة لأن العبد لا يرائي قطر بعمل غيره ولا يعجب فيه بنفسه ولا يحصل عند دعوى، فإن قيل فهل له دواء غير التوحيد من الأعمال قلت لا أعلم له دواء أسرع من التوحيد، وهو الذي وضعه جميع أهل الطريقة للمريدين فطووا به الطريق، وقد أخطأ ذلك طائفة من العباد الذين شغلوا نفوسهم بتلاوة القرآن والصلاة والصوم وما أتوا على ريائهم ورؤية أعمالهم. ولم يخلصوا في شيء منها.

وقال الشعراني أيضاً في الأجوبة المرضية: وقد كان عز الدين عبد السلام يقول قبل أن يجتمع بالشيخ أبي الحسن الشاذلي: وهل ثم طريق يقرّب إلى الله تعالى غير ما بأيدينا من الفقه، فما اجتمع بالشيخ أقرّ طريق القوم بقوله: من أدل دليل على صحة طريق القوم

أن أهلها قعدوا على قواعد، وقعد غيرهم على الرسوم. ولا يقع أية كرامة حتى على يد الفقهاء مهما يلغوا من العلم إلاّ بتتبع طريق الصوفية.

وقال الشاذلي: كان الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه يقول لولده عبد الله، يا ولدي عليك بالحديث وإياك ومجالسة هؤلاء الذين سمّوا أنفسهم صوفية فإنهم ربما كان أحدهم جاهلاً بأحكام دينه فلما صحب أبا حمزة البغدادي وعرف أحوال القوم كان يقول لولده: يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة.

وقال فيه أيضاً: وبلغنا أن الإمام الشافعي رضي الله عنه كان يجالس الصوفية ويقول: يحتاج الفقيه إلى معرفة اصطلاح الصوفية ليفيدوه من العلم ما لم يكن عنده.

وقال فيه أيضاً: فلا يقال لو كان علاج هذه الأمراض الباطنة واجبة لوضع الأئمة عن الصحابة والتابعين والمجتهدين في ذلك كتاباً ولم تر لهم كتاباً فيه لأننا نقول إن هذه الأمراض الباطنة التي حدثت فينا لم تكن في عصرهم، ولو كانت فيهم لاستنبط المجتهدون في ذلك أدوية وكتباً، وخلصوا الناس من الرياء والتفاف والعجب وغيرها كما فعلوا ذلك في مسائل الفقه. قال (صلعم) ليس الجهاد أن يضرب بسيفه في سبيل الله، إنما الجهاد من عال والديه ومال ولده فهو جهاد، ومن عال نفسه في كفها عن الناس فهو في جهاد.

وقال القشيري أول ما حدث ظهور الأمراض الباطنة أواخر المائة الثالثة لقوله عليه السلام خير القرون قرني، ثم الذي يليه ثم الذي يليه فمن شهد له رسول الله (صلعم) بالخيرية فقد حاز رتبة الكمال

كله وقال في الأجوبة. وكان الإمام الشافعي وامهد يترددان إلى مجلس الصوفية ويحضران معهم في مجالس ذكرهم فقيل لهم مالكما تترددان إلى مثل هؤلاء الجهال فقالا: إن هؤلاء عندهم رأس الأمر كله وهو تقوى الله عز وجل ومحبته ومعرفته.

وقال: في مشارق الأنوار أخذ علينا العهد العام من رسول الله (صلعم) أن لاتقتر بحفظ العلم الذي يطلب منا العلم به من غير عمل، كما عليه غالب الناس اليوم وليس السلف هكذا.

ثم قال: ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد السلوك على يد شيخ ليرتقيه إلى درجات المراقبة لله تعالى، والخوف منه كما كان عليه العلماء السلف.

وسمعت شيخ الإسلام زكريا يقول: كل فقيه لا يجتمع بالصوفية، فهو كالخبز الجاف.

وسمعت السيد علي الخواص يقول: لا يكمل طالب العلم إلاّ بالإجتماع على أحد من مشايخ الطريق ليخرجه عن رعونات نفسه ومن الخطرات. ومن لا يجتمع إلى أهل الطريق لازمه التلبيس غالباً.

روى مسلم وغيره إني أعوذ بك من نفس لا تشبع ومن علم لا ينفع.

وروى الطبراني: كل علم وبال على صاحبه إلاّ من عمل به.

وفي رواية عنه: أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه.

وقالوا: لم يفرح أحد من أهل الله بشيء من أمور الدنيا والآخرة وتساوى عندهم تسبة ذلك إليهم وسلبه عنهم لأن أحداً منهم لا

يشهد له ملكاً مع الله في الدارين، وهذا الأمر لا يُنال إلاّ بالسلوك على يد شيخ فاضل.

وإن أردت العمل بذلك المشهد النفيس فاطلب لك شيخاً يرشدك إليه وإلاّ فلا سبيل لك إلى ذلك، ولو عبدت الله بعبادة الثقلين.

من هنا فرّق السالكون والعابدون فربما مكث العابد على علة خمس مائة سنة والسالك يخرج عن العلة من أول قدم يضعه في الطريق. لأن بداية الطريق التوحيد لله تعالى في الملك ثم الفعل ثم الوجود، فالعابد لا يذوق لهذه الثلاثة طعماً، فوالله لقد فاز من كان له شيخاً وخسر من لم يتخذ له شيخاً، واتخذوا ولم يسمع نصحه.

وقال بعض الأكابر شراح الحكم العطائية: قال حضرة خواجة بهاء الدين النقشبندي قدس سره: أقرب الطرق إلى الله عندنا نفي الوجود وإن كان الصيام والصلاة طريقاً إلى الحضرة الأحدية، ولا يتم الوصول بها إلاّ بنفي الوجود فلذلك كان السالك يجد من المدد في الباطن والظاهر ما لا يجده في الصوم والصلاة لأنها تنقي وجود السالك وتضمحل معها أوصافه ويصير عبداً خالصاً لمولاه وتحفه ألطافه فلا تلتفت إلى سائر أورادك ما عدا الواجبات والرواتب.

الفصل السادس والثلاثون:

مخالفة النفس والقلب الحقيقي وأدلته

واعلم أن مخالفة النفس ومدافعة مراده فرض عين وجهاد عظيم وأمر فخيم. قال الله تعالى: وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى.

وقال (عم): أخوف ما أخاف على أمتي اتباع الهوى وطول الأمل. وأما اتباع الهوى فيصدّك عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة. [واعلم أن مخالفة النفس والتجرد عن خطوطها رأس العبادة لأنه أعظم حجاب بين العبد والرب، ومن طلعت طوارق نفسه غربت شوارق أنسه، ومن رضى عن نفسه أهلكها.

وكيف يصح العاقل الرضي عن نفسه. وقال يوسف الصديق (عم): وما أبرّ نفسي أن النفس لأمّارة بالسوء.

وقال السري: طالبتني نفسي ثلاثين سنة أو أربعين أن أغمس جوزة في دبس فما أطعتها.

وروى رجل جالساً في الهوى فقيل: بما نلت هذا. قال: بترك الهوى فتسخر لي الهوى.

واعلم أن النفس الأمّارة بالسوء شيطان له سبع رؤوس:

الشهوة والغضب والكبر والحسد والبخل والحرص والرياء.

فرأس الشهوة يقطع بالرياضة، والإقلال من مشاركة البهائم في الأكل والشرب، [ورأس الغضب يقطع بالحلم، [ورأس الكبر يقطع بالتواضع، [ورأس الحسد يقطع باعتقاد أن الملك الله وأن الناس عبيده فيهب لمن يشاء من عبيده ما يشاء من ملكه: إما بطريق إنه أعلم بمصلحة كل واحد منهم أو بطريق إنه يتصرف في ملكه كما يشاء ويختار،[ورأس البخل والحرص يقطع بعز القناعة وبالنظر الصحيح في أن البخيل الحريص يلقي نفسه في الأمور الخبيثة الدنيئة، ويعرض عرضه للذم ونفسه للكد والتعب والهوان مدة عمره، ويكابد مشقة الجمع والتحصيل ويفوت على نفسه الإنتفاع بما رزقه الله تعالى، ثم يموت وينتفي بذلك غيره ويبقى عليه وزره وحسابه، [ورأس الرياء بقطع بالإخلاص الذي يثمر أنواع الخيرات والبركات الدينية والدنيوية.

القلب

ثم إعلم أن منبع قوى الإنسان الطبيعية والمزاجية وما يتبعها من الصفات والأخلاق والأفعال قلبه، وهو مرآة الروح الإلهي المدبر للبدن لكن بواسطة الروح الحيواني المحمول في الصورة الضيائية الحاصلة في التجويف الأيسر الصنوبري.

والروح الإلهي المشار إليه بقوله: وسعني قلب عبدي المؤمن (الحديث).

فمن تخفيه المطالب الكونية فإنه يهزل هزالاً معنوياً، وكما يضعف ماء النهر العظيم إذا قسم جداول شتى فيضطر إلى طلب الإستمداد والتقوى بأمور خارجية طالباً إيصالها إلى نفسه واتصالها به.

النفس

ثم إعلم أن النفس شأنها عظيم وأمرها خطير وقد جاء في التحذير منهاالآيات والأحاديث، والحث على تزكيتها، والتبرؤ منها، والإخلاص عنها.

فمن الآيات قوله تعالى: ﴿أيا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغدٍ[1]

وقوله: ﴿قد أفلح من زكيها وقد خاب من دسيٰها﴾

وقوله: ﴿وما أبري نفسي أن النفس لأمّارة بالسوء إلاّ ما رحم ربي﴾.

ومن الأحاديث

قوله (عم): أعدى أعداءك نفسك التي بين جنبيك.

وقوله (عم): ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب.

وعلى جميع المسلمين وجوب مراقبة الله وتهذيب النفس وتزكية أخلاقهم على كل من لم يرزق قلباً سليماً.

وهذه النفس مذمومة عند كل شخص وعند كل زمان.

[بل إن جميع الملل متفقون على ذم النفس ولتحذر من مكرها وخداعها وعدم الميل إلى عروقها.

[فلذلك جعل أئمة الطريق الأول إشتغال المريد بقهر النفس ورياضتها ومخالفة هواها وقطع مألوفاتها وشهواتها، وأمروا بالحذر منها ومن مكرها، وألزموها بمحاسبتها.

---

(١) سورة الحشر، الآية ١٨ ـ ١٨/٥٩

وقال (عم): حاسبوا نفسكم قبل أن تُحاسبوا.

[ومعرفتها باب لمعرفة الله بمقتضى حكم الله، ولذا قال (عم): من عرف نفسه فقد عرف ربه والجهل بالله حرام فمعرفة الله واجبة بالنفس وهي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحيوان والحس والحركة الإرادية سماها الحكيم الروح الحيواني، وهي جوهر مشرق للبدر: فعند الموت ينقطع ضوءه من ظاهر البدن وباطنه، وأما وقت النوم فيقطع ضوءه عن البدن دون باطنه، وقد ثبت أن علاقة النفس بالبدن على ثلاثة وجوه:

الأول: إذا بلغ ضوء النفس على جميع أجزاء ظاهر البدن وباطنه وهذه هي اليقظة.

الثاني: إذا انقطع ضوء النفس عن ظاهر البدن دون باطنه فهو النوم.

الثالث: إذا انقطع ضوء النفس عن البدن فيكون الموت.

النفس الأمّارة: هي التي تميل إلى الطبيعة البدنية وتأمر باللذات والشهوات الحسية وتجذب القلب إلى الجهة السفلى فهي مأوى الشرور ومنبع الأخلاق الذميمة.

النفس اللوّامة: وهي التي تنورت بنور القلب قدر ما تنبهت به عن سنة الغفلة كلما صدرت منهاسيئة بحكم جوابيتها الظلمانية فأخذت تلوم نفسها وتتوب عنها.

النفس المطمئنة: والنفس المطمئنة وهي التي تم تنوّرها بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة وتخلقت بالأخلاق الحميدة.

النفس النباتية: هي كمال أول في الجسم الطبيعي الآتي من ما يتولد ويتغذى.

النفس الحيواني: هي كمال أول بجسم طبيعي آتٍ من جهة ما يدرك الجزئيات وبتحريك بالإرادة.

النفس الإنسانية: هي كمال أول بجسم طبيعي آتٍ من جهة مايدرك الأمور الكلية ويعقل الأفعال الفكرية.

النفس الناطقة: هي الجوهر المجردة عن المادة في نفسها أي في ذاتها مقارنة لها في أفعالها.

النفوس الفلكية: النفوس الفلكية: فإذا سكنت النفس تحت الأمر وزايلها الإضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت مطمئنة.

وإذا لم يتم سكونها ولكن صارت مدافعة للنفس الشهوانية متعرضة(٢) عليها سميت لوّامة لأنها تلوم صاحبها عن تقصيرها في عبادة ربها.

وإن تركت الإحتراز وأزعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات أو دواعي الشيطان سميت أمّارة.

النفس القدسية: هي التي لها ملكة استحضار جميع مايمكن للنوع وقريباً من ذلك على وجه يقتضي وهذا نهاية الحدس والفطانة والقوة.

النفس الرحماني هي عبارة عن الوجود العام المنبسط على الأعيان عيناً وعن الهيولى الحاصلة بصور الموجودات، والأول مرتب على الثاني سمي به تشبيهاً بنفس الإنسان.

---

(٢) والصحيح معترضة.

الفصل السابع والثلاثون:

أنواع النفس وطريق المجاهدة والرياضة

إعلم أن طريق المجاهدات والرياضات فإنه لا يمكن للسالك أن يصغي روحه ويزكي نفسه ويظهر ذاته إذا كانت اللذات الحيوانية مستعلية على روحه والشهوات الجسمانية متغلبة على نفسه والقاذورات الطبيعية مختلطة بداته، ولا بد لمن أحب تصفية روحه وتذكية نفسه وتطهر ذاته أن يتريض بريضات حكماء الإسلام ويجتهد بمجاهدات العلماء العاملين حتى يستولي على روحه وعلى نفسه، ويتخلى عن أحكام جميع القوى الظلمانية وأكواس الجسمانية. وذلك لا يمكن أن يتم إلاّ بأن يجرد روحه عن الشواغل العنصرية ويمنع نفسه عن الشهوات الحيوانية ويدفع عنها الصفاة الذميمة الطبيعية ويحفظ ذاته عن الرذائل الدنياوية التي تجر إلى أسفل السافلين.

بعد ذلك التجريد لا بد له أن: [يكون قائماً بأوامر الشريعة وهارباً عن نواهيها وأن يكون في جميع أموره على اتباع واقتفاء آثار الصحابة، ويترك هذه الدنيا الدنية إلاّ بقدر الضرورة ويترك الخلطة مع أهل الدنيا وطالبيها ويختار العزلة عن أحبابها ويلازم

العطش ويداوم على سهر الليالي ولا يتكلم إلاّ عند الحاجة، ويخالفها في الأمور كلها، ويترك هواها، ويتوجه في جميع الأوقات إلى خباب مولاه، ويعرض على كل حال عما سواه.

إن دوام السالك على الرياضيات والمجاهدات يصفي روحه عن الكدورات العنصرية، وتتذكى نفسه عن القاذورات الطبيعية وتتطهر ذاته عن أية موانع للتقرب إليه تعالى.

معرفة النفس

واعلم أن معرفة النفس فرض عين لكل فرد من أفراد الإنسان لأن معرفة الرب موقوفة على معرفة النفس لقوله (عم): من عرف نفسه فقد عرف ربه.

ونفيد بذلك هو أن من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه. فمعرفة الرب فرض عين لأن عبادة الرب تعالى تتوقف على معرفته تعالى، فمن لم يعرفه لم يعبده لقوله تعالى:

﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون﴾.

فكل ما يتوقف عليه فرض فهو فرض، فمعرفة النفس فرض عين.

ثم اعلم أن من لم يعرف نفسه وهي في جسده لا يعرفها بعد المفارقة عن جسده ولا يعرف ربه أيضاً كما أشار إلى ذلك تعالى بقوله:

﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى﴾.

والحاصل أن معرفة النفس منبع العلوم والحكم وصدر الفضائل والشيم ومصباح كشف أحوال الملكوت ومشكاة شهود أسرار الجبروت، ومعارج الوصول إلى حضرة اللاهوت.

فما كَمُلَ أحد من بني آدم إلاّ بمعرفة نفسه ولم يتخذ الله تعالى ولياً إلاّ من اتصف بمعرفة نفسه.

نور الله

ثم إعلم أن معرفة النفس لا تحصل بنظر عقلي إنما تحصل بنور يقذفه الله في قلب عبده. [ولا يقذف الله ذلك النور إلاّ في قلب من تمسك بحبل الشريعة الغرّاق وتثبت بذيل السنّة العليا مع الرياضات العالية والمجاهدات المتوالية، وتذكية النفس عن الصفاة الردية بالأخلاق الحميدة.

بعد ذلك يقذف الله تعالى في قلبه نوراً من عنده وبذلك النور يعرف نفسه ثم يعرف ربه.

ولا يظن أحد أن تلك المعرفة تحصل بقراءة الكتب الشرعية وبمطالعة الكتب السفية من غير مجاهدة بالأعمال الصالحة وبغير تذكية النفس وتجريدها عن الشواغل البدنية.

الفصل الثامن والثلاثون:

معرفة النفس والحرية وعلامتها

واعلم أن الحرية في اسطلاح أهل الحقيقة الخروج عن زف الكائنات وذروتها وقطع جميع العلائق ولهذا قال ابراهيم بن أدهم: الحر هو من خرج من الدنيا قبل أن يخرج منها، وعلامة الحر سقوط التمييز عن قلبه بين أمور الدنيا والآخرة فلا يسترقه[1] عاجل دنياه ولا آجل عقباه.

قال (صلعم): عزفة نفسي عن الدنيا فستوى عندي حجرها وذهبها.

فالحر يورث الخلق بجميع الكائنات من الدارين ولا يكون له سؤال ولا قصد ولا أرب ولا حظ.

ومقام الحرية عزيز ويعظم من خدمة الفقراء.

قال (عم) سيد الناس خادمهم والأحرار هم الذين قال الله تعالى في حقهم:

﴿ويؤثرون على أنفسهم لتجردهم عما خرجوا منه وآثروا به﴾

---

(١) يجعله عبداً.

وقال عليه السلام:

﴿إنما يكفي أحدكم ما قنعت به نفسه﴾.

علم الباطن وترغيب الطريق وتمام التوبة

إعلم أن الباطن الذي هو من أعظم المنجيات والسلوك والرياضات والمجاهدات فرض عين على من لم يرزق قلباً سليماً بالجذب الإلهي والعلم اللادوني والنفس القدسية الفطرية.

وأحكام الدين إنما تبنى على الأكثر الأغلب: فتعلم علم الظاهر لا يغني عن إسفادته كما يثبت ذلك عن كثير من العلماء الأكابر المتقدمين والمتأخرين:

من الحنفية: كابن الهمام وابن الشلبي وشرنبلالي وخير الدين الرملي والحموي وأمثالهم.

ومن الشافعية كسلطان العلماء عز الدين والغزالي والسبكي السيوطي وشيخ الإسلام والقاضي ذكريا شهاب بن حجر.

ومن المالكي: كالعارف أبي الحسن الشاذلي وخليفته أبو العباس وخليفته ابن عطاء الله، والعارف ابن حمزي وناصر الدين والزروقي وغيرهم.

ومن الحنابلة كالشيخ عبد القادر وفخر الإسلام والشيخ عبد الله الإنصاري وابن النجار ونحوهم.

فإن هؤلاء العلماء الكرام بعد التضلع من علوم الظاهر اشتغلوا بتحصيل علوم الباطن واستفادها من أهلها بالصحبة والخدمة والسلوك وحسن الإعتقاد والإخلاص والتخلية من الرزائل والتحلي بالفضائل.

نقل بعض العلماء قال: رأيت الغزالي في البرية وعليه مرقعة

وبيده عكاز وركوة فقلت له: يا إمام أليس التدريس في بغداد أفضل من هذا فنظر إلي شزراً وقال: عندما بزغ بدر السعادة في فلك الإرادة وحان أصول الوصول تركت ليلي وسعدي بمعزل وعدت إلى مصحوب أول منزل ونادت بي الأشواق مهلاً فهذه منازل من تهوى رويدك فانزل.

[وقد شهد بموجوب تعلم علم الباطن كثير من الكتب المعتمدة كتحفة المحتاج لإبن حجر.

قال الخطيب الشربيني من الشافعية في شرح العناية: وتنقسم الطهارة إلى واجب ومسنون ثم الواجب ينقسم إلى واجب بدني وواجب قلبي. فلقلبي كالحسد والعجب والرياء والكبر ونحوها.

وقال الغزالي معرفة حدودها وأسبابها وطبها وعلاجها فرض. وقال خاتمة المتأخرين الشيخ أبو بكر: وأما علم الباطن كالعلم بأمراض القلب من الرياء والعجب والحسد والكبر والبخل والحرص والحقد وما يتولد منها، والعلم بحدودها وعلاجها، والعلم بتحصيل اضدادها من الرضاء بالقضاء والقناعة وتحقير النفس والإخلاص والتواضع والصفاء والسخاء.

علم القلب

وأما علم القلب فهو ذوقي ووجداني لا يمضغ تحت ألسنة الأقلام، ولا تحيط به الدفاتر وهو بمقابلة العلم الظاهر بمنزلة الثمر للشجر لا انتفاع إلاّ بثمره.

قال محمد البركوي: واقبح العجب، العجب بالرأي الخطأ، فيفرح به ويصر عليه ولا يسمع نصح ناصح بل ينظر إلى غيره بعين الإستجهال.

وقال الله تعالى: أفمن زين له سؤ عمله فرآه حسناً وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

[وجميع أهل البدع والضلالة إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم، وعلاج هذا العجب أعسر وأصعب. إذ إن صاحبه يظنه علماً لا جهلاً، ونعمة لا نقمة، وصحة لا مرضاً، ولا يطلب العلاج، ولا يصغى بالأطباء، وهم علماء أهل السنّة والجماعة.

قلت: والمراد علماء الآخرة الذين إذا رأوا ذكر الله ولا يشقى جليسهم وهم الأولياء الجامعون للعلم الظاهر والباطن والشريعة.

وقال الشرنيلالي: شرطت الطهارة الشرعية ليصير العبد أهلاً للعبودية والقيام بخدمة الربوبية ولا ينفعه ذلك حقيقة إلاّ بإخلاص الطوية وتطهيرها عن الأدناس المعنوية، إذ هي آخر من النجاسة الحقيقية كالغل والغش والحقد والحسد وغيرها، ويصلح قلبه ليصح به سائر الجسد فيطهر قلبه عما سوى الله من الكونين بقطع العلائق عن جملة الخلائق وما تطمع إليه النفوس، فلا يقصد إلاّ الله الذي يعبد لاستحقاقه العبادة لذاته وامتثال أمره ملاحظاً جلاله وكبرياءه لا رغبة في جنة ولا رهبة من نار لأنه تعالى من حقه أن يعبد. كما قال تعال: وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون.

التوبة

أما التوبة النصوحة فهي التوبة البالغة، وقيل هو أن يتوب ولا يعود إلى ما تاب عنه أبداً. وقال يحيى بن معاذ: زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين زلة قبل التوبة. وقال ذو النون: الإستغفار من الذنب من غير إقلاع عنه توبة الكاذبين.

ثم إعلم أن أول مقدمات التوبة انتباه القلب من رقدة الغفلة

ونظر العبد فيما هو عليه من سوء الحال والإصغاء إلى زواجر الشرع بسمع القلب، ولهذا قال عليه السلام واعظاً الله تعالى في قلب كل مؤمن.

وثاني المقدمات: هجران رفقاء السوء لأنهم يمنعون عن التوبة قولاً وفعلاً. ومن تاب ثم لم ينقض توبته فهو من السعداء، وإن نقضها مرة ومرات ثم جدّدها فإنه يرجى له أيضاً الثبات عليها، فإن لكل أجل كتاباً.

وحكي عن أبي حفص الحداد: تركت لصنع كذا وكذا مرة ثم عدت إليها ثم تركتها ولم أعد إليها.

وقال أبو على الدقاق: تاب بعض المريدين ثم ترك التوبة ففكر يوماً أنه لو عاود التوبة هل يُقبل منه ذلك أو لا يقبل. فهتف هاتف: يا فلاناً طعتنا فشكرناك ثم تركتنا فأمهلناك. لو عدت إلينا قبلناك. فعاد المريد إلى التوبة وبلغ المقصود، وأول ما عاد إليه التائب بعد التوبة إسقاط مظالم العباد وحقوقهم عن ذمته بالأداء، والأبراء، فإن عجز عن ذلك يكون أبداً عازماً على إيصال ذلك الحق إلى مستحقيه متى قدر عليه، ولا يزال يدعو لصاحب الحق أن يوقيه حقه أو يبريه فيه صاحبه.

ثم يلتزم الإعتزال عن الناس والإنقطاع إلى الله لقضاء حقوق الله الفائتة، والذم والبكاء وتمام الإستغفار في وقت السحر على ما فرط في خيب الله، وعلى ماضيّع فيه شبابه وصحته.

وإعلم أنه لا ينبغي للعصاة والمذنبين أن ييأسوا من رحمة الله تعالى في قبول توبتهم ومحو حوبتهم. وإن كثرت ذنوبهم وعظمت وتكرر منهم نقض التوبة والإصرار على الكبائر فإن ذلك غلط عظيم وسبب لفوات التوبة والبقاء في الذنوب أبداً.

بل ينبغي إذا عرضت لهم مثل هذه الحال أن يعلموا أن ذلك من كيد الشيطان ومكره في منع الإنسان عن التوبة وإبقائه مصراً على الذنب مدة حياته، نعوذ بالله من ذلك.

وعلاج هذا الداء إذا حصل أن يتدبر العصاة قوله تعالى:

﴿ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون﴾

وقوله تعالى:

﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾

ونظائر ذلك كثير في القرآن والأحاديث.

وروي عن عبد الله بن عباس أنه قال: آيتان في كتاب الله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ والآية الثانية: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾. فإذا قرأهما المذنب واستغفر الله تعالى يغفر الله تعالى له ذنبه.

واعلم أن التوبة أصل هذه الطرق وأساسها فمتى صحت التوبة وخلصت لله صح ما بني عليها وأثمر، ومتى فسدت باختلال بعض شروطها أو بان يشوبها شيء من أغراض الدنيا كطلب السمعة والشهرة واجتلاب قلوب الناس وما شابه ذلك كان البناء عليها كالبناء على شفا جُرف.

الفصل التاسع والثلاثون:

ترك الدنيا ومتاعها والأدلة فيها

واعلم أن العزيمة والرياضة والمجاهدة في باب الوصول إلى الله، وهي أن يترك الدنيا وجميع أهلها وحبها ومافيها لأن الدنيا مبغوضة عنده تعالى فلا يمكن وصول السالك إليه تعالى مع حب الدنيا وتملكها، ولا ترفع الأعمال عند الله تعالى مع حب الدنياولا ترقى الفضل وحسن القبول إلاّ بترك الدنيا. كما روي في الحديث إذ قال الغني: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر وقالها الفقير كذلك لا يلحق الغني الفقير في ذلك ولو أنفق فيها عشرة آلاف درهم.

وكذلك أعمال البر كلها، فقد قيل: حب الدنيا رأس كل خطيئة، وتركها رأس كل فضيلة، ومبدأ كل عبادة ومفتاح كل سعادة.

واعلم أن تملك الدنيا يسلب حلاوة الإيمان وحبها يفسد الإسلام والإيمان، والنظر فيها يشتت القلوب عن معرفة الله وكسبها، ويشغل العبد عن ذكره، وإن ترك الدنيا يزيد الإيمان ويصحح الإسلام ويحبب العبد إلى الله تعالى حباً ويقربه زلفى.

قال (عم): أولياء أمتي لا يرغبون في جمع المال وادخاره ولا يسعون في اقتنائه واحتكاره إنما رضاهم من الدنيا ما يسد جوعه ويستر عورته، وإن ترك أهالي الدنيا الذين يسعون في تحصيلها ويرغبون ويتولون على حفظها محض سعادة وكمال وفضل.

واعلم أنه لا بد لسالك إلى الله أن يفر من طالبي الدنيا وأن يترك مخالطتهم، لأن مخالطتهم تميل السالك إلى الدنيا، وصحبتهم تغفل قلبه عنه تعالى وحبهم يسقطه عن نظر الله ويقطعه عن السلوك إلى الله ويسدّ باب العرفان فيهلك في الضلال.

وقد وردت في الحديث: قد يأتي زمان يكون هلاك الرجل على يد أبويه، فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وولده، فإن لم يكن له زوجة ولا ولد فعلى يد أقارب له. قيل: فكيف ذلك يا رسول الله. قال: يعيرونه بضيق المعيشة فيتكلف ما لا يطيق حتى يورده موارد الهلكة.

وعلى السالك أن يترك ما في الدنيا من العز والجاه والتنعم والراحة وتزوج النساء. فمن كان عازباً قبل السلوك في الطريقة لا يجوز له بحكم السلوك أن يتزوج لأنه يكون مع النفس في نزاع وجدال ومخالفة بمنع هواها ولذاتها. وإذا وجدت النفس معيناً على تقاضي آمالها تغلب على صاحبها وتميله إلى الدنيا وينال هواها وينقطع عن الله وسلوكه عياذاً بالله تعالى.

وقال (صلعم): الدينا ملعونة وما فيها ملعون إلاّ كلمة لا إله إلاّ الله وما إليها.

وقال: ما سكن حب الدنيا لعبد إلاّ ابتلاه الله بخصال ثلاث: أمل لا يبلغ منتهاه، وفقر لا يدرك غناه، وشغل لا ينفك عناه.

وقال: الدنيا ثلاثة أيام: يوم أمس مضى ما بيدك منه شيء، ويوم غد لا تدري أتدركه أم لا، ويوم أنت فيه فاغتنمه.

وقال: إن الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له قد يجمعها من لا عقل له.

وقال: إن الله لم يخلق خلقاً أبغض من الدنيا وإنه لم ينظر إليها منذ خلقها.

وقال: أربع خصال من الشقاوة: جمود العين وقسوة القلب وطول الأمل وحب الدنيا.

وقال يحيى بن معاذ: الدنيا حانوت الشيطان فلا تسرق من حانوته شيئاً فيجيء في طلبه فيأخذك.

وقال أبو حازم: يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة.

فاترك الدنيا حتى تحصل صلاح الدين واليقين والكمال والفضل وسعادة الدارين.

الفصل الأربعون:

الجود والسخاء وطريق الوصول

وأما الجود والسخاء فهما في اللغة واحد وفي اصطلاح أهل الحقيقة أن السخي هو من أعطى بعض ماله وأمسك البعض، والجواد من يبذل الأكثر، ويبقى الأقل لنفسه، والمؤثر من تحمل المشقة والضرر وجاد بالقوة. [فالإيثار أعلى المراتب ثم الجود ثم السخاء. قال الله تعالى:

﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾

وقال: ﴿ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون﴾

وقال النبي (عم): السخي قريب من الله وقريب الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله قريب من النار.

وقيل: الجود هو إجابة الخاطر الأول.

كان بعض المشايخ جالساً في الخلاء فدعا بعض تلاميذه وقال له: انزع عني هذا القميص وادفعه إلى فلان فقيل له هلا صبرت حتى تخرج فقال: خفت أن يتغير خاطري، وقيل لما سعى وغمز غلام الخليل بالصوفية إلى الخليفة أمر بضرب أعناقهم فلما أحضروا لذلك بادر النوري وجلس بين السياف فقال له أتدري إلى ماذا

تبادر. قال: نعم. قال: مما سبب ذلك. قال: لأوثر أصحابي بحياة ساعة. فتعجب السياف وأنهى الخبر إلى الخليفة فأطلقهم وكان فيهم الجنيد.

وقيل: خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له فنزل على بخيل قوم فرأى عبداً أسود يعمل فيها فأوتي العبد بثلاثة أقراص وهي قوته فجاء كلب ودنا من العبد فرمى له قرصاً فأكله ثم رمى قرصاً آخر فأكله ثم رمى قرصاً آخر فأكله. فقال له عبد الله: كم قوتك كل يوم. فقال ثلاثة أقراص. قال: فلم أثرت الكلب. قال: لأن أرضنا ليست أرض كلب، فعلمت أنه جاء من مسافة بعيدة فجاع فكرهت رده فقال عبد الله له: فما تصنع اليوم. قال: أطوي أحسائي إلى الغد. فقال عبد الله: أألام على السخاء وهذاالعبد أسخى مني ثم اشترى البستان وما فيه من الآلات والعبد واعتقه ووهبه جميع ذلك.

وقيل: إني رجل صديقاً له فدق عليه الباب فخرج إليه. فقال: ركبني أربعمائة درهم ديناً. فدخل الرجل الدار باكياً ووزن المبلغ وخرج فتوهمت امرأته أن بكاءه حزناً على الدراهم. فقالت: هلاّ اعتذرت بعذر. فقال: إنما أبكي لتقصيري في اختيار أجوال صديق حتى احتاج إلى مكاشفتي بحاله ابتداء منه.

وقال مطرف لأصحابه ونجدمه: إذا أراد أحدكم مني حاجة فليرفعها إليّ بخرقة فإني أكره أن أر في وجهه الحاجة.

وقيل: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخائها بلا بذل.

وقيل: ليس السخاء أن يعطي الواجد المعدم بل السخاء أن يعطي المعدم الواجد.

طرق الوصول الى الله تعالى

واعلم أن طرق الوصول إلى الله تعالى والفناء عند السادات أربعة:

الطريقة الأولى: وهي الأعلى والأقوى في محبة الشيخ الحقيقي الكامل بطريق المشروط بثلاثة شروط هي:

الشرط الأول: أن يصحبه خدمة له وانتساباً إليه وافتخاراً به وإقبالاً عليه.

الشرط الثاني: أن لا يعترض شيخه ولا ينكر عليه فعلاً من أفعاله مطلقاً، ظاهراً كان أو باطناً، ويُعد ذلك ذنباً وعليه أن يستغفر الله تعلى منها لأن شيخه بيد الله تعالى، والله لا يأمر بالفحشاء ولمنكر ولكنه يمتحن من أراد من خلقه بالشيخ وغيره.

الشرط الثالث: أن يكون بين يديه كالميت بين يدي الغاسل لا يخالفه في شيء مطلقاً ولا ينتصر لجانب نفسه مع شيخه أبداً، ومحبة الشيخ وشيخ الصحبة هو الشيخ الحقيقي الموصل إلى الله تعالى بحاله لا بواسطة شيء آخر كالخرقة والذكر. فإن الشيخ الخرقة يسرى حاله في الخرقة ثم يصل المريد، وكذلك شيخ الذكر (فإن ذكره أمده لا شيخه) فهما شيخاً مجازاً، وهو شيخ حقيقة كعدم الواسطة بين قلبه وقلب المريد. [وقال العارف عبد الغني النابلسي قدس سره راسماً ما يتخيله السالك من معاني التجليات الإلهية وقت حضوره معها: إنما يكون من المرشد الكامل لطريق التوجيه الرباني والإمداد الرحماني: فتارة يتأتى بالإلقاء الإلهي من القلب إلى القلب مع صدق الحال، وتارة يتأتى بتقرير العبارات وتبيين الإشارة. وتارة بالباس خرقة الصوفية المشهورة وشرطها

كمال الصدق من الطرفين فيسري الحال الصادق بأمر الله في المريد الصادق. وتارة بنظر الشيخ الصادق من قوله (عم) حكاية عن ربه: كنت بصره الذي يبصر به في الحديث بالتقرب بالنوافل وتارة ينظر المريد الصادق الشيخ من قوله صلعم: إذا رأوا ذكر الله. وهذا الأمر يختلف باختلاف الاستعداد في السرعة والبطء والإخلاص في الخدمة والأدب مع المشايخ والإخوان والعلماء وحفظ حرمتهم غيبة وحضوراً.

الطريقة الثانية: وهي طريق مستقل للوصول: وهي عبارة ربط القلب بالشيخ الواصل إلى مقام المشاهدة المتحقق بالصفات الذاتية وحفظ صورته في الخيال ولو بغيبته، فرؤيته بمقتضى الذين إذا رأوا ذكر الله بها تحصل الفائدة كما يحصل من ذكر بموجبهم جلساء الله تعالى، ولا يخفى ما ورد من الأحاديث في الحث على الجليس الصالح والشيخ، كالميزان ينزل الفيض من بحر المحيط إلى قلب المريد المرابط، وإن وجد الفتور في الرابطة يحفظ صورة شيخه في خياله مع من أحب فيحفظ الصورة ويتحقق ويتصف بأوصاف الشيخ وأحواله التي له، وقيل الفناء في الشيخ مقدمة الفناء في الله. وإن وجد في احضار الصورة سكراً أو غيبة يترك الإلتفات إلى الصورة فيكون متوجهاً إلى ذلك الحال كما نقل في مقامات النقشبندي قدس سره: كان واحداً من الصوفية مشغولاً بطريق الرابطة وكان يوماً في مجلسه متوجهاً إلى الصورة فوجد أثر الغيبة وما التفت إلى الغيبة فقال خواجة نقشبند: خلني وكن متوجهاً إلى تلك الغيبة لأن زمان الغيبة عما سوى الله يسمونه زمان الوصول والشهود في اصطلاح القوم.

الطريقة الثالثة: التزام ما لقنه من الإذكار وهو طريق مستقل

أيضاً للوصول. وللذكر آداب كثيرة سبق تفصيلها وسيأتي بعضه.

الطريقة الرابعة: التوجه والمراقبة وسيأتي تفصيلها.

الفصل الواحد والأربعون:

الخوف والخشية والأدلة فيها

الخوف

وأما الخوف فإنه يوقع المكروه. وقيل إستشعار النفس بما يكدر حالها في المستقبل.

وقيل حركة القلب من جلال الرب.

سئل الجنيد عن الخوف فقال: توقع العقوبة على مجاري الأنفاس.

والخوف من الله تعالى واجب لقوله تعالى: ﴿وخافوا إن كنتم مؤمنين﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإياي فارهبون﴾.

وقد مدح الله تعالى أنبياءه وأولياءه بالخوف فقال: ﴿ويدعوننا رهباً ورغباً﴾.

وقال: يخافون ربهم من فوقهم.

وقال: يدعون ربهم خوفاً وطمعاً.

وقال: يخشون ربهم.

وقال: يخافون سوء الحساب.

وقال: إنما يخشى الله من عباده العلماء.

وقال النبي، عليه السلام: لا يدخل النار من بكى من خشية الله حتى يلج اللبن في الضرع.

وقال: إذا اقشعرّ جسد العبيد من خشية الله تحاتّ[١] عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها.

وقال النبي (عم) في تفسير قوله تعالى والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة (أي خائفة) أن لا تقبل منهم أعمال البر.

وقال: رأس الحكمة مخافة الله.

وقال: من خاف الله خاف كل شيء.

وقال: قال الله تعالى لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع أمنين: إن خافني في الدنيا لم يخف في الآخرة وإن أمنني في الدنيا لا يأمن في الآخرة.

وقال الله تعالى: إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون.

فالعارف له هيبة ودهشة في مقام الجلال وحضرة الكمال لأنه إذا تجلى الحق ومرآة سريريته لا يبقى فيها خوف ولا رجاء لأن الخوف والرجاء من الإحساس البشرية، فقد تلاشى الخوف والرجاء.

ولهذا قال الواسطي: الخوف حجاب بين اللّه والعبد

---

(١) سقطت.

وقال القشيري: معناه أن الخائف يتطلّع لوقتٍ ثانٍ، والصوفي إبن وقته فلا يتطلّع إلى المستقبل.

الرجاء:

ففي اللغة الأمل، وقد جاء بمعنى الخوف أيضاً ومنه قوله تعالى: ما لكم لا تخافون عظمة اللّه.

وعند أهل الحقيقة: تعلّق القلب بحصول محبوب في المستقبل.

وقيل هي الثقة بوجود الكريم

وقيل هي قرب القلب من لطف الربّ

وقيل سرور الفؤاد بحسن الميعاد

وقيل: هو حياة القلب بالأمل

وقيل: هو النظر إلى سعة رحمة اللّه

واعلم أن الرجاء لا يتحقق إلا مع الخوف، كما إن الخوف لا يتحقق إلا مع الرجاء فهما متلازمان لأنّ الرجاء بلا خوف أمن في الحقيقة، والخوف بلا رجاء قنوط في الحقيقة ويأس من رحمة اللّه ولهذا قال بعض أهل الحقيقة الخوف والرجاء كزوجي المقراص لا يفيد أحدهما مع وجود الآخر.

وقال أكثرهم: هما كجناحي الطائر متى إعتدلا وتساويا طار طيرانا تاماً، ومتى زاد أحدهما عن الآخر إختلّ طيرانه ونقص، ومتى ذهبا بالكليّة سقط وصار كالميّت والمذبوح.

وقال اللّه تعالى: إنه لا ييأس من روح اللّه إلا القوم الكافرون.

الفصل الثاني والأربعون:

أنواع الحجاب والحياء والعتق من النار

وقيل إن الحجب المانعة وصاله تعالى أربعة:

حجاب المال ويرتفع ذلك بتفريقه الأقدر والضرورة، ومن له درهم واحد يلتف إليّه قلبه فهو محجوب عن الّله تعالى، وحجاب الجاه ورفعه بالبعد عن موضع الجاه وإيثار الخمول وبأعمال تنفر الخلق كما نقل عن السلف وعمل به الخلف، وحجاب التقليد ورفعه بترك التعصّب للمذاهب، وحجاب المقاصد النفسانيّة ورفعه ترك كلّ معبود سوى الّله سيما الهوى فمن إتّخذ إلهه هواه وبعد رفع هذه الحجب يتحصّن بأربعة:

١ ـ الجوع فإنه ينقص دم القلب وييبضه وفي بياضه نوره ويذهب شحم الفؤاد وفيه رقة، ورقته مفتاح المكاشفة، ومتى نقص دم القلب ضاق مسلك العدو.

٢ ـ السهر: والسهر فإنه يجلي القلب ويصفيه وينوّره وإذا انضم إليه صفاء الجوع يصير القلب كالكواكب الدرية والمرآة المجلوة فيلوح فيه جمال الحق ويشاهد فيه أرفع الدرجات. والسهر نتيجة الجوع فإنه مع الشبع غير ممكن،

والنوم يقسي القلب ويميته إلاّ إذا كان بقدر الضرورة فيكون سبب المكاشفة لأسرار الغيب.

٣ ـ الصمت: والصمت يسهل العزلة ولا يتكلم الصامت إلاّ بقدر الضرورة، فإن الكلام يشغل القلب ويثقل التجريد للذكر والفكر.

٤ ـ الخلوة: وفائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر، وإذا سدّت الحواس تتفجر ينابيع الغيب عن حياض الملكوت وتنصبّ إلى القلب، فلا بد من الجلوس في مكان مظلم وإلاّ فليقِ رأسه في الجيب، فعند ذلك يسمع نداء الحق ويشاهد جلال حضرة الربوبية.

وبعد التحصّن بهذه الأمور يقطع عقبات القلب التي سببها الإلتفات إلى الدنيا. وهكذا إذا حصل قلبه مع الله، وتجلى له الحق، وظهرت له من لطائف رحمته ما لا يجوز وصفه بل يحيط به الوصف أصلاً.

العتق من النيران

وأما العتق من النيران. فاعلم أن الإنسان ضعيف عاجز غاية العجز، والعدو من النفس ـ الشيطان والهوى والدنيا ـ قوي، فيجب على العاقل أن يعمل بما يخلص نفسه، ويسعى في فكاك رقبته من النار، من جهة حق العبد، ومن حق المعبود أو المخلوق. فإن الحديث مطلق وهو قوله عم: من قال لا إله إلاّ الله سبعين ألف مرة حرّم الله عليه النار.

وفي حديث الرافعي عن النبي عم: من قرأ قل هو الله أحد ألف

مرة فقد اشترى نفسه من الله. وفي حديث الطبراني عن النبي عم: من قرأ قل هو الله أحد مئة مرة على طهارة في الصلاة أو غيرها كتب الله له براءة من النار.

وفي حديث للبيهقي عن أنس عن النبي عم: من نام على يمينه في فراشه ثم قرأ قل هو الله أحد مائة مرة، فإنه يوم القيامة يقول له الله: يا عبدي ادخل الجنة عن يمينك.

وقال المشايخ: من أساء الأدب على البساط رد إلى الباب والسقاط. ومن أساء الأدب على الباب ردّ إلى اصطبل الدواب. [نعوذ بك من الحور بعد الكور، فلا بد لكل واحد من المبتدى والمتوسط والمنتهى في المحاسبة والتفطن والتفكر بالعاقبة والاستغفار والإستحلال والإستعاذة من العدو.

ومنها: اللهم إني أعوذ بك من النار وما قرب منها من أقوال ومن عمل .

ومنها: اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه.

ومنها: اللهم إني أعوذ بك برضاك عن سخطك وبعفوك عن عقوبتك.

الحياء

وأما الحياء قال الله تعالى: وجاءته أحديهما تمشي على استحياء

وقال النبي (عم): الحياء من الإيمان

وقال ذو النون: المحب ينطق والمستحي يسكت

سئل الجنيد عن الحياء فقال: حالة تتولد من رؤية النعم والتقصير في شكرها

وقال إبن عطاء: العلم الأكبر في الهيبة والحياء.

روى رجل كان نائماً في مسبغة فقيل له: ألا تخاف النوم هنا. فقال: إني أستحي من الله أن أخاف غيره وأوصى الله تعالى إلى، عيسى عم: عظ نفسك فإن اتعظت وإلاّ فاستحي مني أن تعظ الناس.

وقيل: إذا جلس الرجل ليعظ الخلق ناداه ملك: عظ نفسك. لما تعظ به أخاك وإلاّ فاستحي من سيدك فإنه يراك.

وقال الفضيل: من علامة الشقاء القسوة في القلب وجمود العين وقلة الحياء والرغبة وطول الأمل.

الفصل الثالث والأربعون:

حقيقة القبض والبسط والتفرقة ودفعها

وأما حقيقة القبض والبسط وهم حالان بعد ترقي العبد عن حالة الخوف والرجاء.

القبض:

فالقبض للعارف كالخوف للمستأنف والفرق بينهما: إن الخوف والرجاء متعلقان بأمر مستقبل مكروه أو محبوب. والقبض والبسط متعلقان بأمر حاضر في الوقت يغلب على قلب العارف من وارد الغيبة. ثم إن كل واحد من القبض أو البسط، قد يكون تاماً، وقد يكون ناقصاً قاصراً.

فالقبض التام هو وارد غيبة قوية كان يعاقب على تقصير أو سوء أدب كالمخاطب بما لا تحمل النفس أثقاله فيستغرق العارف في ذلك حتى تنسّد عليه أبواب الانس.

والقبض الناقص وارد غيبي ضعيف كأنه يخاطب بما تحمله قوته فلا تبقى مسلوباً بالكلبة، والبسط التام وارد غيبي قوى كله يخصّه بتشريف وإقبال ولطف وسرور فيجذبه بكليته حتى يبقى مدهوشاً

في بسطه كأنه قد حلّ عنه عقال الموانع وانطلق في ميادين الأفضال، وكوشف في رياض الجمال والجلال لقوة الوارد. والبسط الناقص وارد غيبي ضعيف يؤثر في العارف سروراً ونشاطاً وارتياحاً، تأثيراً يبقى معه فيه بقية يتصرف بها في نفسه وغيره فلا يؤثر فيه البسط تأثيراً كلياً وقوياً.

قال الله تعالى: والله يقبض ويبسط. وقد يحدث بسط المرء بغتة لا يعرف سببه فيهز صاحبه ويستفزه. وسبيل صاحب التكون والمراقبة وحفظ الأدب. فإن البسط لهو خطر عظيم، فيحذر صاحبها مكراً خفياً يحجبه عن مقامه.

وقال بعضهم: فتح عليّ باب من البسط فزللت زلّة فحُجبت عن مقامي، ولهذا قالوا قف على البساط وإياك والإنبساط.

قال الجنيد: الخوف يقبضني والرجاء يبسطني والحقيقة تجمعني والحق يفرقني.

وقال صدر الدين في كيفية التنقل في مراتب الذكر ولوازمه:

الدرجة الأولى: دفع الخواطر بدوام الذكر الظاهر دون فتور وانزعاج للمزاج بل بحضور مع الحق، ومراقبة له على ما يعلم نفسه كما مر، فإذا خفّت الخواطر وزالت، نطق القلب بالذكر الذي أنت فيه أو بذكر آخر يعينه. لكن الحق من حالك لعلمه سبحانه إنه لا نفع حالتي تلك فحضرت معه وتركت الذكر ظاهراً هكذا حتى تحسن. وبإمكان خلو الباطن من الذكر التجدد أيضاً، فتحاشيت بأنك قادر على ذلك فاجتهد في تفريغ باطنك لتستعمل نفسك في الفراغ من الذكر الظاهر والباطن معاً فإنك تجد نفسك قادراً على ذلك ساعة أو ساعتين، ثم تزاحمك الخواطر فإن قدرت على دفعها بعزيمتك وإعراضك عنها وعما يوجبها دفعها بذلك وإلاّ فعد إلى

الذكر بقلبك، وحدث نفسك بما تريد أن تفعله، وإن قويت زحمة الخواطر فاجمع بين الذكر الظاهر والحضور الباطن معاً دون فترة[1].

وفي غالب الأوقات هكذا فكلما واظبت على ما ذكرت لك يزيد فراغك وينمو حتى تغلب بالحديث، واستعمل قلبك ونفسك فيه وبما ذكرت دائماً ولو كنت فيما عسى أن تكون من الإنشغال ما عدا زمان نطقك بالحديث مع الناس. [فإن تعينت لك قضية توجب الأشغال بشيء غير ما أنت فيه أو مصلحة فسمّ الله بحضور وتوجه في أول الأمر ثم اشرع في ما تريد الشروع فيه من حديث أو فكر أو فعل وقل: اللهم كن وجهتي في كل وجهة، ومقصدي في كل مقصد، وغايتي في كل سعي وغاية، وملجائي وملاذي في كل شدة، ووكيلي في كل أمر، فتولّني تولي محبة وعناية في كل حال، ثم باشر ما قدّر لك مباشرته.

وقالوا: وإذا عرض لقلب الذاكر في أثناء الدكر أو غيره تفرقة أو وسوسة أو أضرار أو هم أو كرب أو اضطراب أو نحوها من النفس والشيطان أو من الظلمة والفسق وأهل الطغيان أو قبض من الروح، فليغتسل بالماء البارد إن لم يضرّ أو الحار إن يضرّ، أو يتوضأ إن لم يقدر على الغسل، ويصلي بعد الغسل أو الوضوء في خلوته صلاة التوبة والحاجة ركعتين. وكيفيتها عند البعض:

يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة والسورة التحيات لله والصلوات له ثلاث مرات ثم يسلّم ويخطو قدامه سبع خطوات وبعدها يقول ياحي ياقيوم سبعين مرة ثم يسجد ويلاحظ روحانية شيخه على طريق ابتغاء الوسيلة به، ويقرأ في سجدته هذا الدعاء سبع مرات:

---

(١) فتور.

اللهم ياصريخ المستصرخين، ويا غياث المستغيثين ويا مفرج كرب المكروبين قد ترى مكاني وتعرف حالي ولا يخفى عليك شيء من أمري. [ثم يرفع رأسه من السجدة ويستغفر ويدعو بهذا الدعاء:

يا كاشف كل كرب ويا مجيب كل دعوة ويا جابر كل كسير ويا ميسر كل عسير ويا صاحب كل حال لا إله إلاّ أنت سبحانك. إن كنت من الظالمين أسألك أن تجعل لي فرجاً ومخرجاً، وأن تقذف حبك في قلبي حتى لا يكون بي هم ولا في قلبي غم وأن تحفظني وترحمني برحمتك يا أرحم الراحمين. ثم يرجع إلى ذكره، وإن لم يندفع العارض فليتخيل صورة النبي عم أو روحانيته، لأن روحانيته كجسمانيته في الإمداد ومنح العون ومطلع الهداية والإرشاد وفي كل آن ومكان، أو صورة شيخه مع روحانيته بشرط أن يعتقد أنه خليفة رسول الله (صلعم)، في الفيض والإمداد، وأنه نائب عنه في التربية والإرشاد، وإن لم يندفع فليقل:

يا فعّال بالتشديد والمد بمقدار ثلاثة آلاف إلى أن يندفع عن قلبه ذلك العارض.

وقال بعضهم: إذا عرضت لقلب الذاكر في أثناء الذكر تفرقة من غلبة الشهوة فليتوضأ وليذكر: ياهادي، [وإذا عرضت من غلبة الأفكار السائدة فليتوضأ بالإسباغ وليذكر: يالطيف، [وإذا عرضت من تضايق النفس عن المجاهدة والرياضة فليغتسل وليذكر: يافتّاح.

وإذا عرضت من غلبة شهوة الطعام فليتوضأ وليذكر ياقوي. وإذا عرضت وسوسة الشيطان فليتوضأ وليذكر: يا قدير. وإذا عرضيت من القوة الواهمة والمتخيلة فليغتسل وليذكر: ياذا القوة المتين وكيفية ذكر هذه الأسماء:

أن يأخذ نفسه ويحبسه في جوفه ثم يذكر هذه الأسماء حتى لا يبقى بنفسه أي عارض، ويفرغ جوفه منه. ويفعل ذلك سبع مرات في سبعة أنفاس متواليات فبإذن الله تزول عنه تلك التفرقة وتحصل الجمعية والتوجه إلى الحق تعالى كما في رسالة الخادمي وشرحه.

الفصل الرابع والأربعون:

الشكر والحمد وشروطهما

وأما الشكر فهو عند المحققين: الاعتراف بنعمة المنعم على الوجه الخضوع، وعلى هذا يكون وصف الله تعالى بالشكور توسعاً، ومعناه مجاز للعباد على الشكور، فسمى جزاء الشكر شكر، كما سمي جزاء السيئة سيئة، وجزاء الإعتداء إعتداء.

وقيل: شكره إعطاؤه الكثير من الثواب على القليل من العمل.

وقيل: حقيقة الشكر الثناء على المحسن بذكر إحسانه. وقد سمي الله تعالى شكوراً لأنه أثنى على عبده المطيعين بذكر طاعتهم. والطاعة إحسان، وسمي العبد شكوراً لأنه أثنى على الله تعالى بذكر نعمة الله عليه التي هي أعظم أنواع الإحسان.

وقال أبو عثمان المغربي: الشكر معرفة العجز عن الشكر.

وقيل: هو أن نعلم أن النعمة من الله وحده

وقال الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة.

وقال: الشكر أن لا يستعان بنعم الله على معاصيه.

وقال الشلبي: هو رؤية المنعم لا رؤية النِّعم، ويؤيد هذا القول إن أيوب (عم) صبر على البلاء فقيل له: نعم العبد.

وقيل: الشاكر هو الذي على النعماء، والشكزر هو الذي يشكر على البلاء.

والشكر نوعان:

باللسان وهو معروف.

وشكر بالقلب وهو الإعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة.

وقيل: هو ثلاثة أنواع:

شكر باللسان وشكر بالقلب وشكر بجميع الجوارح على ما يليق بكل جارحة.

فشكر العينين غضّهما عن محارم الله وعيوب الناس.

وشكر الأذنين التصام عن عيوبهما وعن ما لا يحل سماعه.

وشكر اليدين كفهما عن أموال الناس.

وشكر الرجلين كفهما عن المشي في معصية الله.

وعلى هذا سائر الأعضاء.

وقيل: شكر العالم بالقول وشكر العابد بالفعل، وهو الطاعة والعبادة، وشكر العارف بالإستقامة في كل حال، وشكر العوام على الطعام والشراب ونحوهما.

فشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعاني الربانية.

قيل: الشكر على الشكر أتم من الشكر ومعناه: أن يرى شكره الله بتوفيق الله له ويعتقد إن ذلك التوفيق من أتم النعم، فيشكر على

ذلك التوفيق الذي هو الشكر الأول. ثم الكلام في الشكر الثاني كذلك إلى مالا يتناهى.

قال الجنيد: الشكر فيه علة وهي طلب المزيد وذلك وقوف مع حظ النفس.

وفي الحديث الصحيح: إن أول من يدخل الجنة الحامدون لله على كل حال وفي رواية أخرى:الحامدون الله على السراء والضراء.

وقال عم: الحمد الله شكر كل نعمة.

وقيل: الحمد لله على ما دفع والشكر على ما صنع.

الفصل الخامس والأربعون:

التفويض والتسليم وأنواع الآداب

وأما التفويض والتسليم وترك الإختيار.

فالتسليم والإسلام واستسلام الإنقياد وهو إظهار العبودية والتفويض أن لا يختار العبد شيئاً من أمور دنياه ويكل اختيار ذلك إلى مولاه ثم لا يختار خلاف ما يُختار له.

وقيل: التفويض يكون قبل نزول القضاء، والتسليم يكون بعده. والتسليم يكون بعده.

والتسليم والتفويض من صفات أهل المعرفة، وقد مدح الله بهما الأنبياء فقال في حق ابراهيم (عم): إذ قال لربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين

وقال النبي (عم): إذا أخذ أحدكم مضجعه فليقل اللهم إني أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك، وألجأت ظهري إليك وفوضت أمري إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا مخبأ منك إلاّ إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيّك الذي أرسلت وقال علقمة (رضي): قدمت على النبي عليه السلام وأنا سابع سبعة من قومي فكلّمناه فأعجبه كلامنا فقال: ما أنتم. قلنا: مدمنون لكل حقيقة.

قال: فما حقيقة إيمانكم. قلنا خمس عشرة خصلة. خمس أمرتنا بها، وخمس أمرنا بها رسلك، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية ونحن عليها الآن.

- أما التي أمرتنا بها: أن نؤمن بالله وملائكته ورسله والقدر: خيره وشرّه من الله.
- وأما التي أمرنا بها رسلك: أن نشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله ونقيم الصلاة ونوتي الذكاة ونصوم شهر رمضان ونحج البيت إذا استطعنا.
- وأما التي تخلقنا بها في الجاهلية: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والصدق في مواطن اللقاء، والرضى بمُر القضاء، وترك الشماتة بالأعداء.

فقال عم: فقهاء أدباء كادوا يكونون. ما أشرفها من خصال. [ثم تبسّم وقال: وأنا أوصيكم بخمس خصال لتكمل لكم خصال الخير: لا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوهما فغداً عنها ترحلون، واتقوا الله الذي عليه تقدمون وإليه ترجعون، وارغبوا في ما إليه تصيرون وفيه تخلدون.

وعن ابن عباس (رضي) قال: عجباً لمن يعرف الموت كيف يضحك، وعجباً لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها. وعجباً لمن يؤمن بالقضاء والقدر كيف يتعب في طلب الرزق، وعجباً لمن يؤمن بالمثُل كيف يعمل الخطايا.

أما الشرائط التي لا بد منها للمريد فهي ستة عشر على ما في الحديقة الندية:

١ - منها إذا أردت تحصيل العقيدة وقصدت الشيخ فقل

عنده: جئت إليكم لطلب معرفة الله تعالى، وبعد قبول الشيخ لا تلتمس شيئاً بل أخدمه بالميل والرغبة حتى تحصل له القبول التام.

٢ ـ فإذا لقنك شيئاً فاشتغل به على الدوام من غير إخطار خاطر.

٣ ـ ومنها لا تتحمل أمانة تبليغ سلام الغير إلى الشيخ لأنه سوء الأدب.

٤ ـ ومنها أن لا تتوجه إلا بما أراده الشيخ لأنه سوء الأدب.

٥ ـ ومنها أن لا تتوضأ بمرأى من الشيخ وأن لا ترمي البزاقة والمخاطة في مجلسه ولا تصلي النوافل بحضوره.

٦ ـ ومنها أن تبادر بإتيان ما أمرك به الشيخ بلا توقف ولا إهمال ولا تأويل من غير استراحة ولا سكون قبل تمام ذلك الأمر.

٧ ـ ومنها أن لا تعترض في القلب على أفعال الشيخ لأن الإعتراض أقبح من كل قبح، فالمعترض لا يكون معذوراً، فالحجاب الذي ينشأ من الإعتراض ليس له علاج، ورفعه متعذر، وسد مجاري الفيض من المريد.

٨ ـ ومنها أن تظهر الخواطر خيراً وشراً للشيخ حتى يعالجها، فإن الشيخ كالطبيب، فإذا حصل له الإطلاع على أحوال المريد يتوجه إلى إصلاحه ورفع أمراضه ولا تعتمد في عدم إظهارها على كشف الشيخ لأن الكشف قد يتلون وقد يخطىء، والخطأ الكشفي عند الأولياء بمنزلة الخطأ الإجتهادي إلاّ إنه لا يعمل به، ولو

صح لا يتبنى عليه حكم عندهم ما لم يساعدك الظاهر فاحفظه هذا لأنه نفيس.

٩ ـ ومنها الصدق في الطلب فلا تغيره المحن والشدائد ولا يفتره العذل والمكائد والمحبة المفرطة الصادقة لشيخك أكثر من نفسك ومالك وولدك معتقداً أنه لا يحصل لك المقصود من الله تعالى إلا بتوسط شيخك.

١٠ ـ ومنها أن لا تقتدي بجميع أفعال الشيخ العادية إلاّ أن يأمرك بها بخلاف الأقوال لأن الشيخ قد يعمل بعض الأعمال بحسب مقامه وحاله وذلك العمل يكون على المريد سُماً قاتلاً.

١١ ـ ومنها المبادرة بأن تأتي بما أمرك به من غير تأويل ولا تسويف فإنهما من أعظم القواطع.

١٢ ـ ومنها العمل بما لقنك شيخك. من ذكر أو توجه أو مراقبة وترك جميع الأوراد غير المأثورة لأن فراسة الشيخ اقتفت تخصيصك بذلك وهي من نور الله.

١٣ ـ ومنها أن ترى نفسك أحقر من جميع الخلائق ولا ترى لنفسك حقاً على أحد وتُخرج عهدة حقوق غيرك بالأداء والتوبة وقطع العلائق عما سوى المقصود.

١٤ ـ ومنها عدم الخيانة لشيخك في أمر من الأمور واحترامه وتعظيمه على أقسى الوجوه وتعمير قلبك بالذكر الملقّن به وطرد الغفلة والخواطر.

١٥ ـ ومنها أن لا يكون مرادك من الدنيا والآخرة غير الذات الأحدية لا من حال أو مقام أو فناء أو بقاء وإلاّ فأنت طالب لكمال نفسك وأحوالها، وينبغي أن تكون

كالميت بين يدي الغسّال وأن لا ترد كلام شيخ وإن كان الحق مع المريد، بل تعتقد أن خطأ الشيخ أقوى من صوابك ولا تشير للشيخ بشيء إن لم يسألك.

١٦ ـ ومنها أن تكون منقاداً مستسلماً لأمر الشيخ ولمن يقدمه عليك من الخلفاء والمريدين وإن كان عملهم أقل من عملك، وأن لا تظهر حاجتك إلى أحد غير شيخك، وأن لا تغضب على أحد لأن الغضب يميت نور الذكر. وأن تترك المناظرة والمجادلة مع طلبة العلم لأن المناظرة تورث النسيان والكدورات وإذا وقع منك الغضب أو المباحثة مع أحد تستغرقه وتطلب العذر منه وإن كان محقاً، وأن لا تنظر إلى أحد نظرة الحقارة.

وأما الآداب المتعينة على المريد مع شيخه المتفق عليها عند الجمهور فهي بطريق الإجمال عشرة:

١ ـ منها أن يكون اعتقاده مقصوراً على شيخه معتقداً أنه لا يحصل مقصوده أو مطلوبه إلاّ بيد هذا الشيخ، وإذا تشتت نظره إلى آخر حرم من شيخه وانسدّ عليه الفيض.

٢ ـ ومنها أن يكون مستسلماً راضياً منقاداً بتصرفات الشيخ يخدمه بالمال والبدن لأن جوهر الإرادة والمحبة لا يتبين إلاّ بهذا الطريق، ووزن الصدق والإخلاص لا يعلم إلاّ بهذا الميزان.

٣ ـ ومنها أن يسلب اختيار نفسه باختيار الشيخ في جميع الأمور كلية أو جزئية، عبادة أو عادة.

٤ ـ ومنها الفرار من مكاره الشيخ بأقصى الوجوه، وكراهة ما يكرهه الشيخ طبعاً.

٥ - ومنها عدم التطلع إلى تعبير الوقائع والمنامات، وإن ظهر له تعبير فلا يعتمد عليه، وبعد عرض الحال على الشيخ ينتظر الجواب دون إلحاح وطلب. ويبادر الجواب إذا سئل.

٦ - ومنها غض الصوت في مجلسه لأن رفع الصوت عند الأكابر من سوء الأدب.

٧ - ومنها عدم حصر المثال والجواب والسؤال معه لأنه يزيل احتشام الشيخ عن قلب المريد فيحجب.

٨ - ومنها معرفة أوقات الكلام معه فلا يكلمه إلاّ في البسط بالأدب، والخضوع والخشوع من غير زيادة على الضرورة بقدر مرتبته ودرجته وحاله مصغياً بتوجه تام إلى جواب الشيخ وإلاّ فيحرم من الفتوح، وماحرم منه لا يرجع إليه مرتبة أخرى إلاّ نادراً.

٩ - ومنها أن لا يخطر شيئاً عن الأحوال والخواطر والوقعات والكشوف والكرامات وما وهبه الله عن الشيخ.

١٠ - ومنها أن لا ينقل من كلام الشيخ عند الناس إلاّ بقدر أفهامهم وعقولهم.

الأدب

وأما الأدب فهو في اصطلاح أهل الحقيقة اجتماع خصال الخير.

وقيل: الأدب أن تعامل الله تعالى بالمستحسن سراً وجهراً.

وقيل: هو معرفة النفس.

وقيل في قوله تعالى: ما زاغ البصر وما طغى. معناه: إنه حفظ أدب الحضرة.

وقال أبو العباس في قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً. معناه: فقوهوم وأدبوهم.

وقال النبي عم: حق الولد على والده أن يحسن إسمه وأدبه. وقال عم: إن ربي أدبني فأحسن تأديبي.

وقيل: أدب أهل الدنيا الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأدب أهل الدين رياضة النفوس، وأدب الجوارح حفظ الحدود وترك الشهوات. وأدب الخواص طهارة القلوب ومراعاة الأسرار والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الإلتفات إلى الخواطر، وحسن الأدب في مواقف الطلب، وأوقات الحضور في مقامات القرب.

وقيل: كمال الأدب لا يصفو إلاّ للأنبياء والصديقين.

وقيل: العبد يصل بطاعته إلى الجنة وبأدبه في طاعته إلى الله.

وقال البعض: كان أبو علي الدقاق لا يستند بشيء قط.

وقال الحريري: منذ عشرين سنة ما مددت رجلي وقت جلوسي في الخلق فإن حسن الأدب مع الله [illegible].

وقال أبو عثمان: إذاصحت المحبة [illegible] تأكدت على المحبة ملازمة الأدب.

وقال أبو علي الدقاق: إنما قال أيوب (عم): مسّني الضرّ، وأنت أرحم الراحمين. ولم يقل ارحمني... حفظاً لأدب الخطاب

وكذلك قول عيسى (عم): إن تعذبهم فإنهم عبادك

وقوله أيضاً: إن كنت قلته فقد علمته ولم يقل: لم أقل.

وأما آداب المريدين مع أخوانهم فهي في أمس الحاجات:

ومنها أن لاينظر إليهم قط إلى عورة ظهرت ولا عثرة سبقت فإنه معرض للوقوع فيها.

وقالوا: كل فقير كشف له عن شيء من عيوب الناس فهو صاحب كشف شيطاني لا يعبأ الله به. ومن نظر إلى عورات الناس وحملهم على المحامل السيئة قلّ نفعه وعدمت بركته وانتفاعه من شيخه.

ومنها أن ينفق على إخوانه وعلى نفسه كلما فتح الله عليه به أولاً بأول، ولو كانت فجلة أو خيارة.

ومنها أن لا يزاحم على الإمامة قط في الزاوية وغيرها.

ومنها أن ينبه إخوانه أوقات الخيرات والمواسم كالأسحار وليالي الجمع والقدر وغيرها، ثم ينبغي للفقير إذا تنبّه قبل إخوانه ورأى نفسه أكثر عبادة منه أن لا يرى نفسه عليهم بل يرى نومهم أخلص من عبادته هو لأن النائم لا يكتب عليه قلم.

ومنها أن لا يكون مقداماً لأخوانه قط في سوء الأدب مع الشيخ أو مع أحد من إخوانه يخرج من تحت يد شيخه وتربيته، ويطلب وظائف الدنيا ويجمع معلومها، ويوسع على نفسه في المأكل والملبس فيسيء في حق الشيخ وفي حق إخوانه. ومنها أن لا يغفل عن خدمة من مرض في الزاوية من إخوانه الذين لا أهل لهم ولا قرابة ولا أصحاب يخدمونهم.

ومنها أن يحسن لإخوانه إذا بغى بعضهم على بعض بالأخذ على يد الظالم، ونصير المظلوم.

ومنها أن يراقب قلبه من جهة إخوانه فمهما حدث له تغيير في قلبه في أحد من المسلمين فليسع في إزالته وليظن بأخيه خيراً.

ومنها أن لا يغفل ممن حضرته الوفاة من إخوانه وليسهر عنده إلى الصباح.

ومنها أن لا ينسى إخوانه من الدعاء لهم بالمغفرة والمسامحة كلما قام في الليل، وفي عبادته.

ومنها أن يحث إخوانه كلهم على الأدب.

ومنها أن لا يأكلوا فرادى قط إلاّ لعذر.

هذا إجمال في التفصيل والموفق يكفيه القليل، والبليد لا يفيده الطويل.

الفقر

وأما الفقر: فالفقر عند بعض أئمة اللغة من له شيء يُسير والمسكين من لا شيء له، وعند بعضهم بالعكس فالفقير في اصطلاح أهل الحقيقة هو الذي لا يعبد غير الله تعالى ولا يستغني إلاّ به ولا يستريح إلاّ بالحضور معه وعلامته عدم الأسباب كلها.

قال الله تعالى للفقراء: الذين أحصروا في سبيل الله.

وقال النبي(عم): ليس المسكين الطوّاف التي ترده اللقمة واللقمة ذو التمرة والتمرتان بل هو الذي لا يجد ما يغنيه ويستحي أن يسأل الناس لكونهم لغير مولاه.

وقال النبي (عم): مفتاح الجنة حب المساكين والفقراء الصبورين جلساء الله يوم القيامة.

وكان (عم) يقول: اللهم توفني إليك فقيراً ولا توفني إليك غنياً واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة.

والفقر شعار الأولياء وحلية الأصفياء واختيار الله تعالى لخواصه من الأنبياء.

والفقراء صفوة الله من عباده وموضع سره.

والفقراء على ثلاثة أقسام:

[أولها فقر الخلق إلى الحق كما جاء في قوله تعالى: أنتم الفقراءإلى الله، وهو الفقر العالم بالحقيقة وشامل لكل مخلوق.

والثاني فقر العوام وهو عدم المال وأعراض الدنيا وهذا الفقير يستغني بوجود الله.

والثالث فقراء النفس: وهذا الفقر لا يغنيه شيء وهو الفقر الذي يعوذ منه النبي (عم).

والغنى أيضاً على ثلاثة أقسام:

أولاً: الغنى بالله عن كل ما في الدنيا والآخرة وهو نتيجة فقر الخواص.

ثانياً: غنى النفس بالدين لا بالدنيا بل يتساوى وجود الدنيا وعدمها فيكون غناه هو مفتقر إلى ربه.

ثالثاً: الغنى بالمال وهو غنى مجازاً لأن فقر النفس يلازمه ولهذا قال (عم) الغنى غنى النفس فإذا أراد الله لعبد خيراً جعل غناه في نفسه وإذا أراد بعبد شراً جعل فقره بين عينيه.

قال (عم): إياكم ومجالسة الموتى. وقيل يا رسول الله ومن الموتى. فقال: الأغنياء.

واعلم أن الإنسان متى كان صابراً على الفقر شاكراً لنعمه على اختياره له، صائناً لدينه مستغنياً لربه في فقره، ولا يغنيه شيء غيره، خائفاً عى زوال نعمة الفقر كما يخاف الغني زوال نعمة الغني.

فذلك هو الفقير الصادق، وهو المراد بقول (عم): يدخل الفقراء

الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام. وهو الفقر الذي افتخر به النبي (ع).

حكي أن رجلاً أتى إلى ابراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فردها فقال تريد أن تمحو إسمي من ديوان الفقراء بهذا المقدار.

وحكي كان بمكة فقير عليه ثياب لا يخالط الفقراء ولا يجالسهم وعليه سماء أهل المعرفة فوقعت محبته في قلبي فحملت إليه ماءة درهم وقلت هذه ثمن وجه جل فاصرفها في بعض أمورك فنظر إلي شراً [أي غضباً] ثم قال: إني اشتريت هذه الجلسة مع الله على الفراغ بسبعين ألف دينار غير الضياع والأملاك فكيف أبيعها بماءة درهم وقيل: ولو لم يكن للفقير فضيلة إلاّ إرادة سعة حال المسلمين ورخص أشعارهم لكفاه ذلك، يحتاج إلى البيع. كان أبو بكر الورّاق يقول: طيبة الفقراء لا خراج عليهم في الدنيا ولا حساب في الآخرة.

وقال ذو النون: علامة سخت الله على العبد خوفه من الفقر.

وقال الشبلي لو كان للفقير الدنيا بأسرها فأنقفها في يوم ثم خطر له كونها لم يمسك منها قوت يومه كان كاذباً في فقره.

وقال أبو على الدقاق تكلم الناس في الفقر والغنى وقالوا أيهما أفضل، وعندي: الأفضل أن يرزق الكفاف ثم يصان.

وقيل إظهار الغني في الفقر أفضل.

وقيل: من أراد الفقر يشرف الفقر مات فقيراً ومن أراد لئلا يشغله الغنى عن الله تعالى مات غنياً.

وقال الشاذلي وقد أراد أن يمشي إلى بعض الظالمين للدفاع عن بعض الصالحين: اللهم اجعل مشيي إليهم تواضعاً لوجهك وابتغاء

فضلك ورضوانك، ونصرة لك ولرسولك، وزينني بزينة الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصابرون وخصّني بالمحبة والإيثار ورفع الحاجة من الصدور في الليل والنهار، وقني شح نفسي، واجعلني من المفرحين واغفر لنا ولأخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاّ للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم.

الفصل السادس والأربعون:

الإستخارة والإستشارة وآدابها وشروطها

واعلم أن الإستخارة في الشريعة والطريقة والحقيقة والمعرفة هي من أهم المهمات من أقرب الوسيلة إلى المقصودات.

وكيفيته في الطريقة: يصلي ركعتين بعد إسباغ الوضوء لسننه ويقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة سورة الكافرون وفي الثاني سورة الإخلاص وبعده ثلاث مرات الإخلاص، والفاتحة مرة ويهدي ثوابها إلى سلسلة النقشبندية أو إلى حضرة بير محمد بهاء الدين فقط ويستمد من أرواحهم ويرجو القبول إلى الطريق، وبعده ينام بلا تشكيك ولا تردد ولا سوء ظن وبعد الإنتباه يعرض ما رأ إلى شيخه فقط ولا يطلب تأويله.

وفي الشريعة: كذلك بعد الصلاة يقرأ هذه اللهم إني أستخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علاّم الغيوب.

اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري عاجله، وأجله مقدوره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت

تعلم أن هذا الأمر شرّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري عاجله وآجله فاصرفني عنه وقدّر لي الخير حيث كان.

روى إبن السني عن أنس قال: قال رسول الله (صلعم) يا أنس إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرّات ثم انظر إلى الذي سبق إلى قلبك فإن الخير فيه.

وفي شرح الشرعة المسموعة من المشايخ: أن ينام على الطهارة مستقبلاً القبلة بعد قراءته الدعاء المذكور فأنه رأ بيضاً أو خضرة فذلك الأمر خير وإن رأ سواداً أو حمرة فهو شر فاجتنبه.

وروى جابر عن النبي (صلعم) قال: كان عليه السلام يعلمنا الإستخارة في الأمور كلها وبهذا الدعاء: اللهم إن كنت تعلم من أموري وأقوالي وأفعالي وأحوالي وسكناتي وأفعال الخلق وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم من أجل خيرّني.

أنواع الذكر

واعلم أن الذكر الوارد أنواع:

الأول: الذكر الخفي القلبي فهو ذكر إسم الذات أعني الجلالة: وهي لفظة الله بالقلب. وللذكر آداب إجماله تطهير البدن والقلب من منهيات الجوارح والهوا والحرص واتباع الشهوات والميل إلى الخير للتوبة والإستغفار. ثم يتوضىء ويدخل في خلوته بعد سنّة الوضوء والدعاء مستقبلاً للقبلة، ثم يجلس متوركاً ويستغفر بلسانه واستحضار قلبه إما خمساً وعشرين أو خمسة عشرة أو خمس مراة ثم يلاحظ تقصيره وإساءته بانكسار وخشوع. ثم يستحضر موته والموت الآتي القريب، وكأن هذا آخر نفسه من الدنيا، وإنه قد وضع لحده وحيداً، وإنه قدر الحشر والنشر والفزع الأكبر والسؤال

والميزان والصراة، وتشفع له السلسلة ويجيء إلى القبر في ناحية الأرض خالية وفيه الآن. ثم يقرأ الفاتحة والإخلاص ثلاثاً ويهدي ثوابها إلى روحانية الخواجة محمد بهاء الدين النقشبيدي قدس سره.

ثم يستمد منه أو من السلسلة جميعاً على خواطره وعلى جميع أحواله.

وأن يقرأ الفاتحة والإخلاص قبل تفكر الموت ويهدي ثوابها إلى جميع السلسلة فيكون أفضل.

ثم يقرر سورة شيخه ومرشده الكامل في ناحيته موافقاً برضاه ومستمداً منه أيضاً ويطرحها في قلبه لدفع الخواطر ثم يغمض عينيه لاصقاً لسانه بسقف حلقه وحلقه والأسنان بالأسنان والشفة بالشفة مطلقاً النفس على حاله.

ثم يلاحظ قلبه كأنه حوض أو نور بسيط لا نهاية لنوره، وحين ظهور نوره يلاحظ انصباب الفيض من الله من طرف العرش والجهات الستة إلى قلب الرسول صلعم، ومنه إلى السلسلة ومنها إلى قلب أستاذه ومنه إلى قلبه، ويستغرق في بحر من الأنوار، وإن ظهر نوره يكون وقوفه خارجاً محيطاً، ثم يلاحظ في القلب الذي هو المضغة الصنوبرية المعلقة تحت الثدي الأيسر، نقش لفظة الله، وجريانه وحركته كيفما شاء.

ومعنى الذكر هو ذاته تعالى الصرف البحت قائلاً بلسانه والقلب في ابتداء الذكر، وما بين كل مائة منه: إلهي أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي. ناطقاً بلسان القلب فقط بلفظ إسم الذات، أعني الجلالة، وهي الله. ويستمر على ذلك الذكر ويكون ذكره بوقوف عدده بتسبيح خمسة آلاف في الأبتداء أو خمسة

وعشرين أو ما شاء أو من غير انقطاع في حق السالك، وإن تكلم بلسانه عند الحاجة فلا يقطع المعروف عند السادة النقشبندية بالوقوف. فإنه ينتج رسوخ القلب بشهود المذكور ونسيان ما سواه.

وحقيقة ذكر الشيء نسيان ما دونه. فإذا دام ذكره أو نسيان غيره وترسخ[1] بحيث لو تكلف الذاكر بإحضار الغير لم يقدر، انتقل ذكره إلى الروح وهي لطيفة تحت الثدي الأيمن، ثم إلى يسار الصدر (سر) ثم إلى الخفي وهو في يمين الصدر، ثم إلى الأخفى وهو في وسطه، وهذه اللطائف الخمسة من عالم الأمر الذي خلقه الله يأمر من غير مادة ومدة وركبها مع لطائف عالم الخلق الذي خلقه الله تعالى من مادة بمدة وهي النفس الناطقة والعناصر الأربعة وسيأتي ذكرها وهي:

الأول: ذكر لطيفة النفس التي إذا ترسّخت انتقلت إلى لطيفة الجسد فإذا ترسخ حصل سلطان الذكر وهو أن يغمر جميع الجسم، وإذا عرضت عليه غيبة لا يتعمد قطعها.

الثاني: الوارد معنا الخفي القلبي، أيضاً فهو بالنفي والإثبات بكلمة لا إله إلاّ الله قلباً بعد رسوخ اللطائف.

الثالث: فهو النفي والإثبات بلا حبس النفس ويأتي جميع شروطه أقله خمسة آلاف ولاحصر في الكثرة، فإذا جاهد فيه حق الجهاد وانتفى المنفي وثبت المثبت وظهرت النتيجة تصح له المراقبة وهو بعدد الأسماء الإلهية والصفات الربانية.

الرابع: ذكر التهليل.

---

(١) في الأصل: وارتسخ.

الفصل السابع والأربعون:

ختم خواجكان وحقيقة الزهد والإعراض

وأما النقشبندية فأنواع الصلاة والقراءة والدعاء والأرواد المخصوص فإن قراءة الورد المخصوص بالطريقة العلية أفضل وأحسن لأن روحانية الخواجكان ببركة هذه الورد يمدونه ويخلصونه عن أنواع البلاء والفتور.

وكيفية هذه الورد أن يرفع القارىء يديه ويدعو الله بهذا الدعاء:

اللهم يا مفتح الأبواب ويا مسبب الأسباب ويا مقلب القلوب والأبصار، ويا دليل المتحيرين ويا غياث المستغيثين أغثني توكلت عليك يا رب. وفوضت أمري إليك، يا فتاح يا وهاب يا باسط وصلى الله على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين. ثم يقرأ الفاتحة مع البسملة سبع مرات ثم يقرأ الصلاة على النبي (عم) مائة مرة، ثم يقرأ ألم نشرح لك مع البسملة تسعة وسبعين مرة، ثم يقرأ الإخلاص واحداً وألفاً ثم يقرأ أيضاً الفاتحة سبعاً ثم يصلي على النبي (عم) أيضاً مائة مرة، ثم يدعو الله، ثم يأكل من الحلويات، وهذا ختم خواجته مشهور.

الزهد

وأما الزهد ففي اللغة ترك الميل إلى الشيء، وهو ضد الرغبة فيه. وفي اصطلاح أهل الحقيقة بُغض الدنيا والإعراض عنها.

وقيل: هو ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة.

وقيل: هو أن ينجلي قليل ممّا خلت يدك.

وقال الجنيد: هو خلو البدن من الدنيا وخلو القلب من طلبها.

وقال سفيان الثوري واحمد بن حنبل وغيرهما: الزهد قصر الأمل في الدنيا وليس هو أكل خبز الشعير ولبس العباء.

وقيل: حقيقة الزهد قوله تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاءكم.

فالزاهد لا يفرح بموجود في الدنيا ولا يحزن على مفقود منها

وقيل: الزهد ترك الحرام لا ترك الحلال.

وقيل: في الحرام واجب وفي الحلال مندوب

وقيل: الزهد في الحلال إنما يكون مندوباً في حقّ من يعلم من حاله الصبر على العسر والشِدّة.

وقيل: الأفضل أن يختار العبد ترك الحلال تكلفاً وإختياراً إذا رزقه الّله، ولا يطلب فضلاً لا يحتاج إليه بل يتّسع ما قسم الّله له، فإن رزقه الّله مالاً حلالاً شكر وإن لم يوسّع عليه صبر.

وقال السرّي: زاولت كلّ أنواع الزهد فنلت منه وما أريد إلاّ زهداً في الناس فإني لم أبلغه ولم أطِقْه.

فالحاصل أن الزهد علامة كمال العقل والهداية لأن العاقل يترك

المنفعة العاجلة خوفاً من المضرة الآجلة وينظر بعواقب الأمور خلاف الجاهل ولهذا قال بعضهم:

ما خرج الزاهدون من الدنيا إلى اللّه، بل إلى أنفسهم لأنهم تركوا النعيم الفاني للنعيم الباقي.

وقلت: وهذا في زهد العوام والخواص لأخواص الخوّاص، لأنهم زهدوا في الآخرة حيث كان زهدهم ترك كلّ شيء سوى اللّه تعالى.

الفصل الثامن والأربعون:

البكاء والحزن وتعليم الذكر للظلمة

البكاء

وأما البكاء فحسنه ثابت بالأدلة الأربعة: فهو عبادة محقة وسعادة كبرى ونجاة عظمى. قال الله تعالى: ويخرون للأذقان يبكون.

وقال أبو عمامة لرسول الله (عم): ما النجاة. فقال: أمسك عليك لسانك ولتعفك بيتك وابك على خطيئتك.

وقال (عم): حرمت النار على ثلاثة أعين: عين سهرت في سبيل الله وعين بكت من خشية الله، وسكت الراوي عن الثالثة. وقال أيا أيها الناس إبكوا فإن لم تبكوا فإن أهل النار يبكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها أنهار، فإذا فرغت دموعهم تسيل الدماء فلو أن سفنا أرسلت في مجاري دموعهم لجرت. [واعلم أن البكاء من خشية الله من أدل الأدلة على الخوف من الله تعالى والميل إلى الآخرة. والجالب للبكاء شيئان: الخوف من الله تعالى والندم على ما سلف من التفريط والتقصير. وأعظم سببه المحبة.

الحزن

[وأما الحزن فالحزن انكسار القلب وخشوعه وعلامته انكسار الجوارح الظاهرة من الإنبساط لانكسار الباطن الذي يجلب الحزن. وما يجلب الحزن ثلاثة خصال الفكر في الذنوب الماضية، والفكر في الموت، والنظر إلى ما هو اتقى من الإنسان.

[وقال بعضهم الحزن من آثار الخوف من الله تعالى، وكذلك بهما عمارة القلوب، كما أن الفرح والغفلة خرابها.

[قال الله تعالى: لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين. [وقال (عم): إن الله يحب كل قلب حزين. وقال الفضيل بن عياض: قال السلف زكاة زكاة العقل طول الحزن وسئل أبو سليمان عن الحزن فقال: الحزين لا يتفرغ للسؤال عن الحزن ولا للجواب عنه. وقال بعض السلف: أكثر ما يجده المؤمن في صحيفته من الحسنات الهمّ والحزن. [ويعضد هذا القول ما روي عن النبي عم قال: ما من شيء يصيب المسلم من نصب أو حزن إلاّ كفّر الله تعالى به عنه من سيئاته. [وقوله (عم): إذ كثرت ذنوب العبد ألقى الله عليه الهمّ والحزن ليكفرها عنه.

[واتفق الناس على أن الخوف بسبب الآخرة محمود وبسبب الدنيا مذموم، والدنيا سجن المؤمن، ومن كانت الدنيا سجنه لطال حزنه، فإن الحزن وارد، وإن السجن دار الأحزان ولهذا قال (عم): الدنيا لا تصفو للمؤمن وهي سجنه وبلاءه وعن رابعة العدوية أنها سمعت رجلاً يبكي ويقول والحزناه فقالت له: واقلة حزناه فإنك لو كنت محزوناً لم يتهيأ لك أن تتنفس.

[والحاصل أن درجة الحزن ومنافعه كثيرة وسعادته عظيمة وافرة.

تلقين الذكر

واعلم أن تلقين الذكر لبعض أهل الدنيا من ذوي المناصب والأشراف والمكاسب ثابت من السلف ومجتهدي الطرق على طريق التبرك والمحسوبية بإرادة السلوك والتربية. فنقول تلقين الذكر لبعض أهل المناصب والإشراف والمكاسب والصناع والتجار، والراعي والقروي على طريق التبرك وطرد الغفلة عن القلب القاسي، وتكفير الذنوب، وتخليص البلايا، والنجاة من أنواع المكاره، والسوء، والنقمة، حتى ينصقل فيخشع، وينيب إلى دار الخلود، ويتجافى عن دار الغرور، فيترقّى في التدريج إلى التوبة فما فوقها. كان العارف أبو الحسن الشاذلي قدس سره يقول: ينبغي للشيخ أن لا يأمر المريد برمي الدنيا إلاّ بعد أن يمهد له بساطاً قبل ذكر يذكر له فيه ما يحصل له من أنواع التقربات الإلهية واللطائف الربانية والعلوم اللدنية. وهنالك يتنبه المريد لطلب ما يدعوه الشيخ إليه، ويبادر لامتثال أمره، وتهب عليه ريح التوفيق، فلا يقف مع شيء يحجبه عن حضرة ربه عز وجل.

[والبساط المذكور يختلف باختلاف استعداد المريدين طولاً أو قصراً. فمنهم من تمهّد له بمدة قليلة، ومنهم من لا يتم التمهيد له إلا بمدة طويلة بحسب تفرس الشيخ فيهم وتفاوت معالجتهم. [وقالوا: لا بأس بتناول بعض الشهوات المباحة للنفس إذا ضعفت عن القيام بالعبادة، كما أنه لا بأس بلبس الثياب الفاخرة إظهاراً لنعمة الله تعالى، كما أنه لا بأس بأكل الطعام اللذيذ، وشرب الماء البارد لأجل استجابة الأعضاء للشكر بعزم وقوة. كما عليه السادة الشاذلية، فقد كان العارف الشاذلي يقول لأصحابه كلوا من أطيب الطعام، واشربوا من ألذ الشراب وناموا على أوطأ الفراش، والبسوا

ألين الثياب وأكثروا من ذكر ربكم، فإذا فعل أحدكم ذلك وقال الحمد لله يستجيب كل عضو فيه للشكر، بخلاف ما إذا لم يفعل ذلك، فإنه يقول الحمد لله وعنده اشمئزاز وبعض سخط على مقدور الله. [وقال علي القادري: ليذكرن أقوام في الدنيا على الفراش الممهدة. يدخلهم الله جنات العلي. وفي هذا القول دليل أن الملوك والأمراء ومن يجري مجراهم من أهل الدنيا والمناصب لا تمنعهم لا تمنعهم حشمتهم ورفاهيتهم عن ذكر الله تعالى وهم في ذلك مأجورون مثابون يدخلهم الله برحمته الجنات العلى، وفيه إيماء إلى طريقة بعض السادات الصوفية كالنقشبندية والشاذلية والكبروية.

الفصل التاسع والأربعون:

العبودية، والعبادة وأصولها

وأما العبودية في اصطلاح أهل الحقيقة الوفاء بالعهد بالموجود والصبر عن المفقود. [وقيل: هي ترك الإختيار في ما يبدو من الأقدار [وقيل: التبري من الحول والقوة. [وقيل هي معانقة المأمورات ومفارقة المنبهات. [وقال ذو النون: العبودية أن تكون عبده في كل حال. [وقال الحريري: عبيد النعم كثيرون وعبيد المنعم قليلون. [وقال بعضهم: متى نفيت عنك سكونك عن اللذة، واعتمادك على الحركة، فقد اعطيت العبودية حقها، واعلم أن العبودية لله إذا صحّت حصلت الحرية عن كل ما سوى الله. [وقال أبو علي الدقّاق: ليس شيء أشرف للعبد من العبودية ولذلك وصف الله بها نبيّه في أشرف أوقاته في الدنيا وهو ليلة المعراج فقال: [سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام. [وقال: أوحى إلى عبده ما أوحى .

[وقالوا: العبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له عين اليقين.

واعلم أن «نعبد» من العبادة أو من العبودية. والماضي من الأول جاء بفتح العين ومن الثاني بضمه والمضارع منهما بضم العين لا

غير. فصاحب العبادة عابد وجمعه عُبّاد، وصاحب العبودة عبد وجمعها عِباد. [وقيل العباده أن ما كان فيه رضاء الله، والعبودة أن تحب ما فيه رضاءه وأصول العبادة ستة:

الصلاة بلا غفلة، والصوم بلا غيبة، والزكاة بلا منّة، والحج بلا أرابة، ومحافظة الأمر والنهي بلا سمعة.

وأركان العبودة أيضاً ستة:

الرضاء بلا فتور، والصبر بلا شكاية، واليقين بلا شكوك. والشهود بلا غيبة، والتوجد بلاقصور، والإتصال بلاقطيعة.

فمن اتصف بها لا بد أن يختار من العبادات الصوم فيصير عفيفاً عن ملذات الدنيا جميعها، ومن المعاملات الرهن فإن قلبه رهن عند ربه، ومن المناكحات الطلاق فيطلق الدنيا ولذاتها ثلاث، ومن الجنايات القصاص، فيهلك نفسه في سبيل ربه فيكون قصاصه عن جناية المعصية والقصور في الأوامر. وقال الله تعالى: ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب.

الفصل الخمسون:

حقيقة التواضع والخشوع

التواضع:

أما التواضع والخشوع في اللغة فبمعنى واحد، وفي اصلاح أهل الحقيقة فإن الخشوع: يعني الإنقياد للحق. وقيل: هو الخوف الدائم في القلب وقيل هو قيام القلب بين يدي الحق بهمّ الجميع. وقيل ذبول يرد على القلب عند اطلاع الرب، وقيل هو أطرق السريرة أوباً لمشاهدة الحق. وقيل هو أدب القلب وانخفاسه والقهقرى عن سلطان الحقيقة. وقيل هو مقدمات غلبة الهيبة. وقيل: هو قشعرة ترد على القلب بغتة عند مفاجأة كشف الحقيقة. وقيل: الخاشع من جمدت نيران شهوته وسكن دخان صده.

روى عن بعض العارفين أنه رأى رجلاً منقبض الظاهر منكسراً قد ذوى منكبيه فقال له: يا فلان الخشوع ههنا، وأشار إلى صدره لا ههنا وأشار إلى منكبيه. ورأى النبي (عم) رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه. وقيل شرط الخشوع في الصلاة أن لا يعرف من عن يمينه ولا عن شماله.

أما التواضع في اصطلاحهم: الإستسلام للحق وترك الإعتراض

على الحكم. وقيل: هو الخشوع للحق والإنقياد وقبوله من الغني والفقير والكبير والصغير والشريف والوضيع.

واعلم أن الخضوع والتواضع من أجلّ الأصاف وأشرفها وقد مدح الله تعالى وقال:

﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾

وقيل في تفسير قوله تعالى: وعباد الرحمان الذين يمشون في الأرض هونا. معناه خاشعين متواضعين.

وقال النبي (عم): لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. فقال رجل: يا رسول الله: إن الرجل يحب أن يكون ثوبة حسناً. فقال (عم): إن الله يحب الجمال. الكبر من بطَر الحق وغمض الناس. وقال: من تواضع الله رفعه لله. وقال: طوبى لمن تواضع من غير منقصة وذلّ من غير مسكنة.

وكان النبي (عم) يعود المريض ويشيّع الجنازة ويجيب دعوة العبد، ويركب الحمار مخطوماً بحبل من ليف ويعلق البعير والشاة، ويقيم البيت، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويأكل مع الخادم، ويطحن معه إذا عيي، ويحمل حاجته من السوق إلى أهله ويصافح الغني والفقير ويبدءهما بالسلام ولايحتقر ما دُعي إليه ولو كان حشف التمر.

[وكان (صلعم) خفيف المؤنة، ليّن الخلق، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بسّاماً من غير ضحك، محزوناً من غير عبوس، رقيق القلب رحيماً لكل مسلم، لا يتجشأ قط من شبع، ولا يمد يده لطمع.

[وكان عمر بن الخطاب يسرع في المشي ويقول: أسرع للحاجة وأبعد عن الكفر.

وقال ابن الزبير: رأيت الفاروق وعلى عاتقيه قربة ماء فقلت له يا أمير المؤمنين: ماينبغي لك هذا. فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دخل نفسي العجب فأحببت أن أكسرها، ومضى بالقربة إلى بيت امرأة من الأنصار فأفرغها في إنائها.

قال (صلعم): ما من آدمي إلاّ في رأسه حكمة بيد ملك فإذا تواضع قيل للملك إرفع حكمته وإذا تكبر قيل للملك ضع حكمته. أخرجه الطبراني عن أبي عباس.

قال (عم): من تواضع لله رفعه الله.

قال أبو حنيفة (رح) لإبنه حمّاد: يا بني أرشدك الله تعالى وأيدك. أوصيك بوصايا إن حفظتها حافظة عليها وإني رجوت لك السعادة في دينك إنشاء الله:

١ ـ مرعاة التقوى بحفظ جواحك من المعاصي خوفاً من الله تعالى والقيام بأوامره عبودية له تعالى.

٢ ـ أن لا تستقر على جهل ما تحتاج إلى علمه

٣ ـ أن لا تعيش إلاّ مما تحتاج إليه في دينك أو دنياك

٤ ـ أن لا تنصب من نفسك

٥ ـ أن لا تعادي مسلماً أو زمياً

٦ ـ أن لا تقنع من الله بما رزقك من مال وجاه

٧ ـ أن تحسن التدليس فيما في استغنائه عن الناس

٨ ـ ألاّ تستهين عن الناس عليك

٩ ـ أن تقمع نفسك من الخوف في الفضول

١٠ ـ أن تلقى الناس مبتدءً بالسلام محسناً في الكلام متحبباً إلى أهل الخير مدارءً لأهل الشر.

١١ ـ أن تكثر من ذكر الله تعالى والصلاة على رسوله (صلعم).

١٢ ـ أن تشتغل بالإستغفار وهو قوله (صلعم): اللهم أنت ربي لا إله إلاّ أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت. من قالها حين يمسي فمات من ليله دخل الجنة. ومن قالها حين يصبح فمات من يومه دخل الجنة. وعن أبي الدرداء حين قيل له قد احترق بيتك قال: ما احترق وقد سمعت من رسول الله (صلعم) إن من قالها أول نهار لم تصبه مصيبة حتى يمسي. ومن قالها آخر النهار لم تصبه مصيبة حتى يصبح وهي: اللهم أنت ربي لا إله إلاّ أنت عليك توكلت وأنت ربّ العرش العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم واعلم أن الله على كل شيء قدير وإن الله قد أحاط بكل شيء علماً. اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي وشر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم.

١٣ ـ أن تواظب على قراءة القرآن كل يوم وتهدي ثوابها إلى الرسول (صلعم) ووالديك وأستاذك وسائر المسلمين.

١٤ ـ أن تحترز من أصحابك أكثر من أعدائك إذ قد كثر في الناس الفساد فعدوك من صديقك مستفيد.

١٥ ـ أن تكتم سرك وذهنك وذهابك ومذهبك.

١٦ ـ أن تحسن الجوار وتصبر على أذى الجار.

١٧ ـ أن تتمسك بمذهب أهل السنّة والجماعة وتتجنب عن أهل الجهالة وذوي الضلالة.

١٨ ـ أن تخلص النية في جميع أمورك وتجتهد في أكل الحلال على كل حال.

١٩ ـ أن تعتمد خمسة أحاديث انتخبتها من خمسمائة ألف حديث:

الأول: إنما الأعمال بالنيات، الثاني: من حسن إسلام المرء ترك ما لا يعنيه، الثالث: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه، الرابع: أن الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ممن اتقى الشبوهات أسبرأ لدينه وعرضه ومن وقع بالشبوهات فقد وقع في الحرام، والخامس: المسلم سلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

الثاني: أن يكون بين الخوف والرجاء في حال صحته ويموت بحسن الظن بالله تعالى وغلبة الرجاء وبقلب سليم إن الله غفور رحيم.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى الجبال أني مكلم على واحد منكم نبياً فتطاولت الجبال وتواضع الطول سيناء مكلم الله عليه موسى (عم) لتواضعه.

وقال أبو سليمان الداراني: لو اجتمع الناس على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي لما قدروا.

وقيل: من لم يتضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره

وقيل: علامة التواضع أن يعتقد الإنسان أن كل مسلم خير منه

وقال الفضيل: من رأ لنفسه قيمه فليس له في التواضع نصيب

قال أبو يزيد: التواضع من لا يرى في الخلق شراً منه

وقيل: جعل الله الشرف في التواضع ممن طلبه في الكبر لم يجده.

الفصل الواحد والخمسون:

حقيقة الصبر والقناعة وعلامة المحبة

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.

وقال الله تعالى: ما صبر صبراً جميلاً. وقال فاصبر كما صبر أولي العزم من الرسل. وقال فاصبر إن وعد حق.

وقال (صلعم): الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله.

وقال الصبر والإحتساب من عتق الرقاب يدخل الله صاحبهن الجنة بغير حساب

وقال (عم): الصبر ثلاثة: مصبر على النصيبة وصبر على الطاعة وصبر على المعصية.

وقال الجنيد: الصبر تجرع المرارة من غير تعبيس.

وقيل: هو استقبال البلاء بالرضا والثبات وعلامته أن يكون بين أصحابه لا نفرق بينه وبينهم وهو في عمرات البلاء وبهذا فسّر قوله تعالى: فاصبر صبراً جميلاً.

وقال النبي عليه السلام ما أعطى أحداً أفضل من الصبر وقال

عليّ كرم الله وجهه الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

والصبر على خمسة أقسام:

صبر لله وهو غنى.

وصبر في الله وهو بلاء.

وصبر بالله وهو بقاء.

وصبر مع الله وهو وفاء.

وصبر عن الله وهو جفاء.

والفرق بين الصبر والمصابرة دون المرابطة فمعناه: اصبروا بنفوسكم على طاعة الله وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله، ورابطوا بأسراركم على الشوق إلى الله. وقيل معناه: اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله. [وقيل: إنما يوفي الصابرون في حقه.

وقيل: إنما قال الله في حق أيوب (عم): أنا وجدناه صابراً. ولم يقل صبوراً، والصبور أبلغ في معنى الصبر من الصابر. لأنه لم يكن في جميع أحواله في حالة الصبر، بل كان في بعض أحواله يتلذذ بالبلاء ويستعد به، فلم يكن في تلك الحال صابراً لأن الصبر لا يكون إلا مع المشقة والكراهة.

وسئل السري عن الصبر فأخذ يتكلم فيه فدب على رجله عقرب وأخذت تضربه مرة بعد مرة وهو ساكن فقيل له هلاّ لا ألقيتها. فقال: استحيت من الله أن أتكلم في الصبر ولا أصبر.

ووقف رجل على الشبلي فقال له: أي الصبر أشد على الصابرين فقال: الصبر في الله. قال لا. قال: الصبر لله. قال لا. قال: الصبر مع الله. قال لا. قال الشبلي: أصرّ حتى كادت تخرج روحه معها. وقال بعضهم: تجرّع الصبر فإن قتلك قتلك شهيداً، وإن أحياك أحياك عزيزاً.

المحبة

واعلم أن من جملة المحبة والإتباع طلب الحلال والطيب. كما قال تعالى:

﴿كلوا من طيبات ما أحلّ الله﴾، وقال تعالى: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾.

وقال: وأحل الله البيع وحرّم الرباء.

وقال (عم): طلب الحلال فريضة على كل مسلم، وقال: العبادة عشر أجزاء تسعة منها طلب الحلال. [فيكون طلب الحلال وأكله من أحكام الإيمان. وإعلم أن أكل الحلال ولبسه ومسكنه أصل جميع الأعمال الصالحات لأن من أكل الحلال أطاعته جوارحه في طاعة الله تعالى، وكلما كانت الطعمة أحلّ كان العمل أصلح وأرفع عند الله.

وجاء في الخبر: من أكل الحلال أربعين يوماً نوّر الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة في قلبه، وزهّده الله عز وجلّ في الدنيا. ومن لم يكن مطعمه من الحلال لم يكشف الحجاب عن قلبه، ولم يشاهد أسرار الجبروت بعين بصيرته، ولم يظهر في قلبه أنوار الذكر.

القناعة

وأما القناعة ففي اللغة الرضاء بالقسم

وفي اصطلاع أهل الحقيقة هي السكون عند عدم الوقوف والمألوفات. وقيل: هي الإكتفاء بالقليل.

وقيل: هي الإستغناء بالموجود وترك التطلع إلى المفقود.

وقال عكرمة: وغيره من أئمة التفسير في قوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحييه حياة طيبة﴾ إن المراد بالحياة الطيبة القناعة. وقيل إن قوله تعالى: ﴿ليرزقهم الله رزقاً حسنا﴾ يراد منه القناعة. [وقيل في قوله تعالى: ﴿إنمايريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾[1] (الآية). الرجس: أي البخل والطمع. ويطهركم تطهير: أي بالسخاء والقناعة. وقيل: بالسخاء والإيثار. وقيل في قوله تعالى: ﴿وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ إنه أراد بالملك كمال الحال في القناعة.

وقيل: وضع الله خمسة في خمسة: العز في الطاعة والذل في المعصية والهيبة في قيام الليل، والحكمة في البطن الخالي والغنى في القناعة.

واعلم أن مثل الطامع كمثل الكلب المزابل يقطع طوال عمر بحذاء دكن القصاب لرجاء عظمة أو قطعة لحم ولا يجدها.

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٣ ـ ٣٣/٣٣.

الفصل الثاني والخمسون:

حقيقة الإخلاص واليقين وأصول المقام

الإخلاص:

وأما الإخلاص في اللغة: ترك الرياء في الطاعة، وفي اصطلاح أهل الحقيقة هو كذلك أيضا. ولهذا قال بعضهم: تصفية الطاعة عن ملاحظة المخلوقين. وقال بعضهم، هو أن يكون المقصود بالطاعة وجه الله فحسب. ولهذا قال رويم: الإخلاص كل عمل لايريد عليه صاحبه غرضا في الدنيا والآخرة. وقال: هو أن تستوي عبادة العابد في الظاهر والباطن. وقيل: المخلص من يخفي حسناته كما يخفي سيئاته. [وقال النبي (عم) حكاية عن الله تعالى: الإخلاص سر من أسراري استودعه قلب من أحب من عبادي. وقال (عم) حكاية أخرى عن الله تعالى: أنا أغني الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملا وأشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو الذي أشرك. [وقال: طوبى للمخلصين أولئك مصابيح الهدى تتجلى عنهم كل فتنة ظلماء. وأول الإخلاص في التوحيد وكيفيته في صورة الإخلاص. وقوله تعالى: وما أمروا إلا ليعبدوا الله. [وقال مكحول: ما أخلص عبد أربعين يوماً إلاّ ظهرت منه ينابيع الحكمة من قلبه

على لسانه. [وقال أبو يعقوب السوسي: من رأى في إخلاصه إخلاصاً يحتاج إخلاصه إلى إخلاص. [وقال الفضيل: ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجلهم شرك والإخلاص الخلوص من هذين. [وقال السري: من تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

اليقين:

وأما اليقين ففي اللغة العلم الذي لا شك معه، واليقين عند أهل الحقيقة رؤية العيان بقوة الإيمان لا بالحجة والبرهان. وقيل: هو مشاهدة الغيوب بصفاء القلوب، وملاحظة الأسرار بمخاطبة الأفكار. [وقال الجنيد: اليقين علم لا يتغير ولا يحوّل. [وقيل هو زوال الشبهة والمعارضات. [وقد ذكر الله تعالى اليقين في كتابه الفريد على ثلاثة أوجه: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين فقال أهل الحقيقة: علم اليقين: مايحصل عن الفكر والنظر. وعين اليقين: ما يحصل عن العيان. وحق اليقين: اجتماعهما.

وقيل: اليقين ينقسم إلى ستة أقسام: إسم ورسم وعلم وعين وحق وحقيقة. فالإسم والرسم لعوام المؤمنين. وعلم اليقين لعوام العلماء. وعين اليقين للأولياء، وحق اليقين للأنبياء، وحقيقة اليقين لمحمد (عم). ثم إن بعض المشايخ جعل اليقين من الأحوال لا من المقامات فجعله غير مكتسب. وقال بعضهم: هو المقامات. وأولها المعرفة ثم اليقين ثم التصديق ثم الإخلاص ثم الشهادة ثم الطاعة. فجعل أول الواجبات المعرفة وقد ذكر الله الموقنين في كتابه العزيز فقال: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾.

[وقال تعالى: وبالآخرة هم يوقنون. [وقال النبي (عم): كفى بالموت واعظاً وكفى باليقين غنى وكفى بالعبادة شغلاً.

وقال ذو النون: ثلاث من علامات اليقين: قلة مخالطة الناس في الإعسار، وترك المدح لهم عند العطاء، وترك ذمهم عند المنع. وقال عامر بن عبد قيس: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً.

وقال ابراهيم الخواص: طلبت أكل الحلال فكنت اصطاد السمك فهتف بي يوماً هاتف. ياابراهيم لم تجد معاشاً إلاّ في قتل من يسبحنا فكسرت القصبة وتبت عن الصيد.

وقال الخواص أيضاً: لقيت في أرض التيه غلاماً كأنما سبيكة فضة فقلت إلى أين يا غلام. فقال إلى مكة. فقلت بلا زاد ولا نفقة. فقال: يا ضعيف اليقين من يقدر على حفظ السموات والأرض لا يقدر على إيصالي إلى مكة بغير زاد ولا نفقة. فتركته ومضيت فلما وصلت إلى مكة لقيته فقال لي: يا شيخ أنت إلى الآن على ذلك الضعف من اليقين فقلت: لا والله.

وقيل: اليقين في اللغة العلم الذي لا شك معه. وفي اصطلاح اعتقاد الشيء بأنه كذا مع اعتقاد أنه لا يمكن إلا كذا مطابقاً للواقع غير ممكن الزوال والقيد الأول: جنس يشمل الظن أيضاً. والثاني يخرج الظن، والثالث يخرج الجهل الركب والرابع يخرج اعتقاد المقلد المصيب. وعند أهل الحقيقة رؤية العيان بقوة الإيمان لا بالحجة والبرهان.

وقيل: مشاهدة الغيوب بصفاء القلوب، وملاحظة الأسرار بمحافظة الأفكار.

وقيل: اليقين هو طمأنينة القلب على حقيقة الشيء. ويقال: يقن الماء في الشيء: إذا استقر في الحوض.

قال القشيري: أصول مقامات اليقين تسعة: التوبة والصبر والشكر والرجاء والخوف والزهد والتوكل والمحبة والرضى. [وقال

علاّمة الفاسي: ثم الحب في الله لأهل العلم، والصلاح والدين والزهد والبغض في الله للظلمة والمبتدعة والفسقة المعلنة وأتباعه في مقامات اليقين. مثل الخوف والرجاء والشكر والحياء والتسليم والتوكل والشوق والمحبة.

وقال (صلعم): العلم ثلاثة: كتاب ناطق وسنّة ماضية ولا أدري. أخرجه الديلمي.

وقال (عم): العلم حياء الإسلام وعماد الدين ومن علم علماً أتم الله أجره، ومن تعلم فعَمِل علّمه الله ما لم يعلم. أخرجه الشيخ عن ابن عباس. [قال (صلعم): فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي. أخرجه الحارث. [وقال (صلعم): كفى بالمرء علماً أن يخشى الله وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بنفسه. وقال: من خرج لطلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع. أخرجه الترمزي.

وأما علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين وكلها عبارة عن علوم جليّة. فاليقين: العلم الذي لاشك فيه ولا يوصف به الحق سبحانه لعدم التوفيق، وهي في اللغة بمعنى واحد في اصطلاح أهل الحقيقة، وقد ذكرنا بينهما الفرق في باب اليقين.

وقال القشيري: علم اليقين ما كان بشرط البرهان، وعين اليقين ما كان بحكم البيان، وحق اليقين ما كان لبعث العيان. فعلم اليقين لأرباب العقول وعين اليقين لأصحاب العلوم وحق اليقين لأصحاب المعارف.

أخرج الترمزي عن معاذ: من طلب العلم ليجازي به العلماء وليمادي به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار.

وابن عساكر: من علم آية من كتاب الله تعالى وباباً من العلم أسمى الله أجره إلى يوم القيامة.

وعن أبو سعد وأبو نعيم: من غدا أو راح وهو في تعليم دينه فهو في الجنة.

والطبراني: الناس رجلان عالم ومتعلم ولا خير في ما سواهما.

وقال (عم): فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

وقال (عم): العلماء ورثة الأنبياء. لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر.

وقال: تعلموا العلم فإن تعليمه لله تعالى خشية وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعلمه لمن لا يعلمه صدقة وبذله لأهل قربة وبه يعرف الحلال من الحرام.

الفصل الثالث والخمسون:

التلوين والتمكين والثبات وآفات إنكار الطريق

التلوين والتمكين:

وأما التلوين فهو مقام الطلب والفحص عن طريق الإستقامة، وهو صراط المستقيم والتمكين هو مقام الإستقامة والثبات على صراط المستقيم.

وإنما سمّوا أرباب التلوين لتلونهم وتبدل صفاتهم البشرية في طلب الصراط المستقيم بخلاف أرباب التمكين فإنهم ثابتون مستقرون على استقامتهم. [فالتلوين صفة أرباب الأحوال والتمكين صفة أهل الحقائق. فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين لأنه يرتقي من حال إلى حال وينتقل من وصف إلى وصف، فإذا وصل تمكن، فصاحب التلوين أبداً في الزيادة، وصاحب التمكين وصل واتصل.

وقال المشايخ: انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بنفوسهم فإذا ظفروا بها فقد وصلوا يريدون بذلك زوال أحكام البشرية عنهم واستيلاء سلطان الحقيقة عليهم.

وقال أبو علي الدقاق: كان موسى (ع) صاحب التلوين لأنه رجع من سماع كلام الله تعالى وطلب الرؤية إلى سير وجهه لما أثرت فيه الحال، ومحمد (صلعم) كان صاحب تمكين فرجع كما ذهب ليلة المعراج، فلم يؤثر فيه ما شاهده ولا ما سمعه تلك الليلة.

البعد والقرب:

وأما البعد والقرب: فالقرب أول مراتب القرب: القرب من طاعته وشغل الأوقات بعبادته. [والبعد أول حال التدنس بمخالفته والإعراض عن طاعته. [فقرب من الله بالإيمان والإحسان، وقرب الله من العبد بما يخصّه في الدنيا من العرفان وفي الآخرة من الشهود والعيان لا بالمسافة لله عن ذلك. ولا يقرب العبد من الحق إلاّ ببعده عن الخلق والقرب من صفات القلوب دون الأجسام وقرب الله تعالى: بالعلم والقدرة عام في الكل، وباللطف والنصرة خاصّ بالمؤمنين، وبخصائص الأنس خاص بالأولياء.

قال الله تعالى: ونحن أقرب إليه من حبل الوريد

وقال: ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون

وقال: وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعا. [والفرق بين القرب والحضور أن القرب يكون بالطاعة والعبادة الدائمة، والحضور هو الحضور مع الله بصرف كليته إلى ذكره ورؤية القلب.

القرب حجاب عن القرب: فمن شاهد في نفسه محلاّ وخطراً فهو ممكور، ولهذا قالوا: أوحشك الله من قربه. أي من شهودك لقربه.

واعلم أن الإنكار على السادات الصوفية والطريقة العلية المتبعين

للسنّة السنية والقافعين للبدعية الردية. خصوصاً أهل العلم النافع والعمل الرافع، والمعارف والأسرار والكشف الصحيح والأنوار سمّ قاتل وهلاك عظيم وقد ورد بِهِ الوعيد الشديد وهو أمر خطير، وهو علامة إعراض القلب عن الله تعالى وحشوه بالأمراض، ويخشى على فاعله سوء الخاتمة.

وهو لا يصدر غالباً إلاّ من بعض المتفقهة القاصدين.

قال العارف عبد الغني النابلسي: وقد اعتاد المتفقهة في كل زمان على التفشيش[1] عن عيوب الناس الشرعية، بحيث لا يؤولون مايجدونه مخالفاً لعلمهم وإن كان له ألف تأويل، بل ينكرون بمقتضى علمهم ما يكون محتملاً للخطأ ولو بوجه ضعيف وإن كان صوابه ظاهراً، بل ربما كان بعضهم يجهل مذهب الآخر فينكر عليه ما يخالف مذهبه، بل ينكرون أصل الطريق وأربابها كلهم وهذه طريق المتفقهة المتعصب والسفهاء لا الفقهاء، فإنها تقصر مرادهم أن يعرفون بين الناس بالعلم والفقه والرياسة لأغراض شيطانية يريدون إنقاذها، وشهوات نفسية يحاولون إيجادها فيضطر بهم الأمر إلى التفتيش عن عيوب الناس، فكيف يؤولون شيئاً مقصدهم التفتيش عليه، ومتى ظفروا بوجه فاسد في حال إنسان فكأنهم ظفروا بملك الدنيا، ويفرحون كثيراً إن رأوا حسنة من أجل أن يدفنوها، وإن رأوا سيئة أفشوها. فمن المحال أن يقيلوا عثرة مؤمن أوْ يتغافلوا عن زلّة بمسلم لأنهم في زعمهم لا يرتقون ولا يرتفعون إلاّ بإنكار المناكر خصوصاً على الكامل الخاشع، والعابد الذاكر، فيكونون ضالاً وفضلاً.

[وأما الفقهاء أصحاب القدم الراسخ في العلوم على حسب

---

(١) كلمة من العامية. «فش خلقه».

المذاهب الأربعة فإن قلوبهم أولاً متجانبة عن الدنيا مقبلة على الآخرة، وبسبب ذلك لا حسد عندهم ولا تكبر ولا عداوة ولا حقد ولا رياء ولا سمعة يعلمون أحكام الله تعالى على وجه التحقيق أصولاً وفروعاً، ومن شدة شفقتهم على عباد الله لا يكادون يجدون في الناس منكراً أصلاً من كمال اشتغالهم بعيوب أنفسهم عن عيوب الناس، ولا يجدون في الغير مفسدة يعدونها على أنفسهم ولا تخفى عليهم دسائس النفوس، فهم في صدد كمال نفوسهم وتطهيرها، فهم شغل شاغل عن إنكار المناكر على الغير، وإذا رأوا أمراً لا ينظرون منه إلاّ الوجه الحسن في حق الغير احتياطاً وورعاً، وعندهم أحكام الشريعة عظيمة وأمور كلية يقرأونها للناس في الدروس، وليس في قلوبهم وجود شيء منها في أحد من الناس على اليقين أصلاً.

[ذكر النجم الغزي في منير الوجد عن الشافعي قال: من أحب أن يفتح الله على قلبه نور الحكمة فعليه بالخلوة وقلة الأكل وترك مخالطة السفهاء، وبعض العلماء الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب.

شروط نقد الصوفية

وقال شيخ الإسلام المخزومي: لا يجوز لأحد من العلماء الإنكار على الصوفية إلاّ إن سلك طريقهم ورأى أفعالهم وأقوالهم مخالفة للكتاب والسنّة والإجماع والسلف، وإما بالإشاعة والظن والخبر والكذب والبهتان عليهم فلا يجوز الإنكار ولا سبّهم. وأطال في ذلك.

ثم قال: وبالجملة فأقل ما يحق على المنكر حتى يسوغ له الإنكار على أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، أن يعرف سبعين أمراً ثم

يسوغ له الإنكار: منها غوصه في معرفة معجزات الرسل (صلعم) وكرامات الأولياء على اختلاف طبقاتهم ويؤمن بها ويعتقد أن الأولياء يرثون الأنبياء في جميع منجزاتهم إلاّ ما خصّ بهم، [ومنها اطلاعه على التفاسير سلفاً وخلفاً، [ومنها الإطلاع على الأحاديث ومنازع الأئمة المجتهدين ومعرفة أسرار الكتاب والسنّة، والتأويل، وشرائط اللغة والمجازات والإستعارات حتى يبلغ الغاية، [ومنها كثرة الإطلاع على مقامات السلف والخلف في معنى آيات الصفات وأخبارهما ومن أخذ بالظاهر.

ومنها تبحّره في علم الأصول ومنازع أئمة الكلام وتكميل العقائد، [ومنها معرفة اصطلاح القوم فيما عبّروا عنه من التجلي الذاتي والصوري، وما هو الذات وذوات الذوات، ومعرفة حضرة الأسماء والصفات، والفرق بين الحضرة والأحدية والواحدية، ومعرفة الظهور والبطون والأزل والأبد وعالم الغيب والكون والشهادة والشؤون وعالم الماهية والهدية والسكر والمحبة، ومن هو الصادق في السكر والجذب حتى يسامح، ومن هو الكاذب حتى يؤخذ، وغير ذلك، [فمن لم تيعرف مرادهم كيف يحل كلامهم؟ أو ينكر عليهم بما ليس مرادهم؟..

الفصل الرابع والخمسون:

حقيقة الإرادة والمشية والتوجه الأعلى

وأما حقيقة الإرادة والمشية والمريد.

فالإرادة والمشية في اللغة بمعنى واحد في اصطلاح أهل الحقيقة: الإرادة نهوض القلب في طلب الحق تعالى. ولهذا قال بعضهم لوعة تهوّن كل روعة.

وقال أكثر المشايخ: الإرادة ترك ما عليه العادة، وعادة الناس في الغالب الإقامة في أوطان الغفلة والسكون إلى اتباع الشهوات، فمن خرج عن ذلك سمّى مريداً. فالمريد في اللغة من له إرادة، وفي اصطلاح أهل الحقيقة من لا إرادة له، وكل مريد في الحقيقة لأنه مراد الله تعالى.

قال القشيري وغيره: المريد المبتدىء والمراد المنتهي، ولا بد لأكثر السالكين من حالة ابتداء بالمجاهدات والرياضات حتى يصلوا إلى درجة الإنتهاء، ومنهم من يكاشف في ابتدائه بجليل المعاني ويصل إلى ما لم يصل إليه أرباب الرياضات رفقاً من الله تعالى وترفيهاً له إلاّ أن أكثر هؤلاء يردّون إلى المجاهدات بعد هذا الرفق ليستوفي ما فاتهم من أحكام أهل الرياضات.

قيل: المريد سالك والمراد مالك.

وقيل: أرسل ذو النون المصري إلى أبي يزيد البسطامي يقول له: يا أخي إلى متى هذا النوم والراحة والقافلة قد مضت. فقال أبو يزيد لرسوله: قل لأخي ذو النون: الرجل من ينام الليل كله ثم يصبح في المنزل قبل القافلة. فقال ذو النون: هنيئاً له، هذا الكلام لا تبلغه أحوالنا، والإرادة مطلوبة شرعاً.

قال الله تعالى: ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدات والعشيّ.

وقال النبي (عم): إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله. قيل: يا رسول الله: كيف يستعمله. قال: يوفقه للعمل الصالح قبل الموت.

ومن صفة المريد ألاّ يفطر أناء الليل وأطراف النهار فيكون ظاهره مجاهداً وباطنه مكابداً، [ومن صفته التحبب إلى الله تعالى بالنوافل والإخلاص في نصيحة الأمة والأنس بالخلوة، والصبر على مقامات الأحكام والإيثار لأمر الله، والحياء من نظره وبذل المجهود فيما يحبه الله ويرضاه، وطلب كل سبب يوصل إليه، والقناعة بالمحمول وعدم القرار إلى أن يصل إليه.

وقيل: أول مقامات المريد إرادة الحق بإسقاط إرادته فإن لطفه يقوم بتربيته ويجذبه من عنان تصرفه ليتصرف الحق فيه فيكون به يُبصر، وبه يسمع، وبه يمشي، وبه ينطق وبه يبطش، كما جاء في الحديث القدسي.

وقيل: من علامات المريد أن يكون أكله فاقة وكلامه ضرورة ونومه غلبة.

وقيل: المريد إذا سمع شيئاً من صفات القوم وأحوالهم فعمل به صار ذلك حكمة في قلبه إلى آخر عمره، فتشفع به هو ومن يسمع منه، وإذا لم يعمل به كان حكاية يحفظها أياماً ثم ينسيها، [وقال

الجنيد: الحكايات وأحوال العارفين جند من جنود الله تعالى يقّوي بها قلوب المريدين ودليله قوله تعالى للنبي:

﴿وكلا تقصّ عليك من أنباء الرسل ما تُثبت به فؤادك﴾[1]

وقال الجنيد أيضاً: المريد الصادق غني عن علم العلماء.

وقيل: فات المريد التزوج وكتابة الحديث والسفر

وقيل: أشد شيء على المريد معاشرة الأضداد

وقال صدر الدين قنوي في رسالة التوجه الأعلى: إعلم أن لنا مستنداً في وجودنا وهو خالقنا وخالق كل شيء، ولا شك أنه أرحم منا وأشرف وأكمل سيما من حيث افتقارنا إليه في استفادة وجودنا منه أولاً وفي إمداده إيانا بما به بقاؤنا، ونحتاج إليه في تخليص نفوسنا من الشقاء وموجباته وأسبابه، وتحصيلنا أسباب الفوز بالسعادة، ومقام القرب منه معرفة كيفية قرع باب الحضرة التي بالدخول فيها تحصل السعادة القصوى، فإنه الغني عنا وعن مثلنا نفتقر إليه ذاتاً وصفاتاً، كما أن الفضل والغناء والكمال الذاتي له، ومن صفاته، وقد أخبرنا على ألسنة سفرائه أنه خلقنا لعبادته وأراد من التحقق بعبوديته ومعرفته، وأمرنا بتوحيده ورغبنا في الخلوة وطلب السعادة بالإقبال عليه والتوجه الأخلص الخفي إليه، وحذرنا من الغفلة والنسيان والإغترار بما تسوله النفس الأمّارة بالسوء ووساوس الشيطان ووعدنا بالإجابة إذا دعونا، وبذل لنا المنحة الخالصة المخزونة في غيب خزائن جوده فوجب على كل عاقل طالب خلاص نفسه، راغب في تحصيل مقام القرب في المراتب العلية من حضرة قدسه أن يهتم ويعزم على التوجه إليه

(١) سورة يوسف، آية ١٢٠ - ١٢٠/١١

تعالى بقلبه الذي هو أشرف ما فيه لأنه المتبوع لما اشتمل عليه نسخة وجوده من صور العالم ومعانيه، لأنه كما أخبرنا محل نظر الحق ومنصة تجليه ومهبط أمره ومنزل تدلّيه.

لكن يجب أن تعلم أن القلب ليس عبارة عن الشكل الصنوبري، فإنه وإن سمي قلباً فإنما ذلك على سبيل المجاز وباعتبار أن هذه التسمية ليست إلاّ صفة. وكل عاقل يعلم أن «القلب» الذي أخبر الحق على لسان نبيه بقوله: «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي» ليس هذا اللحم الصنوبري الشكل. فهذا أحقر من أن يكون محل سره جلّ وعلا، فضلاً عن أن يسعه ويكون مطمح نظر الأعلى ومستواه.

وإنما القلب المقصود هو القلب الإنساني الذي هو عبارة عن الحقيقة الجامعة بين الأوصاف والشؤون الربانية وبين الخصائص والأحوال الكونية الروحانية منها والطبيعية، وهي حقيقة تنشأ وتبسط أحكامها وتظهر من بين الهيئة الإجتماعية الواقعة بين الصفات والحقائق الإلهية والكونية وما يشتمل عليه هذان الأصلان عن الأخلاق والصفات اللازمة، وما يتولد من بينهما بعد الإرتياض والتحنك والتذكية وزوال الأحكام الإغراقية بغلبة: بغلبة الإعتدال الرباني الحاكم على الإعتدال الروحاني والطبيعي والعنصري والصوري العلوي الملكي الفلكي والإعتدال السفلي الصغري، فتظهر الحقيقة القلبية ظهور السواد بين الزاج والعفص والماء، وكظهور النار بين الحجر والحديد، فتلك الصورة الظاهرة بين ما ذكرنا هي صورة الحقيقة الموصوفة بما وصف الحق تعالى، والصنوبري منزل تدلّي تلك الصورة ومرآتها. والناس فيما ذكرت على درجات عظيمة التفاوت:

فمن عرف كلياتها عرف حقيقة الإسلام والإيمان والولاية والنبوة والرسالة والخلافة والكمال والقدر المشتركة بينهما جميعاً.

وما يميز كل واحد عن الأخرى هو ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة، فما لا يكون مقارناً الإيمان والعمل الصالح يكون استدراجاً، وما يكون مقارناً بهما فهو كرامة وما يكون مقارناً بدعوى النبوة فهو معجزة.

كرامات الأولياء:

وأما كرامات الأولياء فهي ما يكرمهم الله تعالى به من الأمور الخارقة للعادة ووقوع الكرامات جائز ومتحقق عند العلم والمعرفة، وفائدتها معرفة الولي الصادق من المدعي الكاذب بتعريف الله تعالى.

وقال عثمان رضي الله عنه: من كان له سريرة صالحة أو سيئة أظهر الله تعالى منها رداء يعرف به ولا بد من كونها فعلاً خارقاً للعادة في زمن التكليف.

وقال سهل بن عبد الله التستري: المعجزة للأنبياء والكرامة للأولياء والمعوقة للمريدين، والتمكن لأهل الخصوص.

وقال أبو على الروذياري: كما فرض الله تعالى على الأنبياء إظهار المعجزات فرض على الأولياء كتمان الكرامات لئلا يفتتر به الخلق.

وقيل: عقوبة الأنبياء حبس الوحي والمعجزات، وعقوبة الأولياء إظهار الكرامات وعقوبة المريدين التقصير في الطاعات.

ويكون ظهور الكرامات تارة بقصد الولي ، وتارة بغير قصد. وإعلم أن نهايات مقامات الأولياء منقطعة عن مبادي مقامات

الأنبياء. فالولي وإن جلّ محاله ومرتبته لا يصل إلى شيء من مقامات النبوة لأن الولي مُتّبع والنبي مُتّبَع. ومتى يقاوم الفرع الأصل ويدانيه وبه قوامه وإليه مرجعه.

ومن ظن خلاف ذلك فقد ظن خلاف الحق [وكرامة الأولياء معجزة لنبيها لأنهم تبع له وصدق التابع يدل على صدق المدلول المتبوع، ورتبة الولي من رتبة النبوة.

قال أبو يزيد: مثال ما حصل للنبي (عم) كزق فيه عسل رشحت منه قطرة، فتلك القطرة تعادل كل شيء حصل لجميع الأولياء، والذي في الزق مثال ما حصل لنبينا (عم).

الفصل الخامس والخمسون:

حقيقة الولاية وأوصاف الولي والتقوى

وأما حقيقة الولاية: فالولي في اللغة ضد العدو وفي اصطلاح أهل الحقيقة له معنيان [الأول: فعيل بمعنى مفعول كقتيل وجريح، وهو من يتولى الله تعالى رعايته وحفظه فلا يكلله إلى نفسه لحظة وهو يتولى الصالحين.

الثاني: فعيل مبالغة فاعل كريم وعليم. وهو الذي يتولى عبادة الله تعالى وطاعته فيأتي بها على التوالي من غير أن يتخللها عصيان أو فتور وكلا المعنيين شرط في الولاية، فمن شرط الولاية والولي أن يكون محفوظاً، كماأن من شرط النبي أن يكون معصوماً، وكل من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخادع، هكذا ذكره الإمام القشيري وغيره من أئمة الطريق. قال: وسمعت الأستاذ أبو علي رضي الله عنه يقول: قصد أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه بعض من وثق بالولاية، فلما وافى مسجده رآه قد تنخم في المسجد فرجع ولم يسلم عليه.

وقال: من لا يؤمن على أدب من أدب الشرع كيف يؤمن على أسرار الحق واختلف أهل الحقيقة. هل يجوز أن يعلم الولي أنه الولي أم لا. قال بعضهم: لا، ولو ظهر له من الكرامات ما ظهر لجاز أن

يكون ذلك مكراً من الله تعالى، لأن العاقبة هي الأصل وهي مجهولة. فكم رجل انعكس عليه حاله وخالف مبدأه مآله، وإلى هذا ذهب جماعة من شيوخ هذه الطائفة.

وقال بعضهم: يجوز أن يعلم أنه ولي باطلاع الله تعالى على عاقبة أمره ودوام حاله بطريق الكرامة والدليل العشرة المبشرة بالجنة.

وإلى هذا ذهب الأستاذ أبو علي الدقاق. وقال أبو يزيد البسطامي: أولياء الله عرايسه ولا يرى العرايس إلاّ المحارم. فهم مخدرون عنده في جاب الأنس لا يراهم أحد في الدنيا ولا في الآخرة.

قال النبي (عم): إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء. قيل: من هم يا رسول الله لعلّنا نحبهم. قال: هم قوم تحابّوا بروح على غير الأموال والأنساب. وجوههم نور وهم على منابر من نور، ولا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس. ثم تلا قوله تعالى:

﴿ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

قال أهل الحقيقة: سبب انتفاء الخوف والحزن عنهم أن الخوف متعلق بالمستقبل من توقع حصول مكروه أو فوات محبوب. والحزن متعلق بالماضي والولي ابن وقته فلا ماضي له ولا مستقبل. فلذلك قال لا حزن له ولا رجاء.

وقيل: علامة الولي ثلاثة أشياء: أن يكون هو لله، وأن يكون فراره إلى الله، وأن يكون شغله بالله.

وقيل: علامة الولي أن يكون أبداً ناظراً إلى نفسه بعين الصغر، وهو أن يكون خائفاً من سقوطه عن المرتبة التي هو فيها، وأن لا يثق بكرامة تظهر له وأن لا يغترّ بها.

وقيل: نهايات الأولياء بدايات الأنبياء.

وقال أبو يزيد: خطوط الأولياء مع تباينها في أربعة: أسماء الأول والآخر الظاهر والباطن، فمن فني عنها بعد ملابستها فهو الكامل التام، ومن كان حظه من إسمه الظاهر لاحظ عجائب قدرته، ومن كان حظه من إسمه الباطن لاحظ ما جرى في السرائر من أنواره، ومن كان حظه من إسمه الأول كان شغله بما سبق، ومن كان حظه من إسمه الآخر كان مرتبطاً بما يستقبل.

وقال الشيخ العارف أبو يزيد: وكل يكاشف على قدر طاعته إلاّ من تولاه الله تعالى ببرّه وقام عنه بنفسه.

قال القشيري: وكلام أبو يزيد يشير إلى أن الخواص ارتقوا من هذه الأقسام كلها، فلا العواقب في فكرهم، ولا السوابق في ذكرهم، ولا الطوارق في أسراهم. فأصحاب الحقائق محو عن نعوت الخلائق.

وقال الجزار: إذا أراد الله أن يولي عبداً فتح عليه باب ذكره، فإن استلذ الذكر فتح عليه باب القرب ثم رفعه إلى مجالس الأنس، ثم أجلسه عل كرسي التوحيد ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار الفردانية، وكشف له ستور الجلال والعظمة، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقي بلا هوى وصار فانياً، فوقع في حفظ الله ورأى من دعاوى نفسه فصار وليّاً.

والخوف لايسقط عن الولي بل يغلب عليه فإن زال عن بعض الأولياء فنادراً، لكن الهيبة لا تفارقه.

ويجوز أن يكون الوليّ ولياً ثم تبطل ولايته. وقيل لا يجوز. الولي فعيل بمعنى فاعل وهو توالت طاعته من دون أن يتخللها عصيان كما قال السيد أو بمعنى مفعول وهو من يتوالى عليه إحسان الله تعالى وافضاله.

والولاية من الولي وهو القرب. فهي قرابة حكمية حاصلة من العتق أو من الموالاة. وتفسير تقوى هي في أن تعزم في جانب الخير أن تفعله وفي جانب الشر أن لا تفعله، ثم تقتضي في نفسك في وقت ثان بتقوى متجدد أن تفعل كما عزمت وأن تترك كما عزمت، ثم يعترضك. في الأحوال الظاهرة والباطنة أحوال كالعز والذل والغنى والفقر، والصحة والمرض والبؤس والنعمة وغير ذلك، وفي الباطن كالقبض والبسط والخوف والرجاء وغير ذلك ومنه أيضاً الكبر والتواضع وخوف الفقر والأمن وسائر الأضداد فتعطي التقوى حقها في الأحوال وفي الأوصاف، بالتحويل من بلد إلى بلد ومن موضع إلى موضع. وغير ذلك وانظر قوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾.

فأنقذ بالفهم، وانزل كل تقوى منزلها ترى العجائب والأسرار، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ومن يزهد في الدنيا يحبه الله، ومن أحبه الله كفاه الله، وكلاّه الله وجعله في حرزه وفي مأمنه وفي معاقله، ومن يغش عن ذكر الرحمان نفساً واحداً أو نفسين أو زماناً أو زمانين أو ساعة أو ساعتين نقيّض له شيطاناً فهو له قرين. ﴿وأنهم ليصدونه عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾[1].

المحبة ميل القلب إلى المحبوب، والعشق غلبته، والعشق عند المتكلمين جوهر رباني يزيد بالسماع والرؤيا وينقص بالجماع، وعند الحكماء مرض شهواني يزيد بالسماع والرؤيا وينقص بالجماع.

(١) سورة الزخرف الآية ٢٧ ـ ٢٧/٤٣

الفصل السادس والخمسون:

السكر والصحو والمحو والذوق والشرب

وأما الذوق والشرب فهما قبل الصحو والسكر، والذوق أول مقامات العارف وهو وجدان لا الذات الحقيقة.

والشرب هو السكر المحض بعد الكرع في كأس المشاهدة والرؤى، دوام المواصلة بعد صفاء المعاملة، فصاحب الذوق متساكر، وصاحب الشرب سكران، وصاحب الرؤى صاح. وقال القشيري: مرادهم بالذوق والشرب ما يجدون من ثمرات التجلي ونتيجة الكشوفات والواردات. ومن قوي حبه دام سكره، ولا يؤخر فيه الشرب.

وسكر القوة حالة يكون فيها صاحياً بالحق فانياً عن كل خط، لا يتأثر بما يرد عليه من الواردات ولا يتغير، ومن صفات الشدة لم يتكدر أن لا يتكدر عليه الشرب، ومن صار له الشراب غذاء لا يصبر عنه ولا يبقى عند فقده.

واعلم أن الشرب والذوق والرؤى وكل ذلك من نتائج التجلي، فالخواص لهم دوام التجلي، فهم في كمال الرؤى، ومن دونهم في

رتبة التجلي لهم كمال الشرب، ومن دونهم لهم كمال الذوق.

وأنشدوا في الشرب:

إنما الكأس رضاع بيننا ... فإذا لم تذقها لم تعش

وقال الآخر:

شرب الحب كأساً بعد كأس ... فما نفذ الشراب ولا رويت

وقيل: كتب يحيى بن معاذ الرازي إلى أبي يزيد البسطامي:

شربت كأساً فلم أظمأ بعدها، فكتب إليه أبو يزيد، عجبت من هذه الحال واعلم أن كؤوس رحيق المشاهدة تبدو من الغيب ولا تدار إلاّ على النفوس المجرّدة وأسرار وأرواح محررة عن رقّ الموجودات.

وأما السكر والصحو والمحو.

فالصحو رجوع العارف إلى الإحساس، بعد غيبته وزوال إحساسه.

السكر غيبته بوارد قوي فهو أقوى من الغيبة وأتم منها أيضاً، لأن الغيبة قد يكون سببها الرغبة أو الرهبة أو الخوف والرجاء.

والسكر لا يكون سببه إلا المكاشفة بنعت الجمال، لأنه طرب الروح وهيام القلب ولا يكون ذلك إلا لأصحاب الوجد والمشاهدة والوجود، لا لأهل الرغبة والرهبة والخوف والرجاء.

ومنهم من قال: إن من السكر ما هو أضعف من الغيبة وليس بسديد لأن ذلك لا يسمى سكراً، فالحاصل أن السكر هو الغيبة العظيمة. أما الغيبة الضعيفة فهي ليست بسكر بل هو انتشاء وتساكر. وأنشدوا في معنى السكر:

فاسكر القوم دون كأس   وكان سكري من المدبر

فقال الآخر:

سكران سكر هوى وسكر مدامة   فمتى يفيق فتى به سكران

الفصل السابع والخمسون:

حقيقة المحبة وملامسة حب الله وأنواعه

وأما حقيقة المحبة فهي في اللغة المودة.

وفي اصطلاح أهل العلم هي الإرادة.

وفي اصطلاح الحقيقة محبة الله للعبد. وإرادته كثرة الأنعام عليه، والإحسان إليه بتقريبه وإعطائه الأحوال السنية، والمقامات العلية، وإرادته عز وجل صفة واحدة لكنها تختلف باختلاف متعلقاتها، وإذا تعلقت بعموم النعمة سميت الرحمة.

وإذا تعلقت بخصوص النعمة سميت محبة، وأما ما هو المفهوم من صفات محبة الخلق إلى المحبوب والإستئناس به ونحو ذلك، فالله تعالى منزه عنه وعلامة حب الله تعالى للعبد حب العبد له.

ومحبة العبد لله تعالى هي حالة يجدها في قلبه تلطف عن العبارة وما خفي منها والمحبة لا توصف بوصف ولا تحدّ بحد. وقد تكلم الناس في اشتقاقها لغة فقيل إنها من الحبب وهو ضاء بياض الإنسان ونضارته. فيكون على هذا إسم لصفاء المودة. [وقيل من الحباب وهو ما يعلو الماء من النفحات مثل القوارير عند صب سائل عليها فتكون على هذا إسماً لغليان القلب وفورانه عند العطش.

وقيل إن أصلها من اللزوم والثبات من قولهم: أحب البعير إذا برك فلم يقم. فكذا المحب ملازم ثابت لا يبرح بقلبه من ذكر محبوبه.

وأما أقوال المشايخ فيه فقال بعضهم محبة العبد لله تعالى هي التعظيم وإيثار الرضى وقلة الصبر وكثرة الإستئناس بنكره دائماً: وقيل هي المبادرة إلى أداء الطاعات فرضاً ونقلاً وشدة اجتناب المعاصي ويؤيد ذلك قوله (عم) حكاية عن الله تعالى: ما تقرب إليّ المتقربون بأفضل من إداء ما افترضت عليهم، ولا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً.

وقال بعضهم: حقيقتها الميل الدائم بالقلب الهائم. وقيل هي إيثار المحبوب على جميع المصحوب وقيل: موافقة الحبيب في المشهد والمغيب، وقيل: موافقة القلب لمراد الرب.

وقال الشبلي: المحبة أن تغار على المحبوب، وقيل: المحبة هي الخروج عن البدن والروح لأن الحب مزكى عن حرفين الحاء والباء: فالباء فيها إشارة إلى الخروج عن الروح، فما لم يتحقق الخروج عنهالا تحقق المحبة وأما الخلة فهي مشتقة من تخلّل الشيء من الشيء، وسمي الخليل لتخلل خليله في قلبه، فوجوده مستهلك في وجوده، فإذا تكلم فيه وإذا سكت فهو نصب عينيه في كل حال، وأنشدوا في ذلك:

قد تخللت مسلك الروح مني ولذا سمي الخليل خليلا

أنت همي وهمتي وحديثي ورقادي إذا أردت مقيلا

ولا يوصف العبد بالعشق لله تعالى لأن العشق مجاوزة الحد في المحبة، ولايجاوز أحد في محبة الله تعالى قدر استحقاقه، بل لا يبلغ إلى ذلك القدر لو اجتمعت محبة الخلق كلهم. [واعلم أن المحبة

حالة شريفة وهي مطلوبة شرعاً. قال الله تعالى:

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾

وقال النبي (عم): أحبوا الله لما أسدى إليكم من نعمه أي لما أنعم. وقال (عم): من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه. وقال: إذا أحب الله عبداً قال لجبريل نادي: إن الله أحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض. وقال الفضيل بن عياض: يقول الله تعالى: كذب من ادعى محبتي ونام عني، أليس كل محب يحب الخلوة بحبيبه.

وقال (عم): علامة حب الله حب ذكره.

وقال ابراهيم بن مقاتل: رأيت سمنونا يتكلم في المحبة فجاء طير صغير فقرب منه حتى جلس على يده ثم نزل وضرب منقاره على الأرض حتى سال منه الدم ومات.

وقيل إن شاب أشرف على الناس من موضع عال يوم عيد وقال يا قوم من مات عشقاً فليمت هكذا فلا خير في عشق بلا موت ثم ألقى بنفسه من ذلك المكان فسقط ميتاً.

وقيل: أوله خل وآخره قتل، ويؤيد هذا ما سبق في المحبة وهو: الخروج عن البدن والروح جميعاً. وقيل كتب يحي بن معاذ إلى أبو يزيد: وغيرك يشرب بحور السموات والأرض ومالرتوى وظل لسانه يقول هل من مزيد.

وقيل إن المحبة مقدمة على المعرفة وقيل العكس.

الفصل الثامن والخمسون:

حقيقة الحجاب والظهور وحقيقة الفتوة والمروة

الحجاب:

واعلم أن حقيقة الحجاب والظهور في إدراك السالك وفي العناية الأزلية.

قال الحكم: الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار، ومما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه، فكيف يتصور أن يحجبه وهو الذي أظهر كل شيء. وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء وقبل كل شيء. وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء. ثم إنه لولاه لما كان وجود شيء.

فيا عجباً كيف يظهر الوجود في العدم وكيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم. ومن أراد أن يحدث شيء في الوقت غير ما أظهره الله تعالى فيه. فالحق ليس بمحجوب وإنما المحجوب عن النظر إليه فهو أنت، إذ لو حجبه شيء لستره ما أحجبه، ولو كان له

ساتر لكان لوجوده حاصر وكل حاصر فهو له قاهر، وهو القاهر فوق عباده.

فالحاصل هو الحجاب الذي ينشأ من عدم الإدراك.

والمعصية: هي أن الرضا عن النفس أصل كل معصية وغفلة وشهوة.

الطاعة: هو أن أصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها.

ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصاحب عالماً يرضى عن نفسه أو طالع حسّن نفسه. أعوذ بالله.

الفتوة

وأما الفتوة ففي اللغة السخاء والكرم.

وفي اصطلاح أهل الحقيقة هي إيثار الخلق بنفسك بعد أن تؤثرهم في الدنيا والآخرة، وذلك بأن تبدل نفسك لكل نفيس وخسيس فيما يريد وتمكنهما من التصرف فيك.

وقيل: هي الصفاء والسخاء والوفاء.

وقيل: هي أن لا ترى لشيء خطراً ولا قدراً وقيل: هي أن تصنع المعروف مع أهله مع غير أهله فإن لم تكن أهله فكن أنت أهله.

وقيل: أن يكون العبد أبداً في أمر غيره، وإلى ذلك أشار النبي (عم) بقوله: لا يزال الله تعالى على حاجة العبد ما دام في حاجة أخيه.

وقيل: أن لا ترى لنفسك فضلاً على غيرك.

وقال الجنيد: هي كف الأذى وبذل الندى

وقيل: هي اتباع السنّة وقيل إظهار النعمة وكتمان المحبة

وقال أحمد بن حنبل: هي ترك ما تهوى لما تخشى

وقال أبو علي الدقاق: كمال الفتوة والإيثار لم يكن لأحد من البشر إلاّ لمحمد (صلعم).

فإن كل نبي يقول يوم القيامة نفسي نفسي إلاّ محمد يقول: أمتي أمتي.

ثم إعلم أن الحرية أشرف من الصدق والفتوة، والمروة شعبة من الفتوة، والفرق بين الزاهد والفتى أن الزاهد من آثر عند الغنى والفتى من آثر عند الحاجة كما قال الله تعالى: ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

وسأل شقيق البلخي جعفر بن محمد عن الفتوة فقال له: وقل أنت. فقال له شقيق. إن أُعطينا شكرنا وإن مُنعنا صبرنا. فقال جعفر رضى الله عنه: الكلاب عندنا تفعل هكذا فقال له شقيق: فقل أنت يا ابن رسول الله. فقال: إن أعطينا آثرنا وإن منعنا شكرنا.

الفصل التاسع والخمسون:

المراقبة والتوجه وأنواعهما والآنيّة

واعلم أن المراقبة هي أقرب إلى الله تعالى من حيث التقرب إليه، كما قيل: القصد إليه تعالى بالقلوب أبلغ من حركات الأعضاء في الأعمال بالصلاة والصيام والإذكار والأوراد ونحوها، لأن صاحب الهمة العالية لا يزال عاملاً بقلبه وتساعده على الأعمال جوارحه فهو يكون دائماً في الترقي والتقرب وأبداً في التجنب.

ثم إعلم أن قربية المراقبة من سائر الطرق ليست على إطلاقها بل بالنسبة إلى أهل الجذبة لأن المراقبة لا تصير أقرب الطرق إليه تعالى إلاّ بالنسبة إليه، وأما بالنسبة إلى غيره فليست المراقبة أقرب الطرق بل يكون بالنسبة إلى غير أهل الجذبة أبعد الطرق إليه تعالى لأن السلوك يحتاج إلى السلوك بالأسماء والمجاهدة.

ثم إعلم أن المراقبة هي بعينها معنى النفي والإثبات من غير ملاحظة حروف الكلمة الطيبة، لأن المراقبة هي إثبات وحدة الوجود الإلهية في الباطن. وهذا المعنى هو بعينه معنى إلاّ الله. لأن نتيجة ذكر النفي والإثبات هي المراقبة.

أما حقيقة النفي والإثبات بالقلب فهي أن يتلفظ الذاكر بلسان

القلب لا إله نافياً بها جميع تعلقات القلب. ثم يتلفظ أيضاً بلسان القلب إلاّ الله، مثبتاً بها وجود وحدانية الحق فيه. ولا حاجة في ذكر النفي والإثبات على هذه الكيفية إلى حبس النفس للحضور مع المذكور ولحصول الذهول لما سوى المذكور، فإذا حصل ذلك فلا حاجة إلى حبس النفس، وإنما الحاجة فيه إلى الحضور مع المذكور والذهول عما سواه.

فإذا ذكر الذاكر هذين الإسمين بهذه الكيفية تحصل له بذكرهما صفوة وذكاء النفس ويكون الذاكر بذكرهما عارفاً بالله تعالى وواصلاً إلى الله تعالى سبحانه وتعالى، فلا يحتاج ذلك لمعرفة الحق إلى طريق آخر. والطريق الآخر في ملاحظة الذكر عند كلمة التوحيد هذه هو أن يلاحظ وحدانيته عن قلبه بكلمة النفي، وأن يلاحظ إثبات وجود الله فيه بدلاً منه بكلمة الإثبات ونفي وجود الاّه.

وإثبات وجود الله أصل جميع معاني الاّ الله. فمن يلاحظ هذين المعنيين في كلمة التوحيد فكأنما يلاحظ جميع معانيها. وبهذه الملاحظة يكشف الذاكر وحدة وجود الله ويصل إليه تعالى.

ثم إعلم أن الآنيّة هي أن يكون القلب محجوباً بالوجود الإمكاني، وإثبات وجود الله فيه عبارة عن مشاهدة وجود الله تعالى فيه. فما دام القلب محجوباً بالوجود الإمكاني لا يشاهد وجود الله ولا يتجلى الله فيه أبداً ولا يعرف طريق توحيد الله. ولا يكون عارفاً بالله بحق المعرفة، فإن قلت كيف يكون أن يصير الوجود الإمكاني المجازي الظلي حجاباً مانعاً عن شهود الوجود الحقيقي الأصلي. قلت: إن الوجود الإمكاني إنما يصير حجاباً بالنسبة لأهل الحجاب المحجوبين بالوجود الإمكاني في القلب، لا

يشاهد نور وجوده تعالى، كما أن العين محجوبة بالعماء لا ترى نور الشمس موجودة في نفس الأمر ونورها ظاهر في العالم.

ثم إعلم أن الذاكر إذا بلغ مرتبة المراقبة فلا بد له أن يلاحظ هذا المعنى الذي هو إثبات وحدة الوجود الإلهية في الباطن والظاهر من غير تخصيص ملاحظة بحال دون تحال ووقت دون وقت ومكان دون مكان حتى تنتهي مراقبته إلى المشاهدة. فمن يداوم على المراقبة على هذه الكيفية يتحقق بدوام العبودية وبها تتبدل مراقبته إلى مشاهدة لأن نتيجة المراقبة مشاهدة من غير حجاب.

واعلم أن المراقبة هي رؤية جناب الحق تعالى بعين البصيرة على الدوام مع تعظيم مذهل، وجذب حامل، وسرور باعث وشوق حادث.

وقالوا: المراقبة مراعاة السر لاطلاع الحق في كل لحظة ولفظة على معنى قوله تعالى: أفمن هو قائم إلى آخره، والمعنى الثاني أدنى مرتبة المراقبة، وقد أشار (عم) إلى هاتين المرتبتين بقوله: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، فإن دوام السالك على المراقبة مع المجاهدة التامة يترقى عن مرتبة المراقبة إلى مرتبة المشاهدة لأن المجاهدة بذرة المشاهدة، فمن لم يزرع المجاهدة في أرض الإستعداد لا يحصل على المشاهدة في التجليات من أرض الإستعداد، بل إن المجاهدة إنما هي فلك[1] بحر المشاهدة، فمن يركب المجاهدة يسبح في بحر المشاهدة ويكتشف العبد أن أنوار وجود وحدة الذات الإلهية محيطة بجميع الأشياء.

وأما حقيقة المراقبة وهي في اللغة المرصدة، وهي قريبة من معنى

(١) **فلك**: مركب.

الحفظ والإنتظار وفي اصطلاح أهل الحقيقة المراقبة استدامة علم العبد باطلاع الرب سبحانه وتعالى عليه في جميع أحواله.

وقيل: هي مراعاة السر لملاحظة الحق مع كل خطرة

وقيل: هي تسليط هيبة حضور الحق ونظره على القلب وسائر الأعضاء في حركاتها وسكناتها.

قال الله تعالى: ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾

وقال (عم) لجبرائيل لما سأله عن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك فقوله فإن لم تكن تراه فإنه يراك إشارة إلى حال المراقبة.

إعلم أن المراقبة أصل كل خير وسعادة ونجاة ولايصل العبد إلى مقام المراقبة إلاّ بعد محاسبة نفسه على ما مضى، وإصلاح وقت الحاضر.

وقال بعضهم من راقب الله تعالى في خواطره عصمه الله تعالى في جوارحه، وقال ابن عطاء أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات.

وقال أبو عثمان: قال أبو حفص الحدادي، إذا جلست تعظ الناس فكن واعظ نفسك ولا يغرّنك إجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والّله يراقب باطنك.وقال بعض الحكماء لرجل: إستحي من الّله على قدر قربه منك وعلمه بك وخفّه[٢] على قدر قدرتك عليك، واستعد للدنيا بقدر إقامتك فيها واطع الله بقدر حاجتك إليه واشكره بقدر نعمه عليك.

وكتب بعض العلماء إلى صديق له: أما بعد فإني أوصيك

(٢) والأصح وخوفه.

بتقوى الله والعمل بما علمك الله ومراقبة اللّه حيث لا يراك أحد إلاّ هو والإستعداد لما لا بد منه، وليس لأحد فيه حيلة، ولا ينفع الندم عند نزوله. وقيل لحاتم الأصم: على ما بنيت أمرك فقال: على أربع خصال:

علمت أن لي رزقاً لا يأكله غيري فاطمأنت نفسي،

وعلمت أن لي عملاً لا يعمله غيري فشغلت نفسي به

وعلمت أن إجلالاً.....[٣] فأنا مبادره

وعلمت إن لي رباً ولي حقّه ولا يعبد لي ربّي غير ولا أغيب عنه فأنا أستحي منه.

وقالوا إن المراقبة والتوجّه وهي أن يلازم القلب معنى إسم الذات على مفهوم الإيمان على طريق الإستغراق والإستهلاك بحيث لا ينفك عنه في أيّ حال كان فإن إنتهى أمره إلى إنتفاء العلم مطلقاً حصل مبداىء الفناء والمراقبة من باب المفاعلة للطريق المستقبل الموصول. فينبغي للطالب أن يكون عالماً بإطلاع اللّه عليه. والمراقبة والتوجّه أعلا وأفضل من النفي والإثبات.

وأقرب إلى الجذبة وبمداولة المراقبة والتوجّه يترتّب مرتبةً الوزارة وتيسّر تصرّف الملك والملكوت والإشراف على الخواطر. ويمكن أن بنور الباطن ينوّر الهداية، ومن دوام المراقبة يحصل له دوام جمعيّة الخاطر ودوام قبول القلوب.

ويقال في إصطلاح الصوفيّة: له الجمع والقبول.

ونقل عن الجنيد قدّس سرّه: قال أستاذي في طريق المراقبة: كنت ذاهباً في الطريق فرأيت هرة جالسة تراقب إلى حجر فأرة،

---

(٣) غير واضح في الأصل.

وكانت مستغرقة إلى حجرها، لا تتحرك منها شعرة فحصلت لي الحيرة من توجهها ومراقبتها فنوديت في سري يادني الهمة لا تتخيّلني في مقصودك أقل من الفأرة، وأنت لا تكن في الطلب أقل من السنّور. فانتبهت فلزمت طريق المراقبة فحصل لي ما حصل، وفسّر عبد الله الأنصاري هذه الآية. واذكر ربك إذا نسيت أي إذا نسيت غيره، ثم نسيت ذكرك في ذكرك، ثم نسيت في ذكر الخلق إياك كل ذكر، فإذا نسي السالك نفسه وغيبته فهو فناء الفناء، وقيل الفاني لا يرى أوصاف البشرية.

وأما آداب زيارة الأنبياء عليهم السلام والأولياء، فليتوسل بروحانية مرشده الذي عمّه من خيره، ويتخذه شفيعاً إلى حضرة ذلك المزار في ابتداء سيره، ويلاحظه أمامه على طريقة الشافعين للقوم العاصين، ويستغفر كثيراً من جميع ذنوبه ومخالفة وعده بل من علمه وفضله وزهده، ويلاحظ نفسه مفلساً عن العمل الصالح ولا يتأذى بمشاق الطريق، بل يعدها فضلاً ونعمة من الله تعالى، فإن في ذلك إشارة إلى حصول المطلوب، ويخلص في حضرة القبر النيّة ويكون على الطهارة الظاهرية والباطنية، ويسلّم عليه من الذل والإنكسار عند القرب لرجائه، ويقول: السلام عليكم تحية مني إليكم، ويقرأ في كل باب الفاتحة والإخلاص ثلاثاً ويقول: أتوسل بكم إلى رب البرية بتسهيل أموري في الدنيا والآخرة، والأحسن أن لا يقصد بتلك الزيارة إلاّ مرضاة الذات القدسية، لا غرضاً من الأغراض الدنية.

ثم إذا وقع بصره على مرقد حضرة القبر يقرأ الفاتحة في كل خطوة مرة إلى سبع خطوات، ويربط قلبه بقلب حضرة القبر على الوقوف القلبي للإستفاضة من باطنه سواء كان من الأحياء أو من

الأموات، ثم يقف متوجهاً إلى ضريح المزار قريباً من رجليه، مستدبراً للقبلة، ملاحظاً مرشده الشفيع له بحضرة المزار، ومتوسلاً بذلك الشفيع إليه، يسلم ويقرأ الفاتحة والإخلاص قائماً كأنه حيّ وهو واقف بين يديه، فلو جلس وقرأ عشراً من القرآن فهو أفضل.

ثم يستفيض من قلبه جاعلاً قلبه ملاصقاً بقلب المزار، ولا يسهو عن الوقوف القلبي بغاية التضرع والإنكسار، ولا يتغافل ويحسن الظن به إن كانت له حاجة، فإنها تقضي بواسطته بإذن ربه.

قال الله تعالى: ﴿أنا عند ظن عبدي بي﴾(٤)

ومدة تلك الإستفاضة بإقامته وعلى قدر ذوقه وجمعيته وآدابه، ثم يدعو له وللمؤمنين والمؤمنات بقوله: اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، ويخصص نفسه ومرشده بالدعوات الصالحات، ويتوسل بالمزار إلى رابطته، الداعي له إلى الله برشده لنيله من خيره ورفده، ويتحقق بإجابة دعواته، فإنه لا يدعو داع بمباح إلاّ وصاحب المرقد يؤمن على دعائه فيستجيب الله له بفضله وعناياته.

وعند الذهاب وانتصبت قدماه يسلم كالأول ويقرأ الفاتحة والإخلاص أو مع عشر من القرآن، ويتوسل به في أموره الدنيوية والآخروية إلى ربه، ويفعل ذلك في كل باب من أبوابه، ويخرج على قفاه. فإذا فعل ذلك حصل مطلوبه وانتصر وانقطع عنه كل شر وضرر.

---

(٤) الآية الكريمة أتت في النص كجملة توضيحية واعتراضية بعدها يُتابع النص والمعنى بعد كلمة ربه.

الفصل الستون:

حقيقة التذكية والمعرفة والرياضة

إعلم أن طرق التذكية والتصفية كثيرة لا تحصى. وقد قيل أن الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق. وأصول تلك الطرق التي لا تحصى منها: طريق الذكر ثم طريق المراقبة ثم طريق الوقوف القلبي ثم سائر العبادات البدنية من الصلاة والصيام والحج والجهاد، ثم المالية من الخيرات والحسنات. ثم الرياضات الحكيمة من تجريد النفس عن الشواغل الدنيوية والعلائق البدنية وتقليل الأكل والنوم، والعزلة عن الخلق، وغير ذلك من الأمور الرياضية.

ثم إعلم أن الرياضات لا تفيد ولا يتقرب العبد بها إلى الله ما لم تكن موافقة للشريعة، ومتابعة السنّة، كما قال الشيخ جنيد قدس سره: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلاّ من اقتفى أثر رسول الله (صلعم). ولا بد لمن أراد التقرب إلى الله تعالى بالرياضات الحكيمة أن يقتدى الشريعة الغراء ويتبع السنّة الحسنى حتى ينتج رياضات التقرب إليه تعالى والمعرفة لله.

ثم إعلم أن تصفية القلب بطريق الذكر لقوله (عم): إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد. وجلاءها يتم بذكر الله تعالى، ولقوله

تعالى: ألاّ بذكر الله تطمئن القلوب. ثم أن الذاكر إما بالقلب أو باللسان، فذكر اللسان لتحصيل ذكر القلب، وذكر القلب لتحصيل المراقبة، فذكر القلب يتفكر اللفظ مع ملاحظة معناه، كما قيل الفكر ذكر القلب، والعشق ذكر الروح، والمعرفة ذكر السر.

وأما حقيقة المعرفة ففي اللغة بمعنى العلم وفي اصطلاح أهل الحقيقة هي العلم بأسماء الله تعالى وصفاته مع الصدق لله تعالى في معاملاته وجميع أحواله ودوام مناجاته في السر والرجوع إليه في كل شيء، والتطهر من الأخلاق والأوصاف الردية، وبالجملة فمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه. [وقيل: المعرفة معرفتان، معرفة حق ومعرفة حقيقة:

فمعرفة الحق: معرفة وحدانية الله تعالى بما أبرز للخلق من أسمائه وصفاته.

ومعرفة الحقيقة: لا سبيل إليها لامتناع الإحاطة فيه علماً لقوله تعالى: ولا يحيطون بشيء من علمه.

واعلم أن الكمّل من أهل الحقيقة لم يتكلموا في المعرفة بأكثر من الاعتراف بالعجز عنها، فأما من دونهم فقد تكلم فيها ولهذا قال بعضهم: الحق لا يعرفه سواه ويؤيد قول أبي بكر الصديق:

الحمد لله الذي لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلاّ بالعجز عن معرفته.

وقال أبو حفص الحدادي: منذ عرفت الله تعالى ما دخل قلبي حق ولا باطل، قال القشيري: معناه أن المعرفة توجب غيبة العبد لاستيلاء ذكر الحق عليه، فلا يشاهده غيره، ولا يرجع يكفره إلى سواه، فكيف يدخل المعنى قلب من لا قلب له.

وقال غيره: معناه أنه لاستيلاء ذكر الحق على قلبه واستغراقه به واستهلاكه فيه فلا يجد غيره طريقاً إليه، حقاً كان أم باطلاً وبما يشير إلى كلام أبي حفص قول أبي يزيد للناس: حال ولا حال للعارف لأنه مُحيت رسومه وغيبت آثاره.

وقوله أيضاً حين سئل عن المعرفة: «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها» (الآية)

وإذا نزلت المعرفة بالقلب خربت أوطان البشرية.

وقول الواسطي أيضاً: لا تصح المعرفة للعبد افتقاراً إلى الله تعالى واستغابة لأنهما أمارات بقاء العبد.

وقيل غاية المعرفة شيئان: الدهشة والحيرة.

وقال ذو النون: أعرف الناس بالله أشدهم فيه تحيراً

وقيل: من كان أعرف كان بالله أخوف.

وقيل: تخرج العارف من الدنيا ولم يقضِ وطره من شيئين: بكاؤه على نفسه وثناؤه على ربه وإلى ذلك أشار النبي (عم) بقوله: لا أحصي ثناء عليك

وقال: العارف طيّار والزاهد سيّار.

وقال الشبلي: أهل المعرفة هم وحش الله تعالى في أرضه لا يستأنسون أحداً.

وقيل: العارف من تضاء له أنوار العلم فيبصر بها عجائب الغيب.

وقيل: ليس بعارف من وصف المعرفة عند أبناء الآخرة فكيف من وصفها عند أبناء الدنيا.

وقال النبي (عم): دعامة الدين المعرفة بالله واليقين والعقل

القامع. قيل: وما العقل القامع. قال: الكف عن معاصي الله والحرص على طاعته.

وقال ذو النون: ركضت أرواح الأشياء إلى روضة الوصال.

واعلم أن المعرفة أشرف من الفقر والمحبة والتوحيد لأنها الإستهلاك في الله بفنائه عن نفسه وعن كل الكون وعن الله وعن الإحسان بالفناء بخلاف الفقر فإن ظاهره يشعر بافتقاره إلى شيء. ففي الفقير ظمأ إلى المشاهدة والعارف ريّان منها حيران مندهش في مقامها، والمحب له إحساس أيضاً يتلذذه، لأن المحبة استهلاك في لذة المشاهدة.

قال الشاذلي: كنت في مغارة فقلت: إلهي متى أكون لك عبداً شاكراً، فسمعت النداء من جوف المغارة، إذا لم تر في الوجود منعماً عليك غيري فأنت إذاً شاكراً. فقلت: النبي والعالم والملك أكبر من نعمة. فقال لي: النبي والعالم نعمة من الله عليك فهو بلّغك عن الله الشرائع.

وقال الشاذلي: أوصاني ربي أن: أحذر قلبك أن يأمن من الله في كل شيء. وحدّد بصر الإيمان تجد الله في كل شيء وعند كل شيء وفوق كل شيء وتحت كل شيء، وقريباً من كل شيء ومحيطاً بكل شيء، فالقرب هو وصفه، والإحاطة هي نعته وهو عال عن الطرفية والحدود وعن الأماكن والجهات وعن الصحبة والقرب بالمسافات، فالله كان ولا شيء معه وهو الآن على ما هو عليه كان.

وقال: أوصاني حبيبي لا تنتقل إلاّ حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس إلاّ حيث تأمن من معصيته، ولا تصاحب إلاّ من تستعين به

على طاعة الله ولا تصطف لنفسك إلاّ من تزداد به يقيناً بالله ولو قليلاً.

وقال حاكياً عن أستاذه: الله الله والناس الناس نزّه لسانك عن ذكرهم وقلبك عن التماثيل من قلبهم وعليك بحفظ الجوارح وأداء الفرائض، ولا تذكر إلاّ بواجب، حق الله عليك وقل اللهم إرحمني من ذكرهم ومن العوارض، ونجني من شرّهم، وأغنني بخيرك عن خيرهم، وتولّني بالخصوصية من بينهم إنك على كل شيء قدير.

[وقال أوصاني أستاذي فقال لي: إهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرّهم فإن شرّهم يصيبك في بدنك وخيرهم يصيبك في قلبك.

وقال: لعدوّ ترجع به إلى مولاك، خير لك من حبيبك يشغلك عن مولاك.

وقال: اجتمعت برجل في سياحتي فأوصاني. فقال لي: ليس شيء في الأقوال أعون على حمل الأثقال من: لا حول ولا قوة إلاّ بالله، وليس شيء في الأفعال أعون من الفرار إلى الله والإعتصام بالله، ففروا إلى الله واعتصموا بالله ومن يعتصم بالله فقد اهتدى إلى الصراط المستقيم.

ثم قال: بسم الله فررت إلى الله واعتصمت بالله ولا حول ولا قوة إلا بالله، ومن يغفر الذنوب «إلاّ الله». بسم الله: قول باللسان وصدور عن القلب. «ففروا إلى الله»: وصف بالروح والسر، ومن يعتصم بالله: وصف العقل والنفس. ولا حول ولا قوة إلاّ بالله: وصف للملك والأمر.

ومن يغفر الذنوب إلاّ الله. أعوذ بك من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين.

ثم يقول: الشيطان هذا علم الله فيك وبالله آمنت وعليه توكلت وأعوذ بالله منك.

ولولا أمرني ربي ما استفدت منك، ومن أنت حتى أعتصم بالله منك.

وقال: استوصيت أستاذي فقلت أوصني. فقال: لا تهتم الله في شيء، وعليك بحسن الظن به في كل شيء، ولا تؤثر نفسك على الله في شيء.

وقال: الزم باباً واحداً تفتح لك الأبواب واخضع لسيد واحد تخضع لك الرقاب.

وقال: يوصي بعض أصحابه في سفرهم فقال: أرجعوا إلى الله أن يمدكم في سفركم بالتيسير في أرزاقكم وبالصحة في أبدانكم وبالعز بين أمثالكم، وبالمغفرة لذنوبكم وتنزلون على أربعة أشياء: القبول من الخلق والرضا عن الحق، والفناء عن الكثرة، والهناء مع القلة، فلا ترغبون فيما لكم فتعاقبوا بالطلب لغيركم، وهذه أوفى عقوبة الراغبين وأعظمها الحجاب عن رب العالمين. وعليكم بأربعة:

الألفة وحسن الصحبة، والقيام بالفرضية والتوكل على الله في كل حركة والرباط: الرباط ثم الرباط على ثلاثة أشياء: لا تهتم[1] الله في شيء، وعليك بحسن الظن به في كل شيء، ولا تؤثر نفسك على الله في كل شيء.

وتفسير الإيثار: إذا اعترضك حقوق ربك وحظوظ نفسك فلا تؤثرن الحظوظ على الحقوق ففي الإيثار للحقوق محبة الله، وإذا اعترضك مندوب ومكروه، فلا تؤثر المكروه على المندوب.

(١) هكذا في الأصل.

الفصل الواحد والستون:

حقيقة الحقائق وحقيقة الفراسة والأصول

واعلم أن حقيقة الحقائق هي المرتبة الأحدية الجامعة بجميع الحقائق، ويسمى حضرة الجمع، وحضرة الوجود.

وحقائق الأسماء هي تعيينات الذات ونسبها لأنها صفات يتميز بها الإنسان بعضها عن بعض. والحقيقة المحمدية هي الذات مع التعيّن الأول وهو الإسم الأعظم، وأما الأعيان الثابتة فهي: حقائق الممكنات في علم الله تعالى، وهي صور حقائق الأسماء الإلهية في الحضرة العلمية لا تأخير لها إلاّ بالذات لا بالزمان، فالحضرة أزلية وأبدية.

وأما حقيقة الفراسة ففي اللغة التثبت والنظر، وفي اصطلاح أهل الحقيقة هي مكاشفات اليقين ومعاينة القلب.

وقيل: هي مطالعة الغيوب بنور اطلاع الله تعالى على القلب، وإلى ذلك أشار النبي (عم): المؤمن ينظر بنور الله، وفي رواية: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى.

وقيل: هي سواطع أنوار تلمع في القلوب.

وقيل: تمكين معرفة تحمل السرائر في الغيوب.

والفراسة على حسب قوة الإيمان فمن كان إيمانه قوي كان أحدّ فراسة

[وقيل: إن الفراسة تولدت من قوله تعالى ونفخت فيه من وحي روحي فمن كان حظه من ذلك النور أتم كانت فراسته أحدّ وأصدق.

وقيل في قوله تعالى: فمن كان ميتاً فأحييناه، (أي ميت الذهن فأحياه الله بنور الفراسة) وجعلنا له نوراً يمشي به (أي نور التجلي والمشاهدة كمن مثله في الظلمات (أي كمن هو غافل بين أهل الغفلة).

وقال (عم): إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسّم.

وقال الكرماني: من غض بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمّر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السنّة، وعوّد نفسه بأكمل الحلال، لم يخطىء فراسته.

وقيل: كان الشافعي رحمه الله، ومحمد بن حسن رضى الله عنهما جالسين في الحرم فدخل رجل. فقال محمد انفرس إنه نجّار. وقال الشافعي: تفرّس إنه حدّاد. فسألاه. فقال: قبل هذا كنت حداداً والآن أنا نجار.

وقال أحمد بن عاصم: جالس الصوفية بالصدق فإنهم جواسيس القلوب

وقال الزبيدي: كنت في مسجد بغداد مع الفقراء فلم يفتح علينا بشيء أياماً، فأتيت الخواص لأسأله شيئاً، فلما رآني قال لي: جئتني لأجلها. يعلمها الله أم لا. قلت: يعلمها. قال: فلا تبدها لمخلوق. فرجعت فلم أبدها. ولم يكن قليلاً إلاّ وقد فتح الله علينا بما فوق الكفاية.

وقال القشيري: كنت في ابتداء وصلي بالإستاذ أبي علي أعقد لي مسجد المطرز، فأستأذنته وقتاً في الخروج إلى نسأ فأذن لي. فخطر ببالي أن ليته ينوب عني في مجلس مدة غيبتي. فالتفت إلي وقال: أنوب عنك أيام غيبتك، فمشيت معه قليلاً، ثم خطر ببالي أنه عليه أن يشق عليه أن ينوب في الأسبوع مرتين فليته يقتصر على مرة واحدة، فالتفت إليّ وقال: إن لم أتمكن في الأسبوع أن أنوب يومين فإني سأنوب يوماً واحداً، فمشيت قليلاً فخطر ببالي شيء ثالث، فالتفت إليّ وصرّح به مفصلاً.

وروي عن أنس بن مالك قال: دخلت على عثمان رضي الله عنه، كنت رأيت امرأة في الطريق، فتأملت محاسنها. فقال عثمان رضي الله عنه، يدخل عليّ أحدكم وآثار الزنا ظاهرة في عينيه، فقلت له: أوحيّ بعد رسول الله (عم). فقال: لا ولكن تبصّر وبرهان وفراسة صادقة.

وقال أبو سعيد الخراز: دخلت المسجد فرأيت فقيراً يسأل فقلت في نفسي: مثل هذا يسأل فنظر إليّ وقال: واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه، فاستغفر الله في نفسي. فناداني وقال لي: وهو يقبل التوبة عن عباده.

وقال أبو موسى الدنبلي: سألت عبد الرحمن بن يحيى عن التوكل فقال: هو أن يكون لو أدخلت يدك في فم التنين إلى الرسغين لا تخاف مع الله غيره. فذهبت إلى أبي يزيد لأسأله عن التوكل فلما رآني قال لي قبل أن أسأله: لك في قول عبد الرحمن كفاية.

قال أبو موسى: وأقمت مرة عند أبي يزيد شهراً فكان لا يحضر إليّ شيء إلاّ حدثني عنه فلما أردت وداعه قلت: أفدني فائدة.

فقال لي: عليك بأكل الحلال.

وقال خير النساخ: كنت جالساً في بيتي فوقع لي أن الجنيد بالباب. فلم أخرج، فوقع لي ذلك ثانياً وثالثاً فخرجت بالباب فلقيته فقال لي: لِمَ لم تخرج مع الخاطر الأول.

قال محي الدين الأعرابي هذا البيت:

العبد حق والرب حق فليت شعري من المكلف
إن قلت عبداً فالعبد ميت أو قلت رب فما يُكلّف

وقوله إن العبد حق. أي أن وجوده متحقق في الشيئين. وذلك بعد العدم بوجوده سبحانه، المتصف بوصف القدم.

ودليله كون العبد حقاً قوله تعالى:

﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا﴾.

قوله والرحق، أي ثابت الوجود بلا سبق، فهو الله تعالى أصل جميع الكائنات وأصل أصول جميع الموجودات، وقد قسموا الأصول إلى الخمسة:

الأول: الأصل الذي صدرت عنه الأصول وهو الله تعالى.

الثاني: الأصل الذي إليه الأصول وهو محمد (صلعم).

الثالث: الأصل الذي أتى بالأصول وهو جبريل (عم).

الرابع: الأصل الذي تفرعت منه الأصول وهو القرآن الذي اشتمل على غاية المأمول.

الخامس: الأصل الذي ترجع إليه الأصول بلا أشكال وهو الله تعالى.

فإذا علمت هذا فاعلم أن الفرع يتبع الأصل الذي هو المقصود، لأن أهل الشهود لا ينظرون إلى التابع المحدود، فشهودهم دائماً

واجب الوجود، فلا يرون مع الحق شيئاً سواه. فإن جميع المخلوقات بالنسبة لشهودهم معدومات لا يرونها بل مشهوده أصولها. فالقسمة ثلاثية: خالق، وصفاته، ومخلوقات.

فالخالق هو المنزّه عن الماهية.

وصفاته هي الصفات القدمية الأزلية.

ومخلوقاته هم صفات صفاته الناشئة عن الصفات الذاتية.

فكل صفة تستدعي إيجاد شيء. فالخالق يستدعي إيجاد مخلوق، والرازق يستدعي إيجاد مرزوق وهكذا لأن صفة الأول (واحد) لا تتعطل، وظهر أن لا وجود لغير الحق إلاّ بالتبعية. فلولا إمداده للأشياء بالظهور فيها لاختفت وهلكت فهي هالكة بالنظر إلى ذاتها، وثابتة بالنظر إلى تجلي الذات عليها بصفاته.

الفصل الثاني والستون:

حقيقة التوكل والعوام وأقسام التوكل

التوكل هو الثقة بما عند الله واليأس عما في أيدي الناس

وقيل: هو أن يستوي عند الإنسان الإكثار والاقلال، وقيل هي إسقاط همّ الوقت الغائب، وقيل هو بقاء العبد مع الله بلا علاقة. وتفسير العلاقة ما ذكره يحيى بن معاذ في قوله: لبس الصوف حانوت[1]، والكلام في الزهد حرفة وصحبة القوافل تعرض، وهذه كلها علاقات.

وقيل: التوكل تمام اليقين بالله لأن اليقين بالله لا يتم إلاّ بحسن الظن به قضاؤه. فإتمام اليقين بالله سمي توكلاً.

وقيل: التوكل بداية وهي صفة المؤمنين والتسليم واسطة وهو صفة الأولياء.

والتفويض نهاية وهي صفة خواص الخواص.

وقد مدح الله تعالى التوكل وحث عليه فقال:

﴿ومن يتوكل على الّله فهو حسبه﴾

---

(١) هكذا في الأصل حانوت.

وقال: ﴿وعلى الله فتوكلوا﴾

وقال: ﴿وإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾

وقال (عم): التوكل نصف العبادة، والدعاء نصفها

وقال (عم): لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو نعاساً وتروح أبطاناً.

واعلم أن التوكل على قسمين:

توكل العوام وهو تفويض أمر الرزق إلى الله تعالى وترك التعلق بالأسباب ثقة بوعد الله اعتماداً على كرمه.

وتوكل الخواص وهو تفويض الأمر إلى الله في كل شيء حتى يبقى العبد تحت أحكام القضاء والقدر عديم الحركة والاختيار كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيفما شاء، وهو عديم الحركة باليدين وعديم الاختيار بالقلب.

فإن وقعت في قلبه الحركة كان متحركاً، وإن وقع في قلبه السكون كان ساكناً بالله. وإلى هذا أشار من قال: التوكل هو اضطراب بغير سكون وسكون بلا اضطراب.

قال أهل الحقيقة: المتوكل على التحقيق كان ابراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه. فإنه لما ألقي على النار في كفه المنجنيق لقيه جبريل في الهواء وهو نازل إلى النار فقال له يا خليل الله ألك حاجة فقال: أما إليك فلا، وكمال التوكل لا يظهر إلاّ عند نزول البلاء. فالخليل (عم) كالذهب الأبريزي عُرض على النار لارتفاع الشك فيه من قبل الشاكين فلم تؤثر فيه النار إلاّ إظهار كمال الجوهر فيه.

وقيل علامات التوكل لدى العوام ثلاثة: أن يسأل الفقير ولا يرد ولا يدّخر.

وعلامة توكل الخواص أن يكون الفقير ساكناً بحيث أنه لو أحاطت به السباع والأفاعي لا يتحرك لها قلبه.

واعلم أن محل التوكل القلب وحركة الظاهر لا تنفيه.

جاء رجل إلى النبي (عم) على ناقة فقال: أأدعها وأتوكل. فقال: لا أعقلها وتوكل.

وقيل: كان ابراهيم الخواص محققاً في التوكل مدققاً فيه وكان لا يفارقه إبرة ومقراص وركوة. فقيل له في ذلك. فقال: الله تعالى عليّ لا يتأدى إلا بذلك لأنه ليس لي إلاّ ثوب واحد خلق فربما إنفتق أو انخرق فظهرت العورة فمنعت جواز الصلاة.

[وقال الحسن أخو السنان: حججت أربع عشرة حجة حافياً متوكلاً، وكان يدخل في رجلي الشوك فلا أخرجه لئلا ينتقص توكلي.

وقيل: من ادعى التوكل ثم شبع فقد حمل زاداً.

وجاء جماعة من الشام إلى بشر الحافي، فطلبوا منه أن يحج معهم فقال لهم نعم ولكن بثلاثة شروط:

أن لا تحمل معنا شيئاً، ولا تسأل أحداً شيئاً، ولا تقبل عن أحد شيئاً. فقالوا: أما الأولى والثانية فتقدر وأما الثالثة فلا تقدر.

قال أبو حمزة الخرساني: حججت سنة فبينما أنا في الطريق وقعت في بئر، فطلبت مني نفسي أن استغيث فلم أفعل، فما تم هذا الخاطر حتى مرّ برأس البئر رجلان، فقال أحدهما للآخر تعالَ حتى نسد رأس هذه البئر لئلا يقع فيها أحد، فوافقه الآخر فهممت

أن أصيح، ثم قلت في نفسي من هو أقرب منهما ثم سكتّ حتى سدوا رأس البئر ومضوا فلما مضت ساعة سمعت حس شيء فتح رأس البئر ودلى رجله وقال لي بلسان حاله: تعلّق برجلي فتعلقت بها فأخرجني، فإذا سبع فتركني ومرّ، فسمعت هاتفاً يقول يا أبا حمزة كيف ترى نجيناك من الهلاك بالهلاك.

وقال أبو سعيد الخراز: دخلت البادية مرة بغير زاد فأصابتني فاقة فرأيت منزلاً من بعيد فسررت بالوصول ثم فكرت نفسي أنني سكنت إلى غير الله في توكلي فآليت أن أدخل المنزل إلاّ أن أحمل إليه من الضعف.

والحاصل أن التوكل من المقامات العالية الشريفة ولكنه عزيز الوجود جداً.

الفصل الثالث والستون:

حقيقة الرضاء والصدق والصديق والسماع

الرضاء

وأما الرضاء فهو سرور القلب بمر القضاء

وقيل: هو أن يتحقق العبد أن الله تعالى عدل في قضائه غير متهم في حكمه.

وقال أبو سليمان: الرضاء هو أن لا تسأل الله الجنة ولا تعوذ به من النار.

وقال الشبلي بين يدي الجنيد: لا حول ولا قوة إلاّ بالله. فقال له الجنيد: هذا ضيق الصدر، وضيق الصدر إنما يكون من عدم الرضاء بالقضاء.

وقيل: الراضي بالله هو الذي لا يتعرض على تقديره.

وقال القشيري: الواجب على العبد هو أن يرضى ببعض ما يقضى عليه به لا يكله. فإن القضاء بالمعاصي وأنواع المحن على المسلمين لا يجب[1] الرضاء، بل لا يجوز.

---

(١) الصحيح يوجب.

وقال بعضهم: علامة الرضاء: أن من كان مريضاً لا يتمنى الصحة، ومن كان فقيراً لا يتمنى الغنى.

وقيل لرابعة العدوية: متى يكون العبد راضياً فقالت: إذا سرّته المصيبة كما تسرّه النعمة.

وقال الله تعالى في وصف الذين آمنوا وعملوا الصالحات رضي الله تعالى عنهم ورضوا عنه.

وقال (عم): من رضي بالقليل من الرزق رضي الله عنه بالقليل من العمل.

وقال القشيري: رضى العبد عن الله رضي الله عن العبد لقوله تعالى: رضي الله عنهم ورضوا عنه.

واختلف العراقيون والخراسانيون في الرضاء: هل هو من الأحوال أو من المقامات.

فقال الخراسانيون: هو من المقامات وهو نهاية التوكل وهو مكسب كسائر المقامات.

وقال العراقيون: من الأحوال وهو ليس مكشباً بل هو كسائر الأحوال.

ودرجة التوفيق بين القولين أن أوله مقام فهو مكتسب وآخره حال فليس مكتسباً.

وقيل للحسين بن علي إن أبا ذر يقول الفقر أحب إليّ من الغنى، والسقم أحب إليّ من الصحة. فقال: رحم الله أبا ذر أما أنا فأقول: من وثق بحسن اختيار الله له لا يختار غير ما اختار الله له.

وسئل أبو عثمان عن قوله (عم): اللهم إني أسألك الرضاء بعد

القضاء. فقال: إنما قال ذلك لأن الرضاء قبل القضاء عزم على الرضاء. فأما الرضاء بعد القضاء فهو الرضاء حقيقة.

وكتب عمر إلى أبو موسى الأشعري رضي الله عنهما: أما بعد فإن الخير كله في الرضاء. فإن استطعت أن ترضى فنعماً وإلاّ فاصبر.

وقيل: غضب رجل على عبده فاستشفع إليه رجل فعض عنه فأخذ العبد يبكي فقال له الشفيع: أليس قد عفى سيدك فما يبكيك. فقال: حصل لي العفو وبقي ارضاء ولا سبيل إليه بشافع.

الصدق

وأما الصدق ففي اللغة هو مقابل الكذب

وفي اصطلاح أهل الحقيقة قول الحق في مواطن الهلاك

وقيل: هو استواء السر والعلانية

وقيل: هو اسقاط ما سوى الحق

وقيل: هو الوفاء والصفاء

وقال الجنيد: الصدق أن تصدق في موضع لا ينجيك منه إلا الكذب.

وقال أبو علي الدقاق: هو أن تكون كما تُرى من نفسك أو ترى من نفسك كما تكون

وقيل: الصادق من لا يحب اطلاع الناس على عمله ولا يكره ذلك

وقيل: الصادق هو الذي يتهيأ له أن يموت ولا يستح من سره لو كشف

وقد مدح الله تعالى الصديق وأمر به فقال:

﴿يا أيها الذين آمنوا إتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾.

وقال النبي عم: لا يزال العبد يصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ولا يزال يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً.

وقال عم: دع مايريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة.

وقال إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار.

والصّديق هو صيغة مبالغة من الصادق كالسكيت من الساكت.

فالصادق من صدق في أقواله. والصديق من صدق في أقواله وأفعاله وأحواله.

والصدق زُلال منبعه استقامة القلب وبرأته من الإعتراض الدنيوية.

والصدق قرين الحرية والفتوة وإن كان دونهما مرتبة.

والصدق ثلاثة أقسام: صدق النية وصدق اللسان وصدق العمل.

فصدق النية أن لا يريد بجميع أقواله وأفعاله وأحواله إلاّ الله

وصدق اللسان معروف وصدق العمل أن يكون حريصاً عليه لا يقطعه إلاّ قهراً واضطراراً.

وقال ذو النون: الصدق سيف الله تعالى ما وُضع عل شيء إلاّ قطعه

وقال بعضهم: إذا طلبت الله بالصدق أعطاك مرآة تبصر فيها عجائب الدنيا والآخرة.

السماع

وأما السماع: قالوا السماع على ثلاثة أقسام:

سماع بالطبع ويشترك فيه الخواص والعام بالجبلة البشرية في استلذاذ الصوت الطيب وسماع بالحال وصاحبه يتأمل ما يرد عليه من ذكر خطاب أو عتاب أو تصديق بوعد أو نقص لعهد أو ذكر اشتياق أو خوف فراق أو فرح وصال ونحو ذلك وسماع بحق وصاحبه يسمع بالله لله ولا يتصف بشيء من الأحوال البشرية بل بصفاء التوحيد.

وسئل ابراهيم الخواص: ما بال الإنسان يتحرك عند سماع الألحان مالا يتحرك عند سماع القرآن. فقال: لأن سماع القرآن صدمة لا يمكن لأحد أن يتحرك فيه لشدة غلبته عليه، وسماع الألحان ترويح يتحرك فيه.

وقال ابن الجلاء: كان بالمغرب شيخان يقال لأحدهما جبلة وللآخر زريق وكان لهما أصحابزد وتلاميذ فزار زريق وأصحابه في بعض الأيام جبلة فقرأ رجل من أصحاب زريق شيئاً فصاح واحد من أصحاب جبلة ومات. فلما أصبحوا قال جبلة لزريق أين الذي قرأ بالأمس فقال حاضر. فقال ليقرأ آية فقرأ فصاح جبلة صيحة فمات القارىء. فقال واحد بواحد والبادىء أظلم.

وعن الجنيد: إنه دخل يوماً على السرى فوجد عنده رجلاً مغشياً عليه فقال: ما بال هذا فقيل له: سمع آية من كتاب الله. فقال الجنيد اقرأ آية أخرى. فقرأ فأفاق. فقال السري للجنيد: من أين لك هذا. فقال: إن قميص يوسف ذهب بسببه بصر يعقوب لما

جاءوا عليه بدم كذب ثم عاد بسببه لما جاء البشير. فأعجب السري قوله.

وقال أبو علي الشبلي: ربما تطرق سمعي أنه من كتاب الله تعالى فتحملني على ترك الأشياء كلها والإعراض عن الدنيا ثم أرجع إلى عادات الناس وأحوالهم.

فقال الشبلي: ما أجتليك إليه به فهو عطف عليك ولطف بك، وما رد به إلى نصيبك من الدنيا فهو شفقة منه عليك لأنه لم يصح لك التبرؤ من الحول والقوة في التوجه إليه.

الفصل الرابع والستون:

حقيقة الروح والنفس الكلي وأدلة الذكر

الروح الإنسانية

والروح الإنسانية اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان الراكبة على الروح الحيوانية نازلة من عالم الأمر تعجز العقول عن إدراك كنهها، وتلك الروح قد تكون مجرّدة، وقد تكون منطقية في البدن. [والروح الحيوانية جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني تنتشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن.

والروح الأعظم هي الروح الإنسانية مظهر الذات الإلهية من حيث ربوبيتها لذلك لا يحوم حولها حائم ولا يروم وصلها دائم ولا يعلم كنهها إلاّ الله، وهو العقل الأول.

واعلم أن حقيقة الروح الإنسانية من عالم الأمر، وهي النفس الناطقة عند أهل الحكمة، وهي جوهر نوراني عند أهل الحق، وهي حقيقة روحانية عالمة بذاتها ومدركة بجميع المجردات والمشاهدات وهي مشاهدة بصفات الله، لأن الله تعالى تجلى فيها بذاته وصفاته وأسمائه.

وجعل الله تعالى تلك الروح مظهراً تاماً لذاته وصفاته وإنما يكدرها ويظلمها هذا البدن الجسماني والهيكل الظلماني لما فيه من القوى المختلفة والحواس المتفرقة. وتلك القوى والحواس تذهله عن العلم بذاته وتعميه عن مشاهدة ربه، فلولا أن في الإنسان تعلق بتلك القوى والحواس لكان عالماً بذاته ومدركاً لأحوال الملكوت ومشاهد الرب تعالى [كما قال (عم): لولا الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظر الإنسان إلى ملكوت السموات والأرض، ولو لم تكن الشهوة والغضب لسهل على النفس البشرية الإطلاع على المجردات الروحانية، ولو لم يكن القوة المتفكرة والمتخيلة شيطانية لكانت النفس تعرف نفسها وربها وتعلم ذاته وتلاحظ صفاتها الأصلية وعالمها الروحاني.

واعلم أن حجاب النفس عن كمالاتها العلمية إنما هو اشتغالها بالأمور البدنية والقوى العنصرية.

وأن من أراد أن يعرف نفسه ويشاهد أنوار ربه سبحانه: عليه أن يجرد نفسه من التعلق بالقوى البدنية والتقييد بالحواس الجسمانية، فيلطف نفسه بالعبادات ويخطف جسمه بالرياضات من قلة الأكل والنوم، والصمت والعزلة وأن يجاهد بمخالفة النفس والهوى وترك الشواغل الدنيوية التي حاصلها كثرة الهم كما قال عليه السلام:

إن الحكمة لتنزل من السماء فلا تدخل قلباً فيه همّ.

وأن يسلك إلى طريق الله تعالى بالطاعات والذكر والفكر والتوجه إلى جناب الحق سبحانه وتعالى لأن من ليس له نصيب في طريق الحق من السلوك بهذه المجاهدات فلانصيب له من المعرفة والمشاهدة وليس له نصيب واحد وحظ من الطريق إلى الله تعالى غير هذه الطرق الثلاثة، لأن النفوس متعلقة بالشهوات البدنية فلا

بد لها من الرياضات والمجاهدات والسلوك بالطاعة والأعمال الصالحات كما قال الله تعالى:

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾[1]. فينصرف.

الذكر

واعلم أن الذكر الخفي والتفكر غاية قصوى.

وفي الذكر نصوص، وقد جاء في الكتاب قوله تعالى:

﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾[2]

وقال تعالى: ادعوا ربكم تضرعاً وخفية

وقال تعالى: واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفية ودون الجهر.

وفي البخاري عن النبي (عم) قال: قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه.

وعن عائشة عن النبي (عم): يفضل الذكر على الذكر سبعين ضعفاً فإذا كان يوم القيامة رجع الله الخلائق إلى حسابه وجاء الحفظة بما كتبوا، قال الله تعالى: انظروا هل بقي من شيء فيقولون ما تركنا شيئاً مما علمناه وحفظناه إلاّ وقد أحصيناه. فيقول الله تعالى: عندي حسن، وأنا أجزي به وهو الذكر الخفي.

---

(١) **سورة الكهف**، الآية ١١٠ ـ ١٨/١١٠

(٢) **سورة آل عمران**، الآية ١٩١ ـ ٣/١٩١

وقال (عم): الذكر الذي لا تسمعه الملائكة يزيد على الذكر الذي تسمعه سبعين ضعفاً.

وقال القاضي عياض: ذكر الله ضربان: ذكر بالقلب وذكر باللسان. وذكر القلب نوعان: أحدهما وهو أرفع الأذكار وأجلّها وهو الفكر في عظمة الله وجلاله وجبروته وملكوته وآياته وأرضه وسمواته.

وفي الأذكار للنووي: الذكر يكون بالقلب وباللسان والأفضل ما كان بهما، فإن اقتصر فالقلب أفضل، وقال: الذكر بالقلب أفضل من القراءة بلا قلب، وهو معنى كلام ابن الجوزي: فإن أصوب الأمور أن تنظر إلى ما يظهر القلب ويصفيه للذكر والأنس فتلازمه.

والحاصل أن الذكر الخفي أفضل من كل ذكر وعبادات عند كل العلماء والسلف.

الفصل الخامس والستون:

أحوال أهل الحقيقة عند الموت ووصية الشاذلي

وأما أحوال أهل الحقيقة عند الموت فاعلم أن أحوالهم عند الموت مختلفة: فمنهم من تغلب عليه الهيبة، ومنهم من يغلب عليه الرجاء، ومنهم من يكشف له في تلك الحال عما يوجب له السكون وجميل الثقة.

وكان الشبلي طوال ليلة خروجه من الدنيا يكرّر هذين البيتين:

إن بيتاً أنت ساكنه غير محتاج إلى سراج

ووجهك حجتنا يوم يأتي الناس بالحج المأمول

وقيل لبشر الحافي وقد احتضر: كأنك تحب الحياة فقال: القدوم على شديد.

وقيل فتح عبد الله بن المبارك عنه عند الوفات وضحك وقال: لمثل هذا فليعمل العاملون.

وقيل لذي النون المصري عند موته: ما تشتهي. فقال: أن أعرفه قبل موتي بلحظة ثم قال: الخوف أمرضني والشوق أحرقني والحب يقتلني والله أحياني.

وقال بعضهم: كنت عند ممشاد الدنيوي عند وفاته فقيل له: كيف تجد العلة. فقال: سلوا العلة عني. فقيل: قل لا إله إلاّ الله. فحوّل وجهه إلى الجدار فقال:

أفنيت كلي بكلك هذا جزاء من يحبك
أعجزتني عند خطابك فالكل مني جوابك

وقيل للشلبي عند وفاته: لا إله إلاّ الله. فأنشد وقال:

سلطان حبه أنا لا أقبل الرشا فسألوه فديته لم يُقتل تحرشا

وقال أبو سعيد الحزاز: كنت بمكة فخرجت يوماً بباب بن شيبة فرأيت شاباً حسن الصورة ميتاً، فنظرت في وجهه فتبسّم وقال: يا أبو سعيد أعلمت أن الأحباب أحياء وإن ماتوا، وإنما ينقلون من دار إلى دار كما قال تعالى: لاتقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتاً.

رأي الشاذلي

وقال الشاذلي: رأيت في المنام كأني جالس مع رجل من أصحابي بين يدي أستاذي فقال لي: إحفظ عني أربعة فصول: ثلاثة منها لك وواحدة منها لهذا المسكين:

لا تختر من أمرك شيئاً واختر أن لا تختار.

وفرّ من ذلك المختار ومن فرارك ومن كل شيء إلى الله، وربك يخلق ما يشاء ويختار ماكان لهم خيراً، وكل مختارات الشرع وترتيباته فهي من خيار الله تعالى، وليس لك منها شيء، ولا بد لك منها، واسمع واطلع، وهذا هو موضوع الفقه الرباني والعلم الإلهامي. وهو أرض علم الحقيقة المأخوذ عن الله تعالى لمن استوى.

فافهم وإقرأ وأدع إلى ربك إنك لعلى هذا مستقيم.

وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعلمون. وعليك بالزهد في الدنيا

والتوكل على الله. فإن الزهد أصل في الأعمال والتوكل رأس في الأحوال. واشهد بالله واعتصم بالله في الأقوال والأفعال والأخلاق والأحوال. ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم.

وإياك والشك والشرك والطمع والإعتراض على الله في شيء. واعبد الله على القرب الأعظم تحظ بالمحبة والإصطفائية والتخصيص والتولية من الله والله ولي المتقين.

ثم قال: والذي قطع نفس هذا المسكين عن الوصلة بطاعته وحجب قلبه عن شواهد توحيده أمران:

دخوله في عمل دنياه بتدبيره وفي عمل آخر على الريب في مواهب محبوبه، فعاقبه الله بالحجاب وترادف الإرتياب ونسيان الحساب وغرق في بحر التدبير والتقدير. أفلا يتوبون إلى الله في أوائل التدبير والتقدير ليحظوا منه بمدد التيسير ويحول بينكم وبين التعسير، وكل ورع لا يثمر لك العلم والنور فلا تعد له أجراً، وكل سيئة يعقبها الخوف والهرب إلى الله فلا تعد لها وزراً.

ثم قال: خذ رزقك من حيث آثر لك الله باستعمال العلم ومتابعة السنّة، ولا ترق قبل أن يرق قلبك فتزل بك قدمك.

وقال: هممت مرة أن اختار القلة في الدنيا على الكثرة، ثم أمسكت وخشيت سوء الأدب فلجأت إلى ربي. ورأيت في المنام: كان سليمان (عم) جالس على سرير وحوله عساكر ورفع لي عن قدوره وجفانه[1] فرأيت أمراً عظيماً كما وصفه الله بقوله: ﴿وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾[2].

---

(١) قدور وجفان يعني.
(٢) سورة سبأ، الآية ١٣.

فنوديت: لا تختر مع الله شيئاً وإن اخترت فاختر العبودية لله اقتداء برسوله صلى الله عليه وسلم حيث قال: عهداً ورسولاً، وإن كان لا بد فاختر أن لا تختار وفرّ من ذلك المختار إلى اختيار الله، فانتبهت من نومي فرأيت بعدها قائلاً يقول لي: إن الله اختار لك أن تقول اللهم وسع على رزقي في دنياي ولا تحجبني بها عن آخرتي واجعل مقامي دائماً بين يديك وناظراً منك إليك، وأرني وجهك ووارني عن الرؤية وعن كل شيء دونك وارفع البين فيما بيني وبينك يا من هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم.

الفصل السادس والستون:

أنواع منازل المريد وعدم شرط الكرامة للشيخ

إعلم أنه لما جاوز السالك الظلمات الجسمانية والتجليات الروحانية يضع قدمه في بساط قدم الوجود الذي من كمال شفافه وعدم تلونه تظهر الأسرار وتعترض في طريق سلوكه منازل بهذا التفصيل: أولها البدايات ثم الأبواب ثم المعاملات ثم الأخلاق ثم الأصول ثم الأدوية ثم الولاية ثم الحقائق ثم النهايات. فهذه عشرة. ثم في كل منزل فيها عشرة منازل بهذا الترتيب: البدايات اليقظة وهي الفهم عن الله تعالى في زواجره. وبدايتها أن يفهم ما يحتاج إليه في قضاء الله تعالى. وأوسطها التشهير لأدائها مع معرفة آدابها ونهايتها الخروج عن العادة بالقيام بالعبادة.

والتوبة هي الرجوع إلى الله، فتوبة العامة عن المخالفة إلى الموافقة، وتوبة الخاصة عن السوء السوء إلى الحق. وتوبة أخص الخاصة عن التوبة وعن مقتضى إسم إلى مقتضى إسم، وتسمى توبة المحققين، وتوبة خلاصة الخاصة عند التقيد بمقتضيات الأسماء وآحدية الجمع، وتسمى توبة المنتهى.

الإنابة: هي الرجوع إلى الله تعالى بنسيان ما رجع عنه، فإنابة

العامة عن المخالفات وإنابة الخاصة عن الإرادات وإنابة الأخص عن رؤية الغير، وإنابة أخص الأخص عن عدم الشهود بمراتب التجليات فيما يسمى بالسوى، وإنابة الصفاء أخص الخاص عن الإنقهار بسلطان التجلي عن رؤية المتجلي.

والمحاسبة: وهي المقايسة بين الكمالات والنقائض لتعرف الراجح من المرجوح. فمحاسبة العوام بين الطاعة والمعصية، ومحاسبة المؤيد بين الذكر والغفلة.

التفكر: وهو التفتيش عما يحصل به المقصود. فتفكر العوام فيما يسهل الخروج عن الشهوات وتفكر الخواص فيما يسهل السلوك إلى الحقيقة.

التذكر: وهو نيل ما قصد بالتفكر

الفرار: هو فرار عما يبعد عن الحق إلى ما يقرب الله، ففرار العامة عن الجهل بآداب الخدمة والكسل عن القيام بالحقوق، وفرار الخاصة الحظوظ والأنفس وفرار أخص الخاص عن الشغل بالغير ورؤيته السماع.

السماع: وهو نية كل واحد عن مقصود خاص بحسب نصيبه سماع العوام عن امتثال الأوامر وسماع الخاص عن شهود الحق في كل مسموع لعدم سمعهم إلا بالحق وفي الحق وللحق ومن الحق فالسماع بالحق سماع من لم يبق فيه شيء من النفس، والسماع في الحق سماع من يشد المسموعات المرضة البدل مبدولاً للحق لا غيره، والسماع من الحق من يأخذ الخطاب من الله تعالى أخذا مقبولاً كما هو دأب أهل الحقيقة، وسماع الأخص، سماع كلام الله تعالى من كل كائن وهو السماع الكامل.

الرياضات وهي تهذيب الأخلاق النفسانية بالمجاهدات

الإعتصام: وهو الاعتماء عن وصول المكروهات اعتصام العوام المحافظة على الطاعات امتثالاً لأمر الله تعالى واعتصام الخواص بصورة الإرادات واعتصام الأخص بالشهودية من الآنية واعنصام أخص الأخص بتوفيق حقوق الربوبية مع إثبات ملك الألوهية.

أبواب الحزن: وهو التأسف على ما فات من الكمال وأسبابه، فحزن العامة من التفريط فيما يجب، وحزن المريدين من التفرقة حرصاً على الجمعية.

الخوف: وهو الحذر من المكروه في الإستقبال، فخوف العامة من العقوبة وخوف المريدين من المكر، وخوف الخاصة من الهيبة والجلال.

الإشفاق: وهو الحذر المقرون بالترحم فإشفاق العوام على أنفسهم من الميل إلى المخالفات، من رؤية الطاعات وإشفاق المريدين على أوقاتهم من التفرقة. وليس على الخصوص إشفاق.

الخشوع: وهو خمود النفس المتعاظم أو المتضرع فخشوع العامة له هيبة من الوعيد وخشوع الخاصة لحفظ الحرمة مع الملك الشهيد.

وقال المنكرون: الولي لا تصح له الولاية إلى أن تظهر على يده الكرامات ولو كان عالماً عاملاً متبع السنن مجتنب البدع، فإخلاص ورسوخ وتمكن في اليقين والتيقين. فنقول هذه الشبهة لا تليق بالجواب بل هي مغالطة كما سبق عن الأئمة: أن يكن العلماء أولياء فليس لله ولي.

وقال السهروردي: وفوق أصحاب الكرامات بسبب وبلا سبب قوم ارتفعت الحجب عن قلوبهم فاستغنوا عن السبب وظهور الكرامات والخوارق. ولهذا لم ينقل عن الصحابة إلاّ القليل. من ذلك لما باشرت صريح الإيمان قلوبهم.

وقال زكريا الأنصاري: والكرامات خارق للعادة على يد ولي غير مقارن لدعوى النبوة منه وفيها تثبت له. ولهذا ربما وجدهاأهل البدايات في بدايتهم وفقدها في نهاياتهم لأن ما هم عليه من الرسوخ والتمكن لا يحتاجون معه إلى تثبت، ولذا قل ظهورها على يد السلف من الصحابة والتابعين، وصاحب الكرامات لا يستأنس بها بل يشتد خوفها مخافة أن ذلك استدراج والمستدرج لا يستأنس بما ظهر عليه وعند ذلك يستحقره غيره، وينكر عليه ويحصل له الأمن من مكر الله وعقابه فإذا ظهر شيء من هذه الأحوال على من ظهر عليه ذلك دل على أنه استدراج كرامة. ولذلك قال المحققون أكثر ما اتفق من الإنقطاع عن حضرة الرب سبحانه، إنما وقع في مقامات الكرامات، ولذلك كانوا يخافون منها ويعدونها من أشد البلاء وحيض النساء.

الفصل السابع والستون:

حقيقة الدعاء والنداء والتضرع وشروطها

وأما الدعاء والنداء والتضرع فهو أهم وألزم في البداية والنهاية. قال الله تعالى: وإذا سألت عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني.

وقال: دعوني أستجب لكم

وقال: ادعوا ربكم تضرعاً وخفية.

وقال: نداء خفياً

وقال النبي (عم): الدعاء مخ العبادة

وقال (عم): أفضل الدعاء الحمد لله

وقال: الدعاء هو العبادة.

وقال: الدعاء جند من أجناد الله تعالى مجند يرد القضاء بعد أن يُبرم.

وقال: الدعاء يرد البلاء

وقال: الدعاء مفتاح الرحمة والوضوء مفتاح الصلاة والصلاة مفتاح الجنة.

وقال: الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل. فعليكم عباد الله بالدعاء

قال: الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض.

واختلف الناس في الأفضل الدعاء أم السكوت والرضاء فقيل: الدعاء أفضل كما قلنا وروينا ولأنه مستحق لله تعالى لما فيه من إظهار فاقة العبودية وذلها ولهذا ذم الله تعالى قوماً لا يدعونه.

فقال: ويقبضون أيديهم.

وقيل: معناه لا يمدونها إلينا بالسؤال.

وقيل: السكت والجمود تحت جريان الحكم ، ثم رضا بما سبق من اختيار الحق وإرادته. وقد قال (عم) خبراً عن الله تعالى من شغله ذكرى من مساءلتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين.

قول القشيري في الدعاء

القشيري:

والأولى أن يقال إن الأوقات مختلفة ففي بعضها الدعاء أفضل وفي بعضها السكوت أفضل، والفاصل بينهما الإشارة. فمتى وجد في قلبه إشارة إلى الدعاء فهو وقته ومتى وجد في قلبه عدمه فلا. ويجوز أن يكون الفاصل بينهما ما يجده من البسط والقبض في قلبه، وإن وجد الدعاء يوجب البسط دعا وإن وجد ما يوجب القبض سكت، فإن لم يجد ذلك ولا هذا كان سواء فيخيّر إن كان العلم والمعرفة في ذلك الوقت سواء عنده، وإن غلب عليه العلم يرجح الدعاء، وإن غلبت عليه المعرفة يرجح السكوت والسكون.

وقال أيضاً: ويجوز أن يقال ما كان للعباد فيه نصيب أو لله فيه حق فالدعاء به أولى، وما كان فيه حظ نفس الداعي فالسكوت عنه أولى.

وفي الخبر أن العبد يدعو الله تعالى وهو يحبه فيقول يا جبريل آخر حاجة عندي فإني أحب أن أسمع صوته وأن العبد الذي يدعو الله تعالى وهو يبغضه فيقول يا جبريل أقضِ حاجة عبدي فإني أكره أن أسمع صوته.

وحكي عن الليث أنه قال: رأيت عقبة بن نافع ضريراً ثم رأيته بصيراً فقلت له: بم رُدّ بصرك عليك فقال: رأيت قائلاً يقول لي في المنام: قل يا قريب يا مجيب يا سميع يا لطيفاً لما يشاء رد عليّ بصري فقله فردّ عليّ بصري.

أدعية أخرى

وحكي عن محمد بن حريم قال: لما رأيت أحمد بن حنبل رضي الله عنه كنت بالإسكندرية فاغتممت لموته فرأيته في المنام فقلت له: ما فعل الله بك فقال: غفر لي وتوجني وألبسني نعلين من ذهب. وقال: يا أحمد هذا بقولك القرآن كلامي . ثم قال: ادعوني بالدعاء الذي بلغك عن سفيان النوري، وكنت تدعوني إنه في الدنيا فقلت: يا رب كل شيء بقدرتك على كل شيء ولا تسألني عن شيء. فقال: يا أحمد هذه الجنة فادخلها.

وقيل: إن هذا الدعاء مجرب لجميع الضالة: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه إجمع على ضالتي وعلّم الخضر رجلاً لشفاء المرضى فقال: ضع يدك على موضع الوجع وقل: وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ففعله الرجل فعوفي.

ومن الأدعية المجربة: يا مسبب كل سبب ومأمول من طلب ردّ

علي ما ذهب، وبهذا دعا أعرابي مات جمله فأحياه الله.

وقال: الكتابي: رأيت النبي (عم) في المنام فقلت له ادع الله أن لا يميت قلب فقال: قل كل يوم أربعين مرة يا حي يا قيوم لا إله إلاّ أنت.

وقيل: تعلق شاب بأستار الكعبة وقال: إلهي لا شريك لك فيؤثر ولا وزير لك فيرشى إن أطعتك فبفضلك ولك الحمد، وإن عصيتك فبجهلي ولك الحجة على فبإثبات حجتك عليّ وانقطاع حجتي لديك. ألا غفرت لي، فسمع هاتفاً يقول: الفتى معتق من النار.

ومن الأدعية المهمة والمناجاة العظيمة:

يا ودود، يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا مبديء يا معيد يا فعّالاً لما يريد أسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك، وأسألك بقدرتك التي قدرت بها على خلقك، وبرحمتك التي وسعت كل شيء، لا إله إلاّ أنت، يا مغيث أغثني يا مغيث أغثني، وبها نهاية فرج فرّج الله عن عبده.

وقيل: الدعاء سلم المذنبين، وقيل: لسان المذنبين دموعهم.

وقيل: الدعاء لسان الاشتياق إلى الحبيب

وقيل: الدعاء يوجب الحضور والعطاء يوجب الصرف، والمقام على الباب أشرف من الانصراف بالمبار.

شروط الدعاء

وأن شروط الدعاء: فالتوبة قبل الدعاء ورد المظالم وأكل الحلال وصدق المقال والإقبال بكنه همته، وأما آدابه فالجد في الطلب والإلحاح والمحافظة على الدعاء في الرجاء والشدة، وأن يعزم إذا

سئل وأن يدعو ثلاثاً، وأن يقتصر على جوامع الدعاء وأن يختمه بالصلاة على النبي (عم)، وأن يدعو طاهراً إن أمكن، وإن يستقبل القبلة، وأن يرفع يديه حتى يحاذي بهما المنكبين، وأن يحفظ صوته بالدعاء وأن يمسح بيديه وجهه إذا فرغ وأن يحمد إذا عرف الإجابة، وافتتاحه بالحمد وافتتاحه بالصلاة.

الفصل الثامن والستون:

المحو والإثبات والمحاضرة والغيبة والمعية

أما المحو والإثبات: فالمحو رفع أوصاف العادة والإثبات إقامة أوصاف العادة فمن محا عن نفسه وأحاله الخصال المذمومة وأثبت الخصال المحمودة فهو صاحب محو وإثبات.

وقيل المحو: انسلاخ العارف عن كل وجود غير وجود الحق.

والإثبات: إحكام العبادة وهي تصفية السر عن كدورات الإنسانية. ثم إن المحو والإثبات على ثلاثة أقسام:

- محو العدم وإثباتهم وهو محو الزلة عن الظواهر وإثبات الطاعة عليها وفيه إثبات المعاملات.

- ومحو الخواص وإثباتهم وهو محو الغفلة عن الضمائر وإثبات اليقظة فيها وفيه إثبات المنازلات.

- ومحو العارفين وإثباتهم وهو محو العلة عن السرائر وإثبات فيه لا غير وفيه إثبات المواصلات. [وهذا كله محو وإثبات بشرط العبودية، وحقيقة المحو والإثبات المطلق: إن المحو ما ستره الحق والإثبات ما ظهره وأبداه فهما مقصودان: على المشبه. قال الله تعالى: يمحو ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب. قيل: يمحو عن

قلوب العارفين ذكر غيره ويثبت على ألسنة المريدين ذكره.

والمحق: والمحق فوق المحو لأن المحو يبقى معه أثر بخلاف المحق فإنه لا يبقى معه أثر بالكلية، فغاية همة القوم المحق فإنه لا يبقى معه أثر بالكلية، فغاية همة القوم المحق وهو أن يمحقهم الله تعالى عن شاهدهم ثم لا يردهم.

المحاضرة

وأما المحاضرة ثم المكاشفة ثم المشاهدة على هذا الترتيب.

فالأول المحاضرة وهي حضور القلب، وقد تكون بتواتر البرهان.

ثم المكاشفة وهي حضور ينعت البيان لا بالنظر في الدليل، ثم المشاهدة وهي وجود الحق من غير بقاء تهمة، فإذا صحت سماء الحقيقة عن غيوم الستر أشرقت شمس المشاهدة في بروج المقابلة.

وقال الجنيد: حقيقة المشاهدة وجود الحق مع فقدانك فصاحب المحاضرة يهديه قلبه، وصاحب المكاشفة يدينه علمه، وصاحب المشاهدة يفنيه سره.

وقيل: إن المشاهدة إدراك الغيوب بأنوار الأسرار عند صفاء القلوب من الأدناس والأقذار، وخلوصها من الأضداد والأغيار في مراقبة الجبار، فيصير كأنه ينظر إلى الغيب من وراء سر دقيق من صفاء المعرفة ورد اليقين.

ولهذا قالوا: إن المشاهدة تتولد من المراقبة ولم يزد أحد في بيان حقيقة المشاهدة على ما قاله عمرو بن عثمان المكي.

ومعنى ما قاله إنه تتوالى أنوار التجلي على قلب العارف من غير أن يتحللها ستر وانقطاع كما لو قدرنا اتصال البروق إضاءة الليلة

الظلماء حتى تصير كالنهار، فكذلك يضاء قلب العارف باتصال أنوار التجلي، حتى يصير دائم النهار غائب الليل.

كما قيل:

ليلي بوجهك مشرق وظلامه في الناس سار
فالناس في صدف الظلام ونحن في ضوء النهار

البوادة

وأما البوادة والهجوم.

فالبوادة: ما يفاجىء القلب من الغيب على سبيل الوهلة، إما للفرح أو للترح.

والهجوم: ما يرد على القلب بقوة الوقت بغير تضييع منك.

وقيل: الهجوم هي الحال الواردة فجأة، والبوادة هي الحال الواردة على سبيل السكون.

واعلم أن أحوالهم في البوادة والهجوم مختلفة فمنهم من تغيره البوادة ومنهم من يحتملها وتغيره الهواجم. ومنهم من لا يتغير لشيء منها وهم سادات القوم.

لا تهتدي نوب الزمان إليهم ولهم على الخطب الجليل لحام

الحضور والغيبة

وأما الحضور والغيبة والمعية.

فالغيبة: غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق بما يرد عليه. ثم قد يغيب غيره فقط. وقد يغيب عن غيره وعن نفسه أيضاً إذا عظم الوارد.

ثم قد تطول الغيبة وقد تقصر وقد تدوم.

واعلم أن العبد له أفعال وأخلاق وأحوال: فالأفعال تصرفاته الإختيارية، والأخلاق طباعه الفطرية لكنها بتغيير وتبديل العادة على مرور الأيام، والأحوال ترد على العبد ابتداءً وصفاؤها بحسب صلاح أعماله. [ومتى فني العبد عن الأفعال والأخلاق والأحوال يزول إحساسه عن كل ذلك. فقد استولى عليه سلطان الحقيقة، فهو حاضر بالحق غائب عن نفسه وعن الخلق. [ومما يشهد بصحة وجود الغيبة أننا نرى الرجل يدخل على عالم أو سلطان أو رجل جليل القدر فيذهل عن نفسه وعن مجلسه وربما ذهل عن ذلك الرئيس أيضاً حتى إذا سئل بعد خروجه من كان عنده في المجلس فلسانه لا يستطيع أن يحفظ لفرط دهشته وزهوه والهيبة والإجلال.

وأدل من ذلك واقطع النسوة اللائي قطعن أيديهن حين شاهدن يوسف، فإذا كان مشاهدة جمال يوسف والانشغال به غيبهن عن الإحساس بألم القطع لفرط الدهشة والذهول بجهل مخلوق مثلهن، مع أنهن أضعف من الرجال خلقاً وأقل حذراً وصبراً، فكيف تكون غيبة من شاهد أنوار ذي الجلال وخالق السموات والأرض.

ومن المشهود عن أبي حفص النيسبوري في ابتداء حاله أنه سمع قارئاً يقرأ آية من القرآن فورد على قلبه وارد فغلب عن إحساسه وأدخل يده في النار وأخذ الحديدة المشتعلة بأصابعه فرآه تلميذه فقال: يا أستاذ ماهذا فنظر أبو حفص إلى ما كان منه وترك الحرفة وكان ما كان. وروي عن علي بن الحسين رضي الله عنه أنه كان في سجوده فوقع في داره حريق فلم يحضر من غيبته. فقيل له ذلك فقال: شغلتني النار الكبرى عن النار الصغرى.

الحضور:

وأما الحضور فهو حضور العبد بالحق بعد غيبته عن الخلق وذلك بسبب استيلاء ذكر الحق على قلبه ودوامه فيه. وقدر حضوره بالحق بقدر غيبته عن الخلق، فإن كان بالكلية كان حضوره كذلك، ثم يكون مكاشفاً في حضوره على حسب رتبته بمعان يخصه الحق بها وقد يقال حضر العبد بمعنى عاد من غيبته وعدم إحساسه بأحوال نفسه.

الفصل التاسع والستون:

الوقت والنفس والخلاص والمنازل

وأما الوقت والعصر والزمان فهو عندهم تارة بمعنى الزمان الحاضر الذي هو واسطة بين الماضي والمستقبل ومنه قولهم: الصوفي ابن وقته، ويعنون به مشتغل بما هو أولى به في الحال.

وتارة بمعنى ما يصادفهم من تصريف بهم على ما يختارونه لأنفسهم، ومنه قولهم بحكم الوقت ويعنون أنه مستسلم لما يبدو من الغيب من غير اختياره، وهذا أيضاً إنما يكون فيما لا حكم فيه من جهة الشرع. فأما ما فيه حكم من جهته فإن تضييعه وإحالة الحكم فيه على المقادير وخروجه عن الدين.

وقال أبو علي: وقتك ما أنت به: إن كنت بالدنيا فوقتك الدنيا، وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى وإن كنت بالسرور فوقتك السرور وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن. أراد بالوقت ما كان غالباً على الإنسان.

وأما قولهم الوقت سيف فإنهم يعنون به بأنه غالب عليهم بما يجري الله تعالى به من قضائه وقدره كما أن السيف غالب بقطعه. وقيل معناه أن لين متنه قاطع حده فمن لاينه سلم ومن خاشنه

اصطلم، وكذلك الوقت من استسلم لحكمه نجا ومن عارضه بترك الرضا انتكس وتردى.

وقيل معناه أنه لا دوام له فأدرك فيه أمانيك ولا تدعه يمضي عنك وكن حاكماً على وقتك لا محكوماً عليه بوقته. وقيل الكيّس من كان يحكم وقته فإن كان وقته الصحو فقيامه بالشريعة وإن كان وقته المحو فالغالب عليه أحكام الحقيقة. وفي غير الصحو والمحو للصوفي أوقات تساعده وأوقات تناكره. فمن ساعده الوقت فهو له ومن ناكره الوقت فهو مقت وعليك المراقبة. فإن كان بسطاً فالألزم فيه الأدب وإن كان قبضاً فالألزم السكون والسكينة إلى أن تنقضي.

النفس:

وأما النفس فهو ترويح القلب بلطائف الغيوب كالوقت والحال. إلا أن صاحب الأوقات مبتديء في تحصيل أمداد ألطاف الغيب، وصاحب الأنفاس منته في رائحة القلب بعجائب الغيب.

وغرائب الأنس بينهما: فالأوقات لأصحاب القلوب والأحوال لأرباب الأرواح، والأنفاس لأهل السرائر.

وقالوا: الأفضل عد الأنفاس مع الله تعالى.

فإذا أردت الخلاص في النفس والمحن والمكر فالزم التوبة دائماً بالنية الخالصة من جميع الكبائر والصغائر وهفوات الخواطر، واعرج عنها في معراج عالم القلب الذي هو معراج التوابين، ثم اجتز هذا المقام بالترقي إلى عالم الروح الذي هو معراج المحبين، ثم اسلك في عالم السر الذي هو معراج العارفين، فإذا لم ترق من حضيض طبعك وبشريتك ونفسك لا تصل إلى هذا الدرجات.

فإذا ترقيت عنها فحينئذٍ يستقبلك تصرف الحق فيك، وفي الخير قلب بين آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء: فتارة يقلبه من قبض إلى بسط ومن خوف إلى رجاء ومن بقاء إلى فناء ومن صحو إلى محو ومن طرب إلى حزن وتارة تنعكس هذه الأحوال وتتغير هذه الأوصاف. وهو أبداً بين قبض وبسط وخوف ورجاء وفناء وبقاء وطرب وحزن، ويجذبه عنه ويوصله إلى أعلى مراتب السائرين إليه، وتارة يرده عنه ويوقعه في أدنى منازل المنقطعين عنه. وكل جذبة من جذباته توازي عمل الثقلين.

وقد أشار إلى ذلك الحلاّج قدس سره في قصيدة له فقال:

سكوت ثم صمت ثم خَرَس	وعلم ثم وجد ثم رمس
وطين ثم نور ثم نار	وبرد ثم ظل ثم شمس
وحزن ثم سهل ثم قفر	ونهر ثم بحر ثم يبس
وصحو ثم سكر ثم شوق	وقرب ثم وقر ثم أنس
وقبض ثم بسط ثم محو	وفرق ثم جمع ثم طمس
وأخذ ثم رد ثم جذب	ووصف ثم كشف ثم لبس
عبارات لأقوام تساوت	لديهم هذه الدنيا وفلس
وأصوات وراء الباب لكن	عبارات الورى في القبر همس
وآخر مايؤول إليه عبد	إذا بلغ المدى حظ ونفس
لأن الخلق خدام الأماني	وحق الحق في التحقيق قدس

الفصل السبعون:

التجلي والواردات والستر والعقاب

التجلي:

واعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يتجلى لأرباب السلوك تجلياً مساوياً في الرتبة والأسلوب الواحد والأطراد بل يختلف رتب التجليات حسب اختلاف استعداداتهم من حيث القوة والضعف في الصفوة والذكاء، ومن حيث التقرب والتبعد في الحضرة الإلهية، لأن مراتب الكشف إنما تزيد وتنقص في التجليات الإلهية بقدر أنوار بصائر القلوب.

[وقدر أنوار بصائر القلوب إنما يتفاوت بقدر القرب والبعد من الحضرة الإلهية كما كانت مراتب رؤية الأبصار تتفاوت بغير أنوار حاسة الأنوار. وتفاوت أنوار حاسة الأنوار هو باختلاف استعداد القوة الباصرة في اعتدال المزاج العنصري، وباختلاف القرب والبعد من المبصرات لأن رؤية نور الباصرة إنما يكون أزيد إذا كان مزاج الرائي أعدل. وإذا كان قربه من المبصر أكثر كانت رؤيته أزيد وأكمل.

فكذلك الحال في شهود البصائر بأنوار التجليات الإلهية لأن

نور البصيرة إنما يكون أزيد إن كان الإستعداد أقوى. وإذا كان قرب البصيرة منه تعالى أكثر كانت البصيرة الإلهية أكثر شهوداً وأكمل كشفاً.

ثم إعلم أن أشرف الأنوار وأعلاها نور الحق سبحانه وتعالى، ثم نور الروح، ثم نور القلب، فإن ارتقى السالك مرتبة القلب إلى مرتبة الروح صار نور بصيرته أشرف وأعلا من مرتبة نور القلب.

واعلم أنه كلما قرب السالك إلى الحضرة الإلهية كان نور بصيرته أشرف وألطف حتى صار له نور من التشابه بنوره تعالى.

فلذلك اتلبس الأمر لبعض من وصل إلى تلك المرتبة. فتكلم بكلام دال على الله، فتعالى الله علواً كبيراً. لكن هذا الكلام يعني عنه فإذا تاب واستغفر واعتذر كان عذره مقبولاً.

ولا يظن السالك أنه إذا وصل تلك المرتبة يحصل له الاتحاد مع الحق سبحانه، لأن اتحاد الخالق مع المخلوق محال ذاتي من كل الوجوه، ومعنى الاتحاد أن يصير الشيء بعينه شيئاً آخر.

فهذا الإتحاد إما في الجسمانيات وإما في المجردات:

ففي الجسمانيات بأن يكون الإتحاد بالإتصال والإمتزاج والتركيب. فبطلانه ظاهر في حقه تعالى.

وفي المجردات فإن بطلانه ظاهر أيضاً لأن الشيئين إذا اتحدا فإنهما يتعددان: إذا بقي أحدهما مع بقاء الآخر، ومن ثم فلا اتحاد بينهما إذا بطل أحدهما وبقي الآخر، وكذلك لا يكون اتحاد بين الحق والمخلوق.

وأما الاتحاد الذي يدل عليه كلام بعض الواصلين إلى نور الأحدية الذاتية في بعض السكرات فلعلاقة القربية ونسبة الأحدية

التي تحت تلك العلاقة عند الالتفات إلى ذاته لاستعلاء نور الأحدية عليه، فينطلق لسانه بكلام حكم الأحدية، وذلك الكلام ليس في الحقيقة منه بل هو كلام الحق تعالى بلسان عبده لكمال قربيته إليه تعالى كما تكلم بالشجر لموسى: إني أنا ربك.

ولتفن حتى عن فنائك إنه عن الوصال فعند ذلك تراه

فإذا فنيت فيه فاعلم أنك لست كلا ولا أيضاً تكون سواه

شيئان ما تصدى ولكن ههنا سر يضيق نطاقنا عماه

الستر:

وأماالستر والتجلي. فالستر للعوام والتجلي للخواص.

والمراد بالستر قيام الحجب المانعة من المشاهدة. وصاحب التجلي موصوف بالخشوع أبداً لقوله (عم): إذا تجلى الله تعالى لشيء خشع له.

وللخواص أيضاً ستر، مع أنهم في دوام التجلي. والحالتان في حقهم متناقضتان لفظاً لا معنى. لأن التجلي عبارة عن حفظهم عن التلاشي والإحتراق وتمكينهم في مقام الثبات، إذ لولا ستره عليهم ما يكاشفهم به لتلاشوا عند ظهور سلطان الحقيقة. وإلى هذا أشار النبي (عم) بقوله: إنه ليفان على قلبي حتى استغفر الله تعالى في اليوم سبعين مرة.

والإستغفار طلب الغفر وهو الستر فمعناه أنه كان يطلب للثبات والبقاء عند غلبة سلطان الحقيقة. وإليه أيضاً أشار (صلعم) بقوله: يا مثبت القلوب ثبت قلبي.

وفي الخبر أن الله جل وعلا لو كشف عن وجهه لاحترقت سبحات وجه من أدركه بصره.

فالحاصل أن الستر عقوبة وللخواص رحمة، وأصحاب الذوق للعوام هذه الطائفة فلا جرم إن غشاهم في التجلي بلاهم في الستر، وأما الخواص فهم بين طيش وعيش إذا تجلى لهم طاشوا وإذا ستر عليهم تعالى ردّوا إلى الثبات والتمكن.

الشريعة:

والشريعة هي الإيثار بالالتزام للعبودية.

والشرع في اللغة عبارة عن البيان والإظهار، يقال شرع الله كذا أي جعله طريقاً ومذهباً ومنه المشروعية والشريعة والشرع والدين والملة والناموس وكلها بمعنى واحد.

والطريقة هي السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى مع قطع المنازل والترقي في المقامات.

والحقيقة: من حق الشيء إذا ثبت والتاء للنقل من الوصفية إلى الإسمية، وفي اصطلاح أهل اللغة حقيقة الشيء ما به الشيء هو هو، وفي العرف ما به الشيء هو هو باعتبار تحققه حقيقة وباعتبار تشخصه هوية مع قطع النظر عن ذلك ماهية.

والحق: في اللغة هو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره وفي اصطلاح أهل المعاني هو الحكم المطابق للواقع ويطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتمالها ذلك ويقابله الباطل، فمعنى حقيقة الشيء مطابقة الواقع إياه.

قال النبي (عم): علم الباطن سر من أسرار الله تعالى وحكم من حكم الله يقذفه في قلوب من يشاء من عباده. أخرجه الديلمي عن علي.

وقال (عم): العلم علمان فعلم في القلب فذلك النافع وعلم في

اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم. أخرجه الحكيم عن الحسن مرسلاً.

وقالوا: الشريعة أمر بالتزام العبودية دائماً.

بين الحقيقة والشريعة:

والحقيقة: مشاهدة الربوبية، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة غير مقبولة. وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة غير مقبولة أيضاً.

فالشريعة أن تعبد الله. والحقيقة أن تشهد حقيقة.

فالشريعة قيام بما أمر والحقيقة شهود لما قضى وقدر. وأخفى وأظهر.

واعلم أن أهل الظاهر هم أهل الشريعة وأهل الباطن هم أهل الحقيقة، وهما متلازمان حقيقة لأن الطريق إلى الحق تعالى لها ظاهر وباطن، فظاهرها الشريعة وباطنها الحقيقة.

فبطون الحقيقة في الشريعة كبطون الزبد في لبنه، فبدون خض اللبن لا يظفر بزبده. [فالمراد من الحقيقة والشريعة إقامة العبودية على الوجه المرضي. فكل شريعة لا حقيقة لها فهي عاطلة، وكل حقيقة لا شريعة لها فهي باطلة.

فالشريعة حق والحقيقة حقيقتها

والشريعة القيام بأمر الشارع والحقيقة مشاهدة أمره.

ويجمعها قوله تعالى: اياك نعبد واياك نستعين

فاياك نعبد: شريعة

واياك نستعين: حقيقة

فاياك نعبد لا يتوصل إليها إلاّ بقطع عقبتين: الأولى: العلم النافع والثانية العمل المخلص.

وإياك نستعين لا يتوصل إليها إلا بقطع سبع عقبات:

الأولى قطع عقبتي اياك نعبد، والثاني عقبة فطم الجوارح عن المخالفات الشرعية، والثالثة فطم النفس عن المألوفات العادية، والرابعة فطم القلب عن الرعونات البشرية، والخامسة فطم السر عن الكدورات الطبيعية، والسادسة فطم العقل عن الخيالات الوهمية والسابعة فطم الروح عن غير رب البرية.

فإذا باشرت بقطع تلك العقبات الصورية فتشرف من العقبة الأولى على إخلاص النية بالأعمال العلمية ويظهر لك في العقبة الثانية ينابيع الحكمة القلبية، وتطلع من العقبات الثلاث على أسرار العلوم اللدنية. ويلوح لك في العقبة الرابعة أعلام المناجاة الملوكية، ويلمع لك في العقبة الخامسة نور المنازلات القربية، ويضيء لك في العقبة السادية أقمار المشاهدات الحبية، وتهبط من العقبة السابعة إلى الحضرة القدسية.

فهناك تغيب بما تشاهده من اللطائف الأنسية فتحار في وقت الحضور وتندهش في حالة الظهور وتغيب عن حسك بمشاهدة ذلك النور، فحينئذٍ تكون لك السروة والسرور فإذا فنيت ذاتك وذهبت صفاتك قام ببقائه عن فنائك وبصفاته عن صفاتك، وخلع عليك خلعة فبي يسمع وبي يبصر فيكون هو متوليك ومموليك فإذا نطقت فبأذكاره وإذا نظرت فبأنواره وإذا تحركت فبأقداره وإذا بطشت فباقتداره.

الفصل الواحد والسبعون:

طبقات الصوفية، والجمع والتفرقة

واعلم أن الناس ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: هم المشايخ الصوفية وهم الذين حصل لهم الوصول إلى حضرة الحق بواسطة كمال متابعتهم للنبي (عم) وبعد ذلك صار لهم الأذن من الله تعالى بالارشاد والرجوع إلى الخلق وهم المكلمون للناس الكاملون في نفسهم بلا التباس. فقد استغرقوا أولاً في عين الجمع ولجة التوحيد، وبعد ذلك شملتهم العناية الأزلية فاستخرجتهم من بطن حوت الفناء إلى سهل التفرقة وميدان البقاء فصار لهم الفعل السديد، فاشتغلوا بدلالة المخلوقات إلى النجاة وبلوغ الدرجات.

الطبقة الثانية: هم طائفة وصلوا إلى درجات الكمال والفعل الجميل، وبعد ذلك لم يؤذن لهم بالرجوع إلى الخلق والتكميل ومنهم الملامية أصحاب الرتب العلية الباطنية.

الطبقة الثالثة: هم طائفة تركوا السلوك فلم يكونوا من أهل الطبقة العليا ولا الوسطى بل كانوا من الأشرار وأصحاب الشمال.

فهم على الخبائث مقيمون نسأل الله أن يحمينا من حالهم، ونعوذ بالله من شرورهم.

واعلم أن الملامية قوم لا يتميزون عن المؤمنين بحالة زائدة يظهر لهم فيها حسن المراتب ولا يريدون حسن المراتب. ويمشون في الأسواق ويتكلمون مع الناس ولا يتميزون عن العامة بعبادة زائدة ظاهرة، قد انفردوا بقلوبهم مع الله بلا التباس، راسخون في العلم والعبودية، لا ينزلون عنها طرفة عين لما فيهم من النفوس الرضية، فهم لا يطلبون للرياسة لأنه قد استولى على قلوبهم سلطان الربوبية. وكان هذا الحال الصديق الأعظم قبل خلافته لتحققه بمقام الملامية. فلذا لم ينقل عنه الإكثار من النوافل لكثرة ما يخفى من أحواله. فكانت أعماله قلبية مع أن كل ذرة ظهرت من أعماله لا يعادلها القناطير من عمل غيره كما وردت في ذلك الأحاديث.

الجمع والتفرقة:

وأما الجمع والتفرقة. قال الشيخ أبو علي:

الفرق ما نسب إليك والجمع ما سلب.

ومعناه أن ما يكون كسباً للعبد من إقامة وظائف العبودية، وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق، وما يكون من قبل الحق من ابداء معان وابتداء لطف وإحسان فهو جمع ولا بد للعبد منهما. فإن من لا تفرقة له لا عبودية له. ومن لاجمع له لا معرفة له. فقول العبد اياك نعبد إثبات للتفرقة باثبات العبودية.

وقوله اياك نستعين طلب للجمع.

وإذا خاطب العبد ربه وناجاه إما سائلاً أو داعياً أو منيباً أو شاكراً أو معتذراً أو مبتهلاً قام في مقام التفرقة.

وإذا أصغى بسره إلى ما يناجيه به مولاه واستمع بقلبه ما يناديه به ويعرفه ويريه إياه ويلوّح لقلبه فهو في مقام الجمع.

وقال بعض المحققين: المراد بلفظ الجمع والتفرقة أن الله تعالى جمع الخلق كلهم في الأزل وخاطبهم بقوله: ألست بربكم. ثم فرّقهم بالسعادة والشقاوة والتقريب والإبعاد والإكرام والإهانة وأشباه ذلك فقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي. وقال: فريق في الجنة وفريق في السعير.

وللجنيد في معنى الجمع والتفرقة رأي. قال:

وتحققتك في سري فناجاك لساني فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعان إن يكن غيّبك العظيم عن لحظ عيان أو قد صيّرك الوجد من الأحشاء وآنِ.

الفصل الثاني والسبعون:

التصوف وحقيقته والإيمان وشروطه

وأما التصوف في اصطلاح الحقيقة التخلق بأخلاق الصوفية والتوسل بأوصافهم إلى الإنتظام في سلوكهم والصوفية جمع صوفي.

قال القشيري: وليس لهذا الإسم في العربية قياس ولا اشتقاق، فالأظهر فيه أنه كالقلب.

وقال بعضهم: التصوف مشتق من الصوف.

يقال تصوف الرجل إذا لبس الصوف، كما يقال تقمص الرجل إذا لبس القميص. والصوفي منسوب إلى الصوف ولهذا القول وجه من حيث العربية إلاّ القوم لم يخصّوا بهذا الإسم لابس الصوف وقيل سموا به لنسبتهم إلى صفة مسجد رسول الله (عم)، وأخذهم طريقهم عن أهل الصفة. وقيل: اشتقاق من الصفاء. وقيل: من الصف لأنهم من الصف الأول بقلوبهم مع الله في المحاضرة.

وهذه الأقوال الثلاثة قريبة من حيث اللفظ، فإن النسبة إلى اصفة صفّي، وإلى الصفاء صفائي. وقد قيل لأهل الحقيقة في تفسير التصوف اصطلاحات. فقيل: التصوف خروج من كل خلق

دني والدخول في خلق سوي. فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف.

وقيل: مراقبة الأحوال ولزوم الأدب

وقيل: الصوفي من لا يملك شيئاً ولا يملكه شيء.

وقيل: هو من يرى دمه هدراً وملكه مباحاً

وقال: الخصيري: الصوفي هو من لاتقلّه الأرض ولا تظله إلاّ السماء

وقال القشيري: أشار إلى حال المحو.

وقيل: علامة الصوفي الصادق هو أن يفتقر بعد الغنى ويذل بعد العز ويخفى بعد الشهرة وعلامة الصوفي الكاذب ضد ذلك.

قال الجنيد: الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلاّ كل مليح.

وقيل: الصوفي وحداني الذات لا يقبل أحداً ولا يقبله أحد.

أصحب الصوفي فان للقبيح عندهم وجوهاً من المعاذير وليس للحسن عندهم موقع، ومعناه أنهم اعتادوا فعل الحسن فلم يبق غريباً ذا موقع لأنه صار لهم كالفعل الطبيعي الذي لا يحمد عليه الإنسان كالسمع والأبصار والفهم ونحو ذلك.

وقيل في العوارف الصوفية هم الذين أحبوا هذه السنّة وطهارة الصدور عماد أمرهم من الغل والغش، وبذلك ظهر جوهرهم وبان فضلهم، وإنما قدروا على هذا زهدهم في الدنيا.

وقيل: التصوف مبني على ثلاث:

التمسك بالفقر والإفتقار

والتحقق بالبذل والإيثار

وترك التعرض والإختيار.

وقال الكرخي: التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الناس

وقال الشبلي: حقيقة الفقر أن لا يستغنى بشيء دون الحق.

وقال الشاذلي: التصوف تدريب النفس على العبودية وردّها إلى أحكام الربوبية.

وقال السيد الشريف: التصوف هو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً فيسري حكمها من الباطن في الظاهر فتحصيل التأديب بالحكمين كمال.

الإيمان:

واعلم أنه إذا قيل ما الإيمان وما رأسه، وما وسطه، وما شجرته، وما غصنه، وما ثمرته، وما عرقه، وما أرضه، وما ماءه وما نهره؟

فالجواب: الإيمان هو الصديق ورأسه الزهد والتقوى ووسطه الطاعة واليقين وعروقه الصلاة والإخلاص. وشجرته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغصنه التوحيد وثمرته الزكاة وأرضه المؤمنين وماءه كلام الله، ونهره العلم.

وإذا سئلت عن مراد الحق من الخلق.

فالجواب: مراده منهم ما هم عليه، أقام كلامهم فيما أراد، وله المراد فيما يريد، فهم منه إليه. وإذا سئلت هل الإيمان قبل العقل أم العقل قبله؟

فالجواب: العقل لأنه حجة الله على خلقه، فيه يحصل الثواب والعقاب والرحمة والعذاب، وبه التدبير لأنه ترجمان القلب وللروح وزير.

وإذا سئلت هل الإيمان مخلوق أم غير مخلوق:

فالجواب: الإيمان إقرار وهداية. أما الإقرار فهو صنع العبد وهو مخلوق. وأما الهداية فهو صنع الرب وهو غير مخلوق.

وإذا سئلت عن الإيمان هل هو جمع أو تفريق

فالجواب: الإيمان جمع عند الله وتفريق بين العباد، وجمع في القلب وتفريق في الأعضاء.

أوجه الإيمان والشريعة

واعلم أن الإيمان والشريعة يدوران على عشرين وجهاً:

خمسة منها على القلب وهي: أن تعرف أن الله واحداً لا ثاني له وهو خالق الخلق وأرزاقهم وحافظهم وناصرهم ومحوّلهم من حال إلى حال.

وخمسة منها على اللسان وهي: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن القدر خيره وشره من الله تعالى.

وخمسة منها على الجوارح وهي: الصوم والصلاة والحج والوضوء والإغتسال من النفاس والحيض والجنابة وما أشبه ذلك.

وخمسة منها خارج الجوارح وهي: الإطاعة للأمراء أو السلاطين العادلين والأئمة والمؤذنين، ومحبة الفقراء والمساكين.

وإذا سئلت عن الإيمان والمعرفة والتوحيد والشريعة والدين والملة والعار والناموس.

فالجواب:

الإيمان: إقرار بلا كيف ولا كم ولا تشبيه.

والتوحيد: إقرار من موحد لربه أنه واحد لا بداية له ولا نهاية.

والشريعة: الإنقياد لربه بتقدير أوامره والإجتناب عن نواهيه.

والدين: الدوام والثبات على هذه الأربعة إلى الممات.

ويطلق الدين على الإسلام والشريعة والشرع والملة والعار والناموس.

شروط الإيمان:

واعلم أنه إذا سئلت عن شروط الإيمان كم هي.

فالجواب: عشرة: الخوف من الله، والرجاء في فضل الله والإشتياق إلى الله والتعظيم لمن عظّم الله والتهاون لمن تهاون بالله والرضا بقضاء الله والحذر من مكر الله والشكر بنعمة الله والتوكل على الله، والتسبيح بحمد الله.

أقسام الإيمان:

وإذا سئلت عن أقسام الإيمان.

فالجواب: على خمسة أقسام: إيمان مطبوع: لا يزيد ولا ينقص، وهو إيمان الملائكة، [وإيمان معصوم: وهو إيمان الأنبياء عليهم السلام يزيد بنزول الأحكام الشرعية عليهم ولا ينقص، [وإيمان مقبول: وهو إيمان المؤمنين تارة يزيد بالطاعة وتارة ينقص بالمعصية، وعند الشافعية ذات الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، [إيمان موقوف: وهو إيمان المنافقين من أمة محمد فإذا ذهب النفاق من قلوبهم صحّ إيمانهم.

[وإيمان مردود وهو إيمان الكفرة والنصارى وما أشبهه.

حقيقة الإيمان:

وإذا سئلت عن حقيقة الإيمان هل هي مخلوق أم لا.

فالجواب: غير مخلوقة لأنها نور وهداية يقذفها الله في قلب من يشاء من عباده، وإذا سئلت هل الحق تعالى موجود في الأذهان أم الأعيان.

فالجواب: الله موجود مع كل إنسان لقوله تعالى وهو منكم أينما كنتم. فمن قال في الأعيان فقد كفر لأنه لو كان في الأعيان في لكان ينظر في الأذهان فيكون متحيزاً ويلزم له المكان والله منزّه عن ذلك علواً كبيراً.

الإيمان والإسلام:

وأما الإيمان والإسلام عند القوم أن تشهد أوليتك بأوليته وآخريتك بآخريته وظاهريتك بظاهريته وباطنيتك بباطنيته.

وقال الشاذلي خمس من لم يكن منهن فيه شيء فلا إيمان له:

التسليم لأمر الله والرضا بقضاء الله والتفويض إلى أمر الله والتوكل على الله، والصبر عند الصدمة الأولى.

وأما الإسلام فتحقيق لشكر الله فيشكر الله، والإسلام بإنفاق فيشكر الناس، وإن كان لا خير فيه، فإن صاحبه مذموم في الحال أو معذب في الحال أو يتوب الله عليه. قال الله تعالى:

﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم﴾ وهذا الإسلام الذي في ظاهره نفاق هو أقبح من سخط بقضاء الله وجزع. فإن داء السخط والجزع يثبت ذلك

معصية الله ونرجو التوبة منها، وداء النفاق في الإسلام يدعى النفاق ويشهد له به. وقل ما يتوب منه والله يعلم ذلك منه.

العبودية:

وأما العبودية فهي الامتثال لأمر الله واجتناب ما نهى عنه الله ورفض الشهوات والمشيئات على الشهود والعباد.

قال الشاذلي: إن أكرم الله عبداً في حركاته وسكناته نصب له العبودية لله وستر عنه حظوظ نفسه وجعله ينقلب في عبوديته، والحظوظ عنه مستورة مع جري ما قدر له منها، ولا يلتفت إليها فهو في معزل مشغول عنها.

وإذا أهان الله عبداً في حركاته وسكناته نصب له حظوظ نفسه وستر عنه عبوديته فهو يتقلب في شهواته وعبوديته الله عنه بمعزل وإن كان يجري عليه شيء منها في الظاهر، وهذا في باب الأولوية والإهانة.

شروط الإيمان والإسلام:

وقالوا: شروط صفة الإيمان ستة ويقال الإيمان الإجمالي:

آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى.

وشرائط الإيمان ستة أيضاً:

الإيمان بالغيب والإعتقاد بأنه لا يعلم الغيب إلاّ الله، والرجاء من رحمة الله والخوف من عذاب الله، والاعتقاد بأن الحلال حلال والحرام حرام.

وركن الإيمان إثنان:

الأدلة العقلية والشواهد النقلية.

وأساس الإسلام وعلامته خمسة:

شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله، والصلاة الخمس، والصوم والحج والزكاة.

ولوازم الإيمان ثلاثة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله.

وحكم الإيمان اثنان:

الأول أن يحفظ عرض المؤمن ودمه وماله وأهله.

والثاني: أن يحفظ أسراره.

الفصل الثالث والسبعون:

حقيقة الورع والتقى والتقوى والأتقياء

وأما الورع والتقى في اللغة واحد،

وفي اصطلاح أهل الحقيقة هو اجتناب الشهوات خوفاً من الوقوع في المحرمات.

وقيل: هو الوقوع مع ظاهر الشرع من غير تأويل.

وقيل: هو ترك كل شبهة ومحاسبة النفس في كل طرفة.

وقال الشبلي: الورع ترك ما سوى الله، وقد ندب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الورع فقال: الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور شبهات فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك .

وفي رواية أخرى وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام.

وقال صلعم: ألا وإن لكل شيء حمىً، وحمى الله محارمه، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وقال: الورع سيد العمل.

وقال الحسن البصري: مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة.

وقال أبو سليمان: الورع أول الزهد كما أن الرضاء أول القناعة

وقال اسحق بن خلف: التورع من الكلام أشق من التورع عن الذهب والفضة، والزهد في الرياسة أشق من الزهد في الذهب والفضة أيضاً لأنهما يُبذلان في طلب الرياسة.

وقال بشر الحافي: أشق الأعمال ثلاثة:

الجود في القلة والورع في الخلوة وكلمة حق من يخاف ويرجى.

وقيل إن مالك بن دينار أقام بالبصرة أربعين سنة ولم يأكل من ثمرها ولا من رطبها شيئاً حتى مات، وكان إذا انقضى وقت الرطب قال: يا أهل البصرة هذا بطني ما نقص منه شيء ولا زاد في بطنكم.

قيل إن ابن المبارك رجع من مروة إلى الشام ليردّ قلماً استعاره.

وقيل استأجر النجفي دابة فسقط السوط من يده، فنزل عن الدابة ورجع إلى السوط فأخذه ثم جاء فركب الدابة فقيل له: لِمَ لم ترجع إلى السوط راكباً فقال: لأني استأجرت الدابة لأمضي بها لا لأرجع.

وعن أبي حجر أنه كان لا يجلس في ظل شجرة وجدار وباب ويقول كل قرض جرّ منفعة فهو ربا.

وحكى أن بايزيد البسطامي اشترى بهمدان قرطماً وسافر إلى بسطام فوجد فيه نملتين فرجع إلى همدان ووضع النملتين.

واعلم أن المتورع تورعاً كاملاً هو الذي يتورع بقلبه ولسانه

وسمعه وبصره وسائر أعضائه عن المباح المختص بكل عضو إلاّ في قدر الضرورة فحسب، وللمتورع درجات عظمى وسعادة كبرى وعناية لا تحصى.

التقوى:

وأما التقوى والتقي واحد، وهما في اللغة بمعنى الاتقاء، وهي ما يقي الإنسان أي يحفظه ويحول بينه وبين ما يخافه مثاله الترس ونحوه من الأجسام والصدق والصداقة من الأفعال وقيل لغة مطاوعة.

يقال: وقاه فأتقى أي فرض الصيانة. وشرعاً هو الإجتناب عن مضرة الدنيا والآخرة والتقوى عند أهل الحقيقة التنزّه عما يشغل سره عن الحق والتبتل إليه بشر أشره.

وقيل: اجتناب كل ما يبعد عن الله

وقيل: هو الإحتراز بطاعة الله عن عقوبته

وقيل: هو أن يجتنب العبد ما سوى الله

قال الواسطي: المتقى من اتقى تقواه أي من ألقى رؤية تقواه

وقيل: حقيقة التقوى من غير الأنبياء الإحتراز عن الشر الجلي والخفي.

والشرك الجلي والخفي أمران باختلاف الأشخاص.

فالشرك الجلي من العوام الكفر والشك الخفي منهم توحيد اللسان واشتغال القلب بغير الله.

والشرك الجلي من الخواص التفاتهم إلى الدنيا وأسبابها.

والشرك الخفي منهم التفاتهم إلى الآخرة ونعيمها وتوسلهم بالطاعات لجلب ثواب ودفع عقاب.

الفصل الرابع والسبعون:

جزاء العوام والخواص والأنبياء والبلاء

وأما تقوى الأنبياء، فمنهم إليه ومنه إليهم تدبر.

فجزاء العوام على تقواهم قوله تعالى: إن المتقين في جنات وعيون (الآية)

وجزاء الخواص على تقواهم قوله تعالى: وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين

وجزاء السابقين على تقواهم قوله تعالى: إن المتقين في جنات، ونهر في مقعد صدق عن مليك مقتدر.

وأما جزاء الأنبياء على تقواهم فمنه أيضاً.

واعلم أن التقوى من أعظم أركان الدين وأجلّ مقامات السالكين. وقد كرر الله تعالى في كتابه الكريم الوصية بالتقوى وكرر مدح المتقين أيضاً. فمن ذلك قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته

وقوله تعالى: فاتقوا الله ما استطعتم

وقوله تعالى: وتزودوا فإن خير الزاد التقوى

وقال: يا أيها الذين ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم.

وقوله تعالى: وأزلفت الجنة للمتقين

وقوله تعالى: وسارعوا إلى مغفرة

وقال (عم): اتقوا الله حيثما كنتم. وقال: اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى. وقال رجل: أوصني يا رسول الله. فقال: عليك بتقوى الله فإنا جماع كل خير.

وقال ابن عطاء: للتقوى ظاهر وباطن. فظاهرها حفظ حدود الشرع وباطنها النية والإخلاص.

البلاء

وأما البلاء فقال الله تعالى: هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً.

وقال الله تعالى: وبلوناهم بالحسنات والسيئات.

واعلم أن البلاء على ثلاثة أقسام:

أحدهما البلاء على المخلصين وهو نقمة وعقوبة، والثاني البلاء على الأتقياء وهو تكفير للذنوب والثالث البلاء على الصديقين والأنبياء وهو اختيار وامتحان.

وقال بعضهم: البلاء محسنة للغافلين ومنحة للعارفين.

وقال (عم): أشد الناس بلاء النبيون ثم الصالحون. وقال (عم): أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

وقال (عم): إن أهل العافية يودون يوم القيامة أن جلودهم قرضت بالمقارض في الدنيا لما تشاهد فيه من ثواب أهل البلاء.

وقال النبي (عم): إن الله يتعهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعهد الوالد ولده بالفداء.

واعلم أنه إذا سئلت عن حقيقة الأدب مع الله.

فالجواب: أربعة أشياء: خوف وحياء ومعرفة وخشية.

الصوفي:

وإذا سئلت عن الصوفي.

فالجواب؛ الصوفي من صفت سريرته وأنارت بصيرته وعلت همته، وفاضت حكمته وارتفعت رتبته وتعلم العلم والطلب من الله والرضى بنعمة الله وسار في الطريق وراعى الرفيق وهدى بالتحقيق وفعل الخيرات وترك المنكرات واشتغل باقالة العثرات وتكفير السيئات وملازمة الأوقات وإجابة الدعوات وقضاء الحاجات.

شروط الفقير:

وإذا سئلت عن شروط الفقير.

فالجواب: شروطه مأخوذة من حروفه. فالفاء فراق لجميع المألوفات، والقاف قيامه لما افترض عليه رب الأرض والسموات. والياء: يكون متوكلاً في كل أموره عليه. والراء رجوعه إليه.

شروط العاقل: وإذا سئلت بكم شرط يعرف العاقل.

فالجواب: بثلاثة شروط: بملكه لنفسه عند الغليظ، وبملكه نفسه عند الشهرة وبتركه ما لا يعنيه.

شروط المجذوب: وإذا سئلت عن شروط المجذوب.

الجواب: شروطه أربعة أشياء من جذبه الله تعالى من الضلالة إلى النور، وإنقاذه من الغفلة إلى اليقظة، واطلاعه من مقام

المجاهدة إلى مقام المشاهدة وغمسه في بحر نور فيضه.

حقيقة التصوف: واعلم أن حقيقة التصوف: قطع الشهوات وترك الدنيا والمستحسنات، والميل عن المألوفات، وهو مبني على ثمان خصال:

السخاء والرضاء والصبر والإشارة والغربة ولبس الصوف والسياحة والفقر.

فالسخاء لابراهيم الخليل، والرضاء لاسحق، والصبر لأيوب، والإشارة ليحي، والغربة ليوسف، ولبس الصوف لموسى، والسياحة لعيسى والفقر لمحمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء وآل كل الأنبياء أجمعين وحده.

قال الغزالي: هو تجريد القلب لله واحتقار ما سواه، وهي مأخوذة من الصفاء لتصفية القلوب.

وأول شروط طريقة الصوفية تطهير القلوب بالكلية عما سوى رب البرية ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريمة من الصلاة استغراق القلب بذكر الله، وآخرها الفناء في الله.

الفصل الخامس والسبعون:

حقيقة السماع والنفس والتفكر والشوق

وأما حقيقة السماع في اللغة مصدر قوله سمع يسمع.

وفي الاصطلاح هو معروف مشهور.

واختلفوا: فمنهم من قال بإباحة الأشعار بالألحان وهو مالك بن أنس، وابن جريج وأهل الحجاز كلهم.

وأما سماع الأشعار بغير لحن فجائز إجماعاً.

وكذلك هادي العيش بالنغم وسماعه:

وتفصيل ذلك وذكر الأدلة فيه من الطرفين.

موضعه الكتب المطولة من الفقه والحقائق. وكتب الفقه أحق بذلك لأن علم الحقيقة والطريقة لم يبن على المجادلة والقيل والقال، بل على ترك ذلك كله.

ولنصدّر الباب بشيء من القرآن والحديث على طريق التبرك.

والسماع يختلف باختلاف المستمع. فإن كان بعيداً عن الأغراض البشرية والمقاصد البهيمية فهو لا يسمع بالحق من الحق.

وقال الله تعالى: ﴿فهم في روضة يحبرون﴾[1].

فهم: أي الخواص، في روضة يحبرون أي يستمعون.

وجاء في التفسير أن السماع بالحور العين.

وقيل في قوله تعالى: يزيد في الخلق مايشاء، إنه الصوت

وقال: حسّنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً.

وقال: لكل شيء حلية وحلية القرآن الصوت الحسن.

وقال أبو بكر بن محمد بن داوود الدمي: كنت بالبادية فوافيت قبيلة من العرب فأضافني رجل فرأيت على باب خبائه غلاماً أسود مقيداً وجمالاً ميتة. فقال لي الغلام: أنت ضيف كريم على مولاي فعساك تشفع لي عنده فإنه لا يردك. فقلت لمولاه: لا آكل طعامك حتى تشفعني في هذا العبد. فقال: إنه قد أفقرني وأتلف مالي. فقلت: كيف أفقرك؟ فقال: له صوت طيب وكنت أعيش من ظهر هذه الجمال، فحمّلها الأحمال الثقيلة وحدا لها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في يوم. فلما حطّ عنها الأحمال ماتت كلها من التعب. ولكن قد شفعتك فيه. وحلّ قيده. فلما أحببت أن أسمع صوته سألته ذلك. فأمر الغلام أن يحدوا لي فقرأ، وكان هناك جمل على بئر ماء يستسقى له فهام الجمل على وجهه وقطع حباله، حتى أشار عليه بالسكوت. فما أظن أني سمعت صوتاً أطيب منه.

وقيل : إذا غنت الحور في الجنة تورّدت الأشجار.

---

(١) سورة الروم، الآية ١٥ ـ ٣٠/١٥. وفي تفسير البعض: يحبرون: يسرون ويتهللون له.

وقال الجنيد: سبب اضطراب الإنسان عند السماع أن الله تعالى لماخاطب الذرى في الميثاق الأول بقوله: ألست بربكم، تشربت الأرواح عذوبة سماع ذلك الكلام وتعلقت كليتها بسماعه. فإذا جاء السماع هيجها ذكر ذلك.

وقال سهل بن عبد الله: السماع علم استأثر الله تعالى به، ولا يعلمه إلاّ هو.

وقال الجنيد: السماع فتنة لمن طلبه ولمن صادفه.

وسئل الشبلي عن السماع فقال: ظاهره فتنة وباطنه عبرة.

وقال الجنيد: إذا رأيت المريد تحت السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة.

وسئل أبو علي الروزا بادي عنه فقال: ليتنا خلصنا منه رأساً برأس.

وسئل أبو سليمان الداراني عنه فقال: كل قلب يريد الصوت الحسن فهو ضعيف يداوى به كما يداوى به الصبي كي ينام.

ثم قال: والصوت الحسن لا يُدخل في القلب شيئاً إنما يحرك ما يكون ساكناً فيه.

وقال القشيري: سألت الأستاذ أبا علي غير مرة في طلب الرخصة بالسماع فكان يجيبني بما يمنع عنه، ثم بعد طول المعاودة قال لي إن المشايخ قالوا: ما جمع السماع قلب إلى الله تعالى.

وقيل رأى رجل النبي عليه السلام في المنام، فقال: ما رأيت شيئاً أدخل به عليكم إلاّ السماع.

وقال الأستاذ أبو علي: السماع حرام على العوام لبقاء نفوسهم، مباح للزهاد لحصول مجاهدات، مستحب لأصحابنا لحياة قلوبهم.

وسئل ذو النون عن الصوت الحسن فقال: مخاطبة في الإشارات أودعها كل طيب طيبه.

وسئل عن السماع: وارد حق يزعج القلوب إلى الحق.

وقيل: لا يصلح السماع إلاّ لمن له نفس ميتة وقلب حي.

وقال عثمان المغربي: من ادعى السماع ولم يسمع صوت الطيور وصرير الباب وتصفيق الرياح مدع كذاب.

وقال أبو سهل: المستمع بين الإستتار والتجلي. فالاستتار يوجب الإحتراق، والتجلي يوجب الترويح، والأول يتولد منه حركات المريدين وهو محل الضعف، والثاني يتولد منه سكون الواصلين وهي محل الإستقامة والتمكين وذلك صفة الحضرة فإنه ليس فيها إلا الذبول تحت موارد الهيبة.

حقيقة النفس:

وأما حقيقة النفس والروح ففي اللغة بمعنى واحد. والنفس أيضاً بمعنى الجسد.

والقلب في اللغة هذه المضغة المعروفة، وقد يعبر به عن العقل وبه فسر القراء قوله لمن كان له قلب.

وقال ابن فارس: وخالص كل شيء وأشرفه قلبه.

وفي اصطلاح الحكماء أيضاً لا فرق بين النفس والروح. كما قال أهل اللغة.

وعند الأطباء: النفس قوة كلية مدبرة للبدن متصرفة في أنواع قواه الجزئية، والروح عندهم بخار الدم واللطيفة.

وعند بعض أهل الحقيقة: النفس والروح والقلب بمعنى واحد، والإرادة المتعلقة بالمضغة المعروفة. وذلك المعنى هو المراد بقوله عليه

السلام إلاّ أن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب، وعند بعض أهل الحقيقة من أهل السنّة: الروح هي الحياة وعند بعضهم هي عين لطيفة مودعة في هذه القوالب تلازمها الحياة عادة ولها ترق في حالة النوم ومفارقة البدن ثم رجوعها إليه في حالة اليقظة. والإنسان هو مجموع الروح والنفس والجسد. وقد سخر الله تعالى هذه الجملة[٢] بعضها لبعض، والحشر يكون للجملة وكذا الثواب والعقاب.

والأرواح مخلوقة ومن قال بقدمها فهو مخطىء خطأ عظيماً.

وقيل: النفس في اصطلاح أهل الحقيقة: ما كان معلوماً ومذموماً من أوصاف العبد وأقواله وأفعاله.

ومن المحتمل أن تكون النفس لطيفة مودعة في قالب اليدين وهي محل للأخلاق الذميمة، كما أن الروح لطيفة مودعة فيه، وهي محل للأخلاق الحميدة.

ومثال النفس والروح من الأجسام اللطيفة الملائمة والشيطان.

والروح أشرف من القلب.

والنفس على ثلاثة أقسام:

- النفس الأمّارة وهي محل الأخلاق الذميمة كالشهوة والغضب والكبر والحسد
- النفس اللوامة: وهي المطمئنة، إذا دنست بأوساخ المعاصي تلوم صاحبها على ما فعل.

---

(٢) العناصر الثلاث.

- والنفس المطمئنة: وهي نور من أنوار القدس فائض على جرم القلب

والنفس بمعنى الجسد وهو العالم الأصغر والمثال والأنموذج للعالم الأكبر، وفيه من العجائب ما لا يدركه إلاّ الراسخون في العلم.

وإلى ذلك وقعت الإشارة الإلهية بقوله تعالى: ما أثنى على نفسه بخلق شيء من الموجودات كثنائه على نفسه بخلق الإنسان في قوله تعالى:

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾

إلى قوله: فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقال بعض أهل الحقيقة: القلب نور له شعبتان: شعبة ممتدة إلى عالم الملكوت وله بها نسبة إلى الملائكة وبها يصلح معاده. وشعبة ممتدة إلى عالم الكون والفساد بها نسبة إلى أهل الأرض وبها يصلح معاشه، فمن أدركته جواذب العناية الأزلية إلى لقاء الحق بذوق حلاوة اللذات القدسية غلبت الشعبية الأولى على الثانية غلبة يحصل بها الفناء عن عالم الحس والبقاء في عالم القدس فيصير كاشفا المشاهد في العالم العلوي عجائبها وغرائبها، وتلك فضيلة يختص بها الله بها من يشاء.

واعلم أن النفس التي هي عندهم[٣] ما كان معلولاً ومذموماً من أوصاف العبد وأخلاقه الكبر والعجب والحسد والحقد والبخل وقلة الاحتمال ونحوها قابل الزوال بالمجاهدات وتعويد النفس خلاف ذلك.

وأشد أحكام النفس وأصعبها توهمها أن لها استحقاق قدر

(٣) عند أهل الحقيقة عطفاً على المقطع السابق.

وتعظيم وتبجيل، ولهذا عُدّ هذا من الشرك الخفي.

ومعالجة الأخلاق بترك النفس وكسرها إثم من مقاساة الجوع والعطش وغيرها من المجاهدات التي تتضمن سقوط القوة وإن كان ذلك أيضاً من جملة ما تكسر به النفس.

السر:

وأما السر وهو عندهم لطيفة مودعة في القلب كالروح، وهو محل المشاهدة كما أن الروح محل المحبة والقلب محل المعرفة.

وقالوا: السر ليس لك إشراف عليه، وسر السر ما لا يطّلع عليه إلا الله تعالى. [والسر عندهم ألطف من الروح. ويطلق على السر ما يكون مصوناً بين العبد وربه من الأحوال ويقال: صدور الأحرار قبور الأسرار.

التفكير:

واعلم أن التفكير هو أعظم العبادات والعبارات.

قال الله تعالى في ذلك: لآيات لقوم يتفكرون.

وقال: ويتفكرون في خلق السموات والأرض.

وقال النبي (عم): تفكر ساعة خير من عبادة سنة.

وقال: تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله.

وقال: تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تفكرون قدره.

والفكر على خمسة:

فكر في آيات الله تتولد منه المعرفة

وفكر في نعم الله ومنته ومنه تتولد المحبة

وفكر في وعد الله وثوابه وتتولد منه الرغبة.

وفكر في وعيد الله وعقابه ويتولد منه الرهبة.

وفكر في تفريط الإنسان في جناب الله ويتولد منه الحياء والندامة.

واعلم أن التفكر قائد الإنسان إلى الخير ودليله إذا كان تفكراً صحيحاً مقصوداً به القرار من الخلق إلى الحق والتفتيش عن أقرب طرق الوصول إلى الله.

الشوق:

وأما الشوق ففي اللغة احتياج القلب لقاء المحبوب وكذلك هو في اصطلاح أهل الحقيقة حتى قال بعضهم: هو احتراق الأشياء وتلهب القلوب وتقطع الأكباد.

وقيل: علامة قطع الجوارح عن الشهوات

وقيل: علامته حب الموت مع كون الإنسان في العافية والراحة.

وقيل: شوق أهل القرب أتم من شوق المحبوبين ولهذا قيل: وأبرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام.

وقال السري: الشوق أجل مقام العارف.

وقيل: الشوق على درجات، في أعلى المقامات، فإذا بلغه الإنسان إستبطاء الموت شوقاً إلى لقاء ربّه والنظر إليه. والشوق ثمرة المحبة، فقدر المحبة يكون الشوق. ويؤيد ذلك ما روي أن رجلاً سأل إبن عطاء: هل الشوق أعلا أم المحبة؟ فقال: المحبة لأن الشوق يولد منها.

واعلم أن لا فرق في اللغة بين الشوق والإشتياق. وقد فرّق

بينهما أهل الحقيقة فقال أبو علي الدقاق: الشوق يسكن باللقاء، والإشتياق يزيد به.

وقال النصر آبادي: للخلق كلّهم مقام الشوق وليس لهم مقام الإشتياق وهوأعلا

وفي الخبر: اشتاقت الجنة إلى ثلاثة: عليّ وعمّار وسلمان الفارسي

وعن زيد بن ثابت أن النبي صلم علّمه هذا الدعاء وأمره أن يتعهد أهله كلّ صباح:

اللهم إني أسألك الرضاء بالقضاء وبرد العيش بعد الموت، ولذه النظر إلى وجهك والشوق إلى القائل في غير ضراء مضرّة، ولا فتنة مضلّة.

الفصل السادس والسبعون:

حقيقة القلب والنفس والروح الأعظم والسر

إعلم أن القلب هو النور الأزلي الذي أنزله الملك الرحمٰن لينظر به إلى الإنسان وعبّر عنه بالقرآن بروح الله المنفوخ في روح آدم.

وقال: ونفخت فيه من روحي.

ويسمى هذا النور القلب فهو لبابة المخلوقات وزبدة الموجودات. وسمي بهذا الإسم لأن قلب الشيء خلاصته وزبدته ولذا ورد في الخبر: في جسد إبنه آدم مضغة إذا صلحت صَلُح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب.

واعلم أن القلب دائم التقلب من الشر إلى الخير وبالعكس، وإن القلب ليس له قضاء مخصوص بل كله وجه. بمعنى أنه من جميع جهاته وجه. فبعضه مقابل لعالم الغيب، وبعضه مقابل لعالم الشهادة.

وقال الشيخ الأكبر: إعلم إن القلب ليس له قفاء بل كله وجه ولكن موضع الهمم منه يسمى وجهاً، وموضع الفراغ منه يسمى فراغاً.

واعلم إن الهم لا يكون له من القلب جهة مخصوصة بل قد

يكون تارة إلى فوق وتارة إلى تحت وعن اليمين وعن الشمال على قدر صاحب ذلك القلب.[فإن في الناس من يكون همه أبداً إلى فوق، أي لتلقي التجليات والواردات كالعارفين.

ومنهم من يكون همه من تحت أبداً كأهل الدنيا فيكون لهمها وجلبها وجمعها.

ومنهم من يكون همه أبداً إلى الشمال وهو موضوع النفس فإن محله في الضلع الأيسر وأكثر البطالين لا يكون لهم إلا أنفسهم، وأما المحقوقون فما لهم هم، فليس لقلوبهم موضع يسمى قفاء بل يقابلون بالكلية والأسماء والصفات فلا يختص وقتهم باسم ولا بغيره لأنهم ذاتيون. فهم مع الحق بالذات لا بالأسماء والصفات.

وأما من كان قلبه مع التغيرات بتجلي الأسماء والصفات فيكون حاله مع ذلك الإسم، فإذا تجلى عليه الحق بإسمه الباسط فيكون مبسوطاً، أو بإسمه القابض فيكون مقبوضاً وهكذا بقية الأسماء والصفات.

الروح:

وأما الروح فهي اللطيفة العاملة المدركة من الإنسان الراكبة على الروح الحيواني النازل من عالم الأمر تعجز العقول من إدراك كنهه، وتلك الروح قد تكون مجردة وقد تكون منطبقة في البدن.

وأما الروح الحيوانية جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني وينتشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن.

وأما الروح الحيوانية جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني وينتشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن.

وأما الروح الأعظم فهي الروح الإنسانية، مظهر الذات الإلهية

من حيث ربوبيتها كذلك لا يمكن أن يحوم حولها حائم ولا يروم وصلها دائم، لا يعلم كنهتها إلاّ الله. [وهي العقل الأول والحقيقة المحمدية والنفس الواحدة والحقيقة الأسمائية، وهي أول موجود خلقه الله تعالى على صورته أي على صفته، وهي الخليقة الأكبر، وهي الجوهر النوراني. [جوهريته مظهر الذات، ونورانيته مظهر علمها.

وتسمى باعتبار الجوهرية، نفساً واحدة وباعتبار النورانية عقلاً أولاً، وكما أن له في العالم الكبير مظاهر وأسماء من العقل الأول والقلم الأعلى، والنور والنفس الكلية واللوح وغيرها فكذلك في العالم الأصغر الإنساني مظاهر وأسماء بحسب ظهوراته ومراتبه في اصطلاح أهل الله وغيرهم.

وهي السرّ الخفي والروح الكلية والقلب والفؤاد والصدر والعقل والنفس، وأما السر فهو لطيفة مودعة في القلب كالروح في البدن، وهو محل المشاهدة كما أن الروح محل المحبة، والقلب محل المعرفة.



—2—

جامع الأصول في الأولياء

الطرق الصوفية

تعتبر الطريقة النقشبندية أقرب الطرق وأسهلها على المريد للوصول إلى درجات التوحيد في التصوف . وحسب المصطلحات الصوفية فان هذه الطريقة تقدم الجذب على السلوك بينما بقية الطرق مبنية على تقديم السلوك على الجذب ولذا قالوا إن بداية الطريقة النقشبندية هي نهاية سائر الطرق إلا من كان له قدم المحبوبية والمرادية كبعض الأولياء الذين تقدم فتحهم على السلوك .

الى ذلك يبقى الكتاب واحدا من الكتب الجامعة للطرق على أنواعها ، فهو عالج الطرق النقشبندية والشاذلية أساسا وقارنها بطرق أخرى كانت سائدة مستشهدا بأقوال شيوخها ومؤسسيها حتى أحاطنا إحاطة وافية بما أراد .